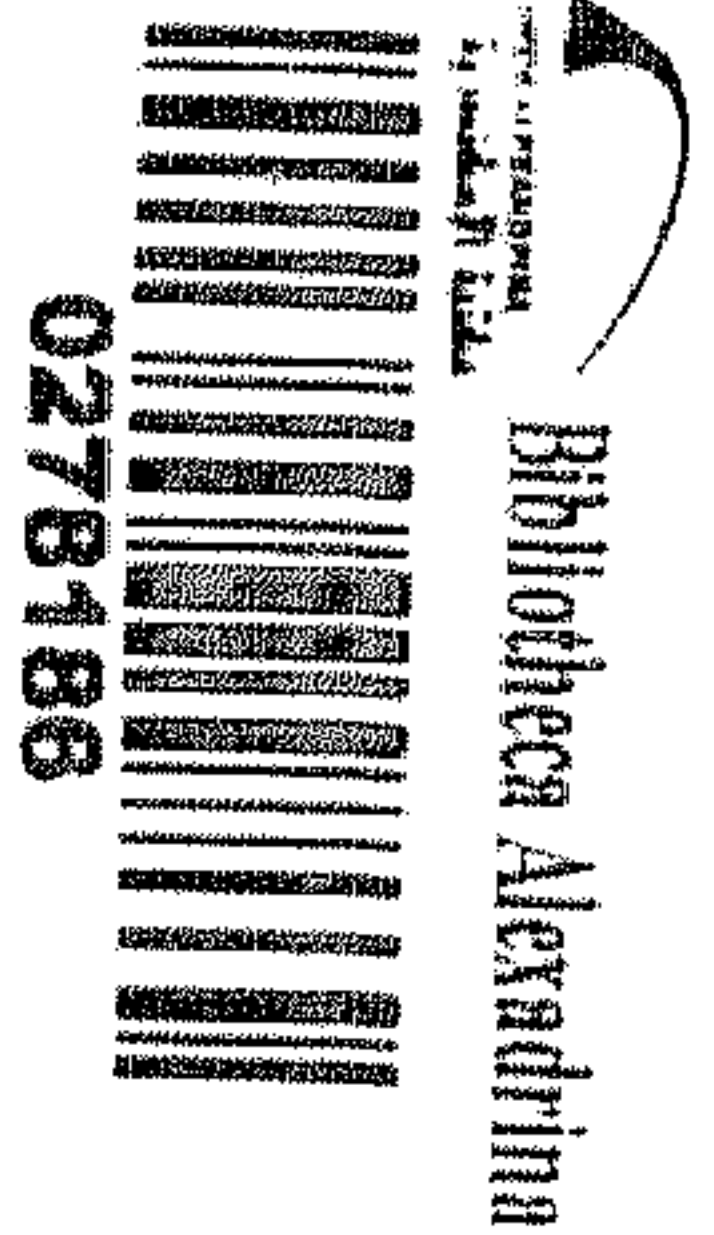


جان بول سارتر

الجزيرة

ترجمة
هاشم الحسيني



منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت

16600



جان بول سارتر

General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

الأمم المتحدة

ترجمة

هاشم الحسيني

مكتبة جامعة الإسكندرية

رقم التصنيف: 843

رقم التسجيل: 10010/2

1963

منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت

الى اولغا كوزا كيش

تعريف

عودنا سارتر في ابجائه ورواياته ومسرحياته وصف الحالات النفسية في أوج توترها . لذا نراه يخلق « مواقف » الاحراج والقلق ليعبر بها عن «المواطن الحادة التي تعصف بذات الانسان . فهو كما سماه أندريه مورا «خبير المشاعر الانسانية الصاخبة» .

و« الجدار » عنوان كتابنا هذا يتضمن خمس أقصوصات ، أولاها الجدار ، وهي قصة ثلاثة اشخاص ينتظرون ساعة إعدامهم رمياً بالرصاص صبيحة الغد ، يحلل فيها سارتر مشاعر كل منهم ، ومظاهر تلك المشاعر كما تتمثل في أنواع سلوكهم .

غير أن المواقف المتشابهة التي يعيشها أبطال القصة في مجابهتهم خطر الموت ، لا يعني أن كلا منهم قد فقد ذاتيته . فاذا ما كانوا جميعاً حيال خطر واحد يحيط بهم ، فإن لكل منهم « موقفه » الخاص ، يواجهه من زاوية بيئته وثقافته ونوعية تفكيره ، فضلاً عن عمره ومدى تجاربه .

ولا شك أن موضوع الجدار ، يحتاج لمقدرة فنية في التحليل الدقيق

والوصف الحي . فهو يبرز ذلك الجو الرهيب الذي يعيشه الانسان في أقصى
ساعات الحرج .

وتعد قصة « الجدار » من أرقى الاعمال الفنية التي تمثل التفكير السارترى ،
فهي تظهر مدى العمق الذي بلغه الكاتب الفرنسي في سبره أعماق المشاعر
الانسانية .

المترجم

دفعونا الى داخل قاعة كبيرة بيضاء ، فتراقصت عيناى لأن النور كان يؤذيها . رأيت ، من ثم ، طاولة وراءها أربعة أشخاص من المدنيين ، كانوا يتصفحون الأوراق . وحشدوا السجناء الاخرى في القعر وكان علينا أن نعبز الحجره حتى آخرها لنلتحق بهم . كنت أعرف العديدين منهم أما الآخرون فغرباء . والاثنان اللذان يواجهاننى كانا أشقري اللون على جمعتين مستديرتين . إنها يتشابهان : فهما فرنسيان على ما اتصور . كان أصغرهما ينهض سرواله طيلة الوقت . كما كان عصبي المزاج .

استمر هذا الحال ثلاث ساعات ؛ كنت مخبولاً وكان رأسي فارغاً لكن الغرفة مدفأة و كنت أجد هذا شيقاً : منذ ثمان وأربعين ساعة لا زلنا نرتجف . كان الحراس يقتادون السجناء الواحد تلو الآخر أمام الطاولة . وعندها يسألهم الأشخاص الأربعة عن اسمهم ومهنتهم . ولم يذهبوا أكثر من ذلك معظم الوقت - أو انهم كانوا يطرحون سؤالاً من هنا وهناك : « هل اشتركت في تدمير الذخيرة ؟ » أو بالأحرى « أين كنت صبيحة يوم ٩ وما كنت تفعله ؟ » لم يكونوا ليصفوا للأجوبة أو أن ذلك لم يبد عليهم على الأقل : كانوا يسكتون برهة ويتطلعون أمامهم ثم يأخذون بالكتابة . سألوا توم إذا كان قد خدم حقاً في الفرقة الدولية : لم يكن توم ليستطيع قول العكس بسبب الأوراق التي وجدت في سترته . ولم يسألوا جوان شيئاً ، فبعد أن ذكر اسمه ، استمروا بالكتابة طويلاً .

قال جوان : « إن أخي جوزي هو الفوضوي . وانتم تعرفون جيداً

«انه ليس هنا . أنا لا انتمي لأي حزب ، ولم اعمل بالسياسة أبداً .»

لم يجيبوا . فأضاف جوان :

« أنا لم أعمل شيئاً . لا أريد أن ادفع الثمن عن الآخرين » .

كانت شفتاه ترتجفان . أسكتته أحد الحراس واقتاده . وجاء دوري .

– اسمك يا بيلو إيبانا ؟

فقلت : نعم .

نظر الشخص الى أوراقه وقال لي :

– أين رامون غري ؟

– لا أعرف .

– خباته في بيتك من يوم ١٦ الى ١٩ .

اخرجني الحراس . في الممر كانت توم وجوان ينتظران

– اس . بدأنا بالمسير . سألت توم أحد الحارسين :

– وبعده ؟

فقال الحارس : ماذا ؟

– هذا استجواب أم حكم ؟

فقال الحارس :

– كان الحكم .

– حسناً ، ما سيفعلون بنا ؟

أجاب الحارس بحفاف :

– ستبلغون الحكم في زناناتكم .

وفي الواقع ، أن ما كان بمثابة زنزانة لنا هي أقبية المستشفى . كان فيها

البرد شديداً بسبب مجاري الهواء . ظللنا نرتجف طيلة الليل ولم تتحسن الحال طيلة النهار . الأيام الخمسة الماضية أمضيتها في سجن البرشية المظلم ، وهو نوع من زنانات العصر الوسيط ؛ وبما ان السجناء كثيرون والمكان ضيق ، فقد رصفوهم اينما كان . لم أكن آسف على سجنني المظلم : لم أعان فيه من البرد غير اني كنت وحيداً فيه ؛ وهذا مزعج اذا استمر . وفي القبو كنت لي صحبة . جوان لم يكن ليتكلم أبداً : كان خائفاً ثم انه كان أصغر من أن يتكلم . لكن توم كان محدثاً لبقاً يتقن الاسبانية تمام الاتقان .

في القبو كان هناك مقعد وأربعة فرش محشوة بالقش . وعندما عادوا بنا ، جلسنا ننتظر بصمت وقال توم بعد برهة :

– انتهى أمرنا .

فقلت : اعتقد ذلك أيضاً ، لكني اظن أنهم لن يفعلوا شيئاً بالنسبة للصغير .

فقال توم : لا يستطيعون اتهمه بشيء ، انه شقيق لثائر ، هذا كل شيء .

نظرت الى جوان : لم يكن يبدو عليه أنه ينتبه .

وتابع توم :

– هل تدري ما يفعلونه في سراغوسه ؟ يطرحون الاشخاص على الطريق ويمرّون فوقهم بالشاحنات . اخبرنا بذلك أحد المغاربة الفارين . يقولون إن ذلك لتوفير الذخيرة . فقلت :

– هذا لا يوفر المحروقات .

كنت غاضباً من توم : ما كان عليه أن يقول ذلك . وأضاف : هناك ضباط يتنقلون على الطريق ، يشرفون على العملية ، أيديهم في جيوبهم والسيكار

في فهم . أتظن أنهم يجهزون على الاشخاص ؟ يدعونهم يتصايحون عدة مرات في الساعة . كان المغربي يقول انه لم يصرخ في المرة الأولى . فقلت :
- لا أظن انهم سيفعلون هذا هنا . إلا إذا كان ثمة نقص في الذخيرة .

كان النهار يدخل من خلال الفجوات الأربع والثغرة المستديرة التي أحدثت في السقف ، الى جهة اليسار ، وكانت مشرفة على السماء . فمن خلال هذا الثقب المستدير المسدود عادة بحاجز صغير ، كانوا يرمون بالفحم الى القبو . تحت الثقب تماماً كانت توجد كومة كبيرة من الفحم المسحوق . وكان مخصصاً لتدفئة المستشفى ، ولكن منذ بداية الحرب تم إجلاء المرضى وظل الفحم هناك بغير استعمال . وكان المطر يتساقط بالمناسبة ، إذا اغفلوا إغلاق الحاجز الصغير .

بدأ توم يرتجف وقال :

« يا اسم الله المقدس ، اني ارتجف ، ها أن كل شيء يعاودني » .

ونفض وبدأ يقوم ببعض الحركات الرياضية . وفي كل حركة كان قميصه ينفتح على صدره الأبيض المكسو بالشعر . تمدد على ظهره ورفع رجليه في الهواء على شكل مقص : كنت أرى مؤخرته السمينة ترتجف . كان توم قوي البنية لكنه كان كثير الشحم . كنت أفكر بأن رصاصات البندقية أو رؤوس الحراب لا بد وأن تدخل في تلك الكتلة من اللحم الطريء كما تدخل في قطعة من الزبدة . لم يكن يحدث لي نفس الاثر لو كان ضعيفاً .

لم أكن اشعر بالبرد تماماً ، بل كنت لا أحس كتفي ولا ذراعي . كان يتهاون لي من وقت لآخر أن شيئاً ما ينقصني فأبحث عن سترتي حولي ، ثم أتذكر بغتة انهم لم يعطوني السترة . كان الأمر عسيراً . أخفوا ثيابنا ليعطوها جنودهم ولم يتركوا لنا سوى قمصاننا ، وتلك السراويل التي

يرتديها مرضى المستشفيات في الصيف . بعد برهة نهض توم وجلس قربي
وهو ينفخ .

- هل تدفأت ؟

- يا اسم الله المقدس ، لا . ولكنني على آخر نفس .

نحو الساعة الثامنة دخل أحد القواد مع اثنين من الكتائب . كانت بيده
ورقة . فسأل الحارس :

- ما اسم هؤلاء الثلاثة ؟ فقال الحارس :

- ستينبوك ، إبياتا وميربال .

ووضع القائد نظارته القديمة ونظر الى اللائحة :

- ستينبوك ... ستينبوك ... انظر . انت محكوم بالإعدام . ستعدم
رمياً بالرصاص صباح غد .

وتطلع أيضاً ثم قال :

- والآخران أيضاً ، فقال جوان :

- غير معقول . ليس أنا . فنظر اليه القائد بدهشة :

- ما اسمك ؟ فقال : جوان ميربال .

فقال القائد :

- اسمك هنا ، انت محكوم .

فقال جوان : لم أفعل شيئاً .

فهز القائد كتفيه واتجه نحو توم ونحوي .

- انتما من الباسك ؟

- لا أحد من الباسك .

بدا أنه منزعج .

بدأ توم بالكلام وسألني :

« هل قتلت أشخاصاً ، انت ؟ » لم أجب . فأخذ يشرح لي كيف انه قتل ستة أشخاص منذ بداية شهر آب ، لم يكن يعي الموقف ، ورأيت أنه لم يرغب بأن يشعر بذلك . أما أنا فلم أكن أفقه شيئاً كما يجب ، كنت اتساءل إذا كانوا يتألمون كثيراً ، وأفكر بالرصاصات ، وأتصور أجسامها المحرقة عبر جسدي . كل هذا كان على هامش القضية الحقيقية ، لكنني حافظت على هدوئي : فلدينا الليل كله لنفهم . وبعد لحظة امسك توم عن الحديث فنظرت إليه بطرف عيني . رأيت أنه بات داكن اللون ، هو أيضاً ، وأن ملاحظته تدل على البؤس ، وقلت في نفسي : « ها هي البوادر » كان الوقت ليلاً الى حد ما ، والضوء الباهت يدخل من خلال الثغرات وكومة الفحم ، يحدثاً لطخة كبيرة تحت السماء . من ثقب السقف بت أرى إحدى النجوم : سيكون الليل ضافياً بارداً .

وفتح الباب ليدخل حارسان . كان يتبعها رجل أشقر يرتدي بزة رسمية بلجيكية . حيناً ثم قال : « أنا طبيب . ولدي الأذن بمؤازرتكم في هذه الظروف العصيبة » .

كان صوته مميّزاً يروق للسامع . وقلت له : « ما جئت تفعله هنا ؟ »

– أضع نفسي تحت تصرفكم . سأبذل قصارى جهدي حتى لا تكون هذه الساعات القليلة شديدة الثقل .

– لماذا أتيت إلينا ؟ فهناك أشخاص آخرون ، يضيق بهم المستشفى . فأجاب بهيئة مبهمه :

– لقد أرسلوني الى هنا . وأضاف : « آه ! كان بودكم أن تدخنوا اليس كذلك . لديّ سجاثر وسيكار أيضاً » .

قدم لنا سجاثر انكليزية لكننا رفضنا . نظرت في عينيه فبدا متزعجاً .

وقلت له :

« انت لا تأتي الى هنا للمسايرة . فأنا أعرفك . لقد شاهدتك مع الفاشيين
بقي باحة الشكنة ، في اليوم الذي أوقفت فيه . »

كنت أهم بالمتابعة ، ولكن شيئاً ما أتاني فجأة فباغتني : إن وجود هذا
الطبيب لم يعد يهمني . عادة ، عندما أكون تجاه رجل لا أتركه ابداً . ومع
ذلك فإن الرغبة في الكلام ذهبت مني . فهزرت كتفي وحوّلت عيني . بعد
ذلك بقليل ، نهضت رأسي : كان يراقبني مراقبة الفضولي . كان الحراس قد
جلسوا فوق أحد فرش القش . بادرو الطويل الناحل كان يدير ايهاميه ،
والآخر يهز رأسه من وقت لآخر حتى لا ينام .

قال بادرو فجأة للطبيب : « هل تريد ضوءاً » . فأوماً الآخر برأسه أن
« نعم » : أظن انه لم يكن أذكى من قطعة الحطب ، لكنه لم يكن خبيثاً
بلا ريب . والناظر إلى عينيه الزرقاوين الباردتين يرى أنه كان يخطيء لضعف
خياله . وخرج بادرو وعاد حاملاً سراجاً على النفط وضعه على طرف المقعد .
كان السراج لا يضيء كثيراً ، ولكنه أفضل من لا شيء : فقد تركونا البارحة
في الظلام . نظرت لبرهة غير قصيرة الى دائرة النور التي رسمها السراج في
السقف . كنت مشدوهاً . ومن ثم ، استيقظت بغتة ، فامحت دائرة النور
وأحسست بأني منسحق تحت عبء ثقیل . لم تكن تلك فكرة الموت أو
الخوف : بل كان ذلك مبهماً . كان خدائي يحرقانني كما كنت أشعر بألم في
جمجمتي .

نبتت نفسي وتطلعت الى صاحبي . كان توم قد أغرق رأسه بين يديه ،
فلم أكن أرى سوى رقبتة السمينة البيضاء . والصغير جوان كان أكثرنا بعداً
عن طوره ، كان فمه مفتوحاً ومنخراه يرتجفان . اقترب الطبيب منه ووضع
يده فوق كتفه وكأنه يريد أن يواسيه . لكن عينيه ظللتا مثلجتين . ثم شاهدت
يد البلجيكي تنزل على طول ذراع جوان حتى القبضة . وجوان يسمح له

بذلك غير آبه . وأخذ البلجيكي يده بين أصابعه الثلاث ، بأسارير منبسطة ، وفي نفس الوقت تراجع قليلاً الى الوراء لكي يدير لي ظهره . غير اني انحنيت نحو الورااء فشاهدته يخرج ساعته وينظر إليها لحظة بدون أن يترك يد الصغير . وما هي إلا هنيهة حتى ترك اليد الجامدة وذهب الى الجدار يستند إليه ، ثم أخذ دفترأ صغيراً من جيبه ، وكأنه تذكر فجأة بأن عليه أن يراقب ، وكتب عليه عدة اسطر . وقلت في نفسي : « لن يأتي هذا القدر ليحس نبضي ، فسأضربه بقبضة يدي على أم وجهه » .

ولم يأت ، ولكنني كنت أحسّ بأنه ينظر إليّ . فرفعت رأسي ونظرت اليه بالمقابل . فقال لي بصوت كأنه ليس صادراً عنه : « ألا تجد أننا نرتجف هنا ؟ »

كان يبدو عليه أنه بارد الجسم ، فقد كان بنفسي اللون . فأجبتة :

« أنا لا أشعر بالبرد »

ولم ينفك عن النظر الي ، بعين قاسية . فجأة فهمت ورفعت يدي الى وجهي : كنت مبتلاً بالعرق . في ذلك القبو ، وفي خضم الشتاء ، وفي مجاري الهواء ، كان العرق يتصبب مني . ومررت بأصابعي على شعري الذي يبس عن العرق . ورأيت في نفس الوقت أن قميصي مبللة لاصقة بجسدي : كان العرق يتصبب مني منذ ساعة على الأقل ولم أحس بشيء . ولكن هذا البلجيكي لم يتغافل عن هذا : فقد رأى القطرات تتدحرج على خدي وفكر : انها عوارض شبه مرضية للخوف . كان يحسّ أنه طبيعي وبكل فخر لأنه كان يشعر بالبرد . أردت أن أقوم بحركة بسيطة حتى أحمي خجلي وغضبي . وسقطت على المقعد غير آبه .

اكتفيت بفرك عنقي بمنديلي ، لاني الآن بت أشعر بالعرق المتصبب من

شعري على رقبتى وكان كريهاً وفجأة عدلت عن فرك رقبتى ، كان ذلك
بغير جدوى : وكان منديلي قد أصبح برسم التمزيق ، والعرق لا يزال
يتصبب . كنت أعرق في مؤخرتي أيضاً كما كان سروالي المبلل لاصقاً
بالمقعد .

وتكلم جوان الصغير فجأة :

– هل انت طيب ؟ فقال البلجيكي : نعم .

– هل نتألم ... لوقت طويل ؟

فقال البلجيكي بصوت أبوي :

– أوه ! متى ...؟ كلا بل إن الأمر ينتهي بسرعة .

كان يبدو عليه أنه يشدد من عزيمة مريض يدفع الثمن .

– ولكن أنا ... قيل لي ... أنهم يعمدون في أكثر الاحيان الى

رشقتين .

فقال البلجيكي وهو يحرك رأسه : في بعض الأحيان قد لا تصيب الرشقة

الاولى أياً من الاعضاء الحيوية .

– عندها من الواجب إعادة تعبئة البنادق والتصويب من جديد !

– هذا يستمر وقتاً طويلاً !

كان يخاف أن يتألم خوفاً هائلاً ، ولم يكن يفكر إلا بهذا : وهذا بنسبة

عمره على كل حال . أما أنا فلم أعد أفكر بذلك كثيراً ولم يكن الخوف من

العذاب ما كان يجعل العرق يتصبب مني .

نهضت ومشيت الى كومة الفحم المسحوق . فارتجفت نوم ورماني بنظرة

بغيضة : كنت أزعجه لأن حدائي يقرقع . وتساءلت في نفسي إذا كان

وجهي مخيفاً قدر وجهه : رأيت أن العرق يتصبب منه هو الآخر . كانت

السماء رائحة ، لم يكن أي ضوء يتسرب الى هذه الزاوية المعتمة ، وليس عليّ إلا أن أرفع رأسي حتى أشاهد الدب الاكبر. ولكنه ليس كما في السابق: ليلة أول أمس ، في سجن الأبرشية ، كان بإمكانني أن أشاهد قطعة من السماء كبيرة ، وكل ساعة من النهار كانت تبعث في نفسي ذكري مختلفة . وفي الصباح حين كانت السماء زرقاء حادة وخفيفة ، كنت أفكر بالمسابع على ضفاف الاطلسي . في الظهر أرى الشمس وأتذكر ذلك البار في سفيل ، حيث كنت أشرب النبيذ الاسباني وانا آكل السمك والزيتون . وبعد الظهر أصبح في الظل ، أفكر بذلك الظل العميق الذي يمتد على نصف مساحة الحلبات بينما كان نصفها الثاني يسطع تحت الشمس : كان عسيراً حقاً أن نبصر الارض هكذا تنعكس في السماء . لكنه أصبح بإمكانني الآن أن اتطلع في الهواء ما شئت ، فلم تعد السماء توحى لي بشيء . كنت أفضل هذا . وعدت لأجلس بجوار توم . ومرت فترة طويلة .

بدأ توم حديثه بصوت خافت . كان عليه دائماً أن يتكلم ، فبدون هذا لم يكن يستطيع أن يعرف نفسه من خلال أفكاره . أظن انه كان يوجه كلامه الي ولكنه لم يكن يتطلع نحوي . فقد كان يخشى بلا ريب أن يراني كما كنت ، داكن اللون يتصبب مني العرق : كنا أشبه بالمرايا أو أسوأ ، بالنسبة لبعضنا البعض . كان يتطلع الى البلجيكي ، الحي . وكان يقول له :
« هل تفهم ، انت ؟ أنا لا أفهم » .

بدأت أنا ايضاً بالحديث بصوت خافت . كنت أتطلع الى البلجيكي .
« ماذا ، ما هنالك ؟ »

– سيحصل لنا شيء لا أستطيع أن أفهمه .

كانت هناك رائحة غريبة حول توم . فقد بدا لي اني أكثر احساساً للرائحة من ذي قبل .

وهممت متضحكاً :

« ستفهم في الحال . فقال بوجه عنيد : ليس الأمر واضحاً . أودّ أن تكون لي الشجاعة ، ولكن علي أن أفهم على الأقل ... إصغ ، سيققادوننا الى الباحة . وسيصطف الأشخاص بمواجهتنا . كم سيكون عددهم ؟

— لا أعرف . خمسة أو ثمانية . ليس أكثر .

— حسناً . سيكونون ثمانية . سنصيح فيهم : « صوبوا على الهدف » . وسأرى البنادق الثماني مصوبة الي . أفكر بأني سأدخل في الجدار ، سأدفع الجدار بكل قواي ، والجدار يقاوم ، كما هي الحال في الكابوس . كل هذا بإمكانني أن أتصوره . آه ! لو تدري كم بإمكانني أن أتصوره . فقلت له :

— حسناً ! فأنا أتصوره أيضاً . فأضاف بنجبت :

— سيؤدي الى عذاب الكلاب هل تدري انهم يصوبون على العينين والفم لكي يشوهوا الصورة . اني اشعر بالجراح منذ الآن ؛ فمئذ ساعة بدأت أشعر بالآلام في الرأس والعنق . ليست آلاماً حقيقية ؛ بل أسوأ هي الآلام التي سأحسها غداً صباحاً . ولكن ماذا بعدها ؟ »

كنت افهم تماماً ما يعنيه ، ولكنني لم أرغب في أن افصح عن ذلك . أما الآلام ، فأنا ايضاً كنت احملها في جسدي ، كمجموعة من ندوب الجراح . لم أشأ أن اثني فكنت مثله ، لا اعير ذلك أهمية . وقلت بقساوة . « بعدها ، ستأكل السلطة » . بدأ يتحدث الى نفسه : بدون أن يترك البلجيكي بعينه .

ولم يبد على هذا الأخير أنه كان يصغي . كنت أعرف السبب الذي جاء من أجله . وما كنا نفكر به لم يكن يهمه . لقد أتى لي شاهد أجسامنا ، تلك الأجسام التي تنازع وهي حية . قال توم . كما لو في الكابوس نود أن نفكر بشيء ، فنعتقد طيلة الوقت أننا فيه ، وبأننا سنفهمه ومن ثم نراه ينزلق ، ويفرّ ويسقط من جديد . قلت في نفسي : وبعدئذ ، لا يبقى شيء . ولكنني

لا أفهم ما يعني ذلك . هناك فترات أتوصل فيها لذلك تقريباً ... ثم يسقط من جديد ، وأعود لأفكر بالآلام والرصاص والمفرقات . أنا مادي ، أقسم لك بذلك . فلن أصبح مجنوناً . لكن أمراً ما ليس على ما يرام . اني أرى جثتي : ليس هذا شاقاً ولكني أنا الذي أراها ، بأمّ عيني . عليّ أن أتوصل لأفكر . . . لأفكر بأني لن أرى شيئاً ، ولن اسمع شيئاً وان العالم سيستمر بالنسبة للآخرين . نحن لم نوجد لنفكر هكذا يا بابلو . بإمكانك ان تصدقني : فقد حصل لي أن سهرت الليل بطوله وأنا انتظر شيئاً . ولكن هذا الشيء ، ليس شبيهاً لذلك : إنه يباغتنا ، يا بابلو ، ولن نكون قد أتمنا الاستعداد لمواجهته . وقلت له : هل تريد أن أستدعي لك معرفاً ؟ »

لم يجب بشيء . كنت قد لاحظت انه كان يتوق الى النبوة وان يناديني بابلو متكلماً بصوت نقي . لم أكن أحب هذا كثيراً . ولكن يبدو ان جميع الارلنديين على هذه الحال . كان يتهاى لي أن رائحة البول تتصاعد منه . في الواقع لم أكن أحب توم كثيراً ولم أكن أدري لماذا . وبجدة أننا سنموت معاً كان عليّ أن أزيد تلك المحبة . هناك أشخاص تختلف معهم الحال . مع رامون غري مثلاً . ولكنني كنت أجد نفسي وحيداً بين توم وجوان . غير اني كنت افضل ذلك : لعلي كنت ازداد عاطفة لو كان الأمر مع رامون .

لكنني كنت قاسياً بصورة رهيبة في تلك الفترة ، كما كنت أرغب بالبقاء كذلك .

وتابع مضغ كلماته ، بنوع من الارتياح . أكيد انه كان يتحدث ليمنع نفسه عن التفكير . كانت رائحة البول تفوح منه بشدة كالعجزة المرضى بالبروستات . وكنت من رأيه بالطبع ، فكل ما قاله كان بإمكانني ان أقوله : فليس طبيعياً ان يموت الانسان . ومنذ بدأت استعد للموت ، لم يعد أي شيء يبدو لي طبيعياً ، لا هذه الكومة من الفحم المسحوق ، ولا المقعد ، ولا فم بادرو القدر . غير انه لم يكن يعجبني ان أفكر بما يفكر به توم . وكنت

أعلم حق العلم اننا ، طيلة الليل وبفارق دقائق خمس فقط ، كنا نتابع التفكير بالأشياء ذاتها ، وفي نفس الوقت أيضاً كان العرق يتصبب منا معاً أو أننا نرتجف معاً . نظرت اليه جانبياً ولأول مرة بدا لي غريباً : كان يحمل موته في وجهه . لقد طعنت بكبريائي : أربع وعشرون ساعة عشتها بجوار توم ، كنت أصغي اليه ، احده ، وأعرف أن ما من شيء مشترك فيما بيننا . أما الآن فنتشابه كالأخوين التوأمين ، لمجرد أننا سنلاقي حتفنا معاً . أمسكني توم بيدي دون أن ينظر الي :

« بابلو ، اني اتساءل ... أتساءل اذا كنا نندم حقاً » .

أقلت يدي وقلت له :

« انظر بين رجلينك أيها القدر » .

كانت تحت رجله بركة ، ونقاط تتساقط من سرواله . فقال مرتاعاً :

« ما هذا ؟ فقلت له :

– انت تبول في سروالك . فقال غاضباً :

– ليس هذا صحيحاً ، أنا لا أبول ولا أشم شيئاً .

كان البلجيكي قد اقترب . وسأل برجاء مصطنع :

« هل تشعر بالألم ؟ »

لم يجبه توم . ونظر البلجيكي الى البركة بدون أن يقول شيئاً . وقال توم بلهجة جسورة : « لا أعرف ما هذا ، لكنني لست خائفاً . أقسم لك بأنني لست خائفاً » .

لم يقل البلجيكي شيئاً . فنهض توم وذهب ليبول في الزاوية . وعاد وهو يزرر فتحة سرواله ، وجلس بدون أن ينبس بكلمة . كان البلجيكي يسجل ملاحظاته .

كنا ننظر اليه نحن الثلاثة لأنه حيّ . كانت له حركات كحركات الحيّ ، وهموم الحيّ . كان يرتجف في ذلك القبو ، كما يرتجف الحيّ . كان جسمه طيباً حسن التغذية . أما نحن فلم نعد نحس أجسامنا - وليس كما يحس هو على كل حال . كنت أرغب في أن أتحمس سروالي بين فخذي ، ولكنني لم أتجرأ . فانظر الى البلجيكي الواقف على رجلية بشكل قوس ، وهو يسيطر على عضلاته - كما ان بإمكانه التفكير بغده . كنا هناك ، ثلاثة ظلال بغير دم ، ننظر اليه فنمتص حياته كالأفاعي .

وأخيراً اقترب من جوان الصغير . هل أراد أن يتحسس رقبتة لسبب يتعلق بمهنته أو أن ذلك كان بدافع الاحسان ؟ فاذا فعل هذا بدافع الاحسان فقد كانت المرة الوحيدة التي قدم فيها إحساناً طيلة تلك الليلة . لقد دغدغ جمجمة جوان الصغير وعنقه . وتركه الصغير يفعل ذلك ، بدون ان يتركه بناظره ، وفجأة أمسكه بيده ونظر اليه بوجه مضحك . كان يأخذ يد البلجيكي بكلتا يديه ، ولم يكن في ذينك الملقطين الداكني اللون أي شيء طريف وهما يمسان تلك اليد السمينة الموردة ، كنت اشك كثيراً بما سيحصل وكذلك كان توم : لكن البلجيكي لم يكن يرى سوى النار ، وكان يبتسم ابتسامة أبوية . وما هي الا لحظة حتى رفع الصغير تلك الراحة الضخمة الحمراء الى فمه وأراد ان يعضها . فأفلت البلجيكي يده وتراجع حتى الجدار وهو يهتز يمنة ويسرة . ونظر اليها للحظة بهلع شديد ، كان عليه ان يفهم فجأة بأننا لسنا رجالاً مثله . أخذت بالضحك ، وارتعد أحد الحراس . والآخر الذي نام بدا جاحظ العينين لا يظهر منها سوى البياض .

كنت أحسني منهكاً ومتوتر الأعصاب معاً . لم أكن أود ان افكر بما سيحصل عند الفجر ، أي بالموت . إذ لم أفقه شيئاً من ذلك ، ولم أكن اصادف سوى كلمات أو فراغ . ولكن ما ان أحاول التفكير بشيء آخر حتى كنت أرى فوهات البنادق مصوبة اليّ . لقد عشت لحظة إعدامي نحو عشرين مرة

متتالية : اضطررت أن أنام دقيقة . كانوا يجرونني نحو الحائط ، فأتحبظ .
واطلب اليهم المغفرة . واستيقظت مذعوراً ونظرت الى البلجيكي : خشيت ان
أكون قد صرخت في نومي . لكنه كان يمسح شاربيه ؛ فلم يلاحظ شيئاً .
لو شئت ، أظن انه كان بإمكانني أن انام برهة : كنت مستيقظاً منذ ثمان
وأربعين ساعة ، وقد تملكني الاعياء . لكنه لم يكن بودي ان افقد ساعتين
من ساعات الحياة : سيأتون لايقاظي عند الفجر ، وسأتبعهم مخبولاً من النعاس
فأموت بدون ان أطلق زفرة ؛ لم اكن أرغب في ذلك ، لا أريد ان أموت
كحيوان ، أريد ان افهم .

ثم اني كنت أخشى أن أرى الكوابيس . نهضت ، وتمشيت طويلاً وعرضاً
وحتى أبدل افكاري بدأت افكر بحياتي السابقة . وعاودتني زحمة من
الذكريات ، من هنا وهناك ، منها الجميلة ومنها الرديئة - أو انني كنت
اسمها هكذا على الأقل . كانت هناك وجوه وقصص . رأيت وجه مصارع
صغير قتل على قرني الثور في فالنسيا إبان المهرجان ، وكذلك وجه أحد
أعمامي ، ووجه رامون غري . وتذكرت قصصاً عديدة : كيف أني بقيت
عاطلاً عن العمل ثلاثة اشهر سنة ١٩٢٦ ، وكيف كدت أن أموت من الجوع .
وتذكرت ليلة أمضيتها فوق مقعد في غرناطة : ولم أكن قد تناولت الطعام
منذ ثلاثة أيام ، كنت مسعوراً ، ولم أرغب في الموت . أضحكني ذلك .
فبأية همة كنت أركض وراء السعادة ، وراء النساء ، وراء الحرية . ولماذا؟
أردت أن احرر اسبانيا ، كنت معجباً بـ بي مارغال ، فالتحقت بالحركة
الفوضوية ، وتسكمت في الاجتماعات العامة : كنت آخذ كل شيء على محمل
الجد ، وكأنني كنت خالداً .

في تلك اللحظة خلت أن مجمل حياتي أمام عيني وفكرت :

« إنها كذبة مقدسة » . ولم تكن بذات قيمة لأنها انتهت . تساءلت
كيف كنت أستطيع أن اتزده وأن أهذر مع النساء : لو كنت أعلم اني

سأموت هكذا لما حركت اصغر اصابعي اطلاقاً . كانت حياتي أمامي ، مغلقة ، مطبقة ، كالحقيبة ، ومع ذلك فان كل ما في داخلها لم يكن منتهياً . وحاولت ، للحظة ، أن أعطي فيها حكماً . وددت أن أقول لنفسي : انها حياة جميلة . ولكنه ليس بالامكان اعطاء حكم عليها ، فقد كانت رسماً . كما امضيت وقتي باستخلاص المراحل في سبيل الأبدية ، ولم أفهم شيئاً . ولم أكن آسف على شيء : كانت هناك عدة أشياء يمكن أن آسف عليها ، كقطع النبذ الاسباني او الحمامات التي كنت اخذها في الصيف على خليج صغير قرب قادس . ولكن الموت أفسد كل شيء . وفجأة ، اتت البلجيكي فكرة رائعة فقال لنا :

« أيها الأصدقاء ، بإمكانني أن اتكلف - إذا وافقت الادارة العسكرية - بأن احمل منكم كلمة ، أو ذكرى الى من يحبونكم ... »

فهمهم توم :

« ليس لدي اي انسان . »

ولم اجب بشيء . وانتظر توم لحظة ، ثم تطلع الي بفضول : أألن توصي شيئاً لكونشا ؟

- كلا .

كنت أمقت هذه اللياقة الرقيقة ؛ لكنها غلظتي ، فقد تحدثت عن كونشا في الليلة السابقة ، وكان عليّ ان اضبط نفسي . كنت معها منذ سنة . وفي العشية ايضاً ، وددت قطع ذراعي بالفأس حتى أراها خمس دقائق . لهذا تكلمت عنها ، كان ذلك رغماً عني . واليوم لم أعد أرغب برؤيتها ثانية ، وليس عندي شيء أقوله لها . لم اكن أود حتى ان اضمها الى صدري ؛ كنت أمقت جسدي الذي اصبح داكن اللون يتصبب منه العرق - ولم اكن متأكداً إذا كنت أمقت جسمها ايضاً . ستبكي كونشا عندما تعلم بخبر موتي ، ستظل

شهوراً ، غير راغبة بالحياة . ولكن ، مع ذلك ، فأنا الذي اموت . فكرت بعينيها الجميلتين العذبتين . عندما كانت تنظر الي ، ينتقل شيء منها اليّ . ولكنني فكرت ان الأمر قد انتهى ؛ فاذا تطلعت اليّ في الوقت الحاضر سيظل نظرها في عينيها ولن يصل إليّ . كنت وحيداً .

وتوم كذلك كان وحيداً ، ولكن ليس بنفس الطريقة . اذ جلس منفرج الرجلين واخذ ينظر الى المقعد بنوع من الابتسام ، كانت تبدو عليه الدهشة . وقرب يده ولامس الخشب بحذر ، وكأنه يخشى ان يكسر شيئاً ما ، ثم سحب يده بجدّة وارتحف . ما تسليت بالمقعد لو كنت انا توم . كان ذلك نوعاً من التمثيليات الارلندية ، ولكنني كنت ارى ان للاشياء شكلاً مضحكاً : فقد كانت اكثر اختفاء واكل وزناً من المعتاد . اذ كان يكفي ان انظر الى المقعد ، والسراج ، وكومة الفحم المسحوق ، حتى اشعر بأني سأموت . بالطبع ، لم يكن باستطاعتي ان افكر بموتي بصفاء ، لكنني كنت اراه اينما كان ، على الأشياء ، في الشكل الذي تراجعت به الأشياء ووقفت بعيدة ، بتحفظ كأشخاص يتكلمون بصوت خافت قرب فراش انسان يموت ، كان موته ، ذاك الذي تحسسه توم على المقعد .

في الحال الذي كنت فيه ، لو جاء من يعلن لي ان بإمكانني العودة بهدوء الى بيتي ، وان حياتي سيتم انقاذها ؛ لظلمت على برودي ؛ فعدة ساعات او عدة سنين من الانتظار كلها سواء ، عندما يتبدد وهم الخلود . لم اعد اصر على شيء ، فقدت هادئاً . لكن هدوئي كان رهيباً - بسبب جسدي ؛ جسدي ، الذي كنت انظر بعيني ، واسمع بأذنيه ، ولكنه ليس انا . كان يتصعب منه العرق ويرتحف وحده ، ولم اعد اتعرف عليه . كنت ملزماً بأن ألمسه او ان انظر اليه لأرى كيف اصبح ، كما لو انه اضحى جسم انسان آخر . لفترات ، كنت لا ازال اشعر به ، احس بالمنزقات ، وبأنواع التدحرج كما لو كنا في طائرة نائمة او انني احس خفقان قلبي . ولكن هذا لم يكن ليطمئني ؛

فكل ما كان يأتي من جسدي كانت له هيئة قدرة معوجة . معظم الوقت ،
كان يسكت ، ويظل ابكم ، ولم اعد احس بسوى نوع من الجاذبية ، والوجود
المدنس قبالي . كان يتهاى لي اني مرتبط بموت بطيء . كنت اتحسس سروالي
لحظة واحس بأنه مبتل ؛ ولم اكن اعرف اذا كان مبتلا من العرق أو البول ،
غير اني ذهبت لأبول على كومة الفحم ، احتياطاً .

اخرج البلجيكي ساعته ونظر اليها . وقال :

« انها الثالثة والنصف » .

يا له من قدر . لقد فعل هذا عمداً .

قفز توم عن الأرض : لم نكن قد عرفنا بعد ان الوقت يمر والليل يحيط
بنا ككتلة مقسمة ليس لها شكل معين ، ولم أعد اتذكر حتى انه ابتداءً .

اخذ جوان الصغير بالصراخ . كان يتصور الماء ، ويتوسل :

« لا أريد ان اموت ، لا اريد ان أموت » .

وركض عبر القبو رافعاً ذراعيه في الهواء ، ثم تهالك على فراش من القش
وانتحب . كان توم ينظر اليه بعينين كئيبتين ولم تعد به رغبة لمؤاساته . ولم
يعد هذا ضرورياً ، اذ كان الصغير يحدث ضجيجاً أكثر منا ، ولكن اصابته
كانت أخف ؛ كان بمثابة مريض يدافع عن بؤسه بالحمى ، فالحمى اذا زالت ،
تصبح الأمور اشد خطورة .

كان يبكي ، وكنت أعرف تماماً انه يشفق على نفسه ، ولم يكن يفكر
بالموت . للحظة واحدة ، للحظة واحدة اعتراني شعور بالبكاء انا ايضاً ،
بالبكاء رفقاً بنفسي . ولكن العكس هو الذي جرى ؛ ألقيت نظرة على
الصغير ، فرأيت كتفيه الهزيلتين الباكيتين واحسست بعدم انسانيته ؛ لم يكن
بوسعي ان اشفق على نفسي وعلى الآخرين . وقلت في نفسي : « أود ان
اموت حقاً . »

كان توم قد نهض ، ووقف تحت الفوهة المستديرة بالضبط وأخذ يتربص ،
طلوع النهار . وانا كنت مصدوماً ، وددت ان اموت حقاً ، ولم افكر بغير
ذلك . ولكن ، مذ انبأنا الطيب عن الوقت ، بدأت أحس به ينقضي ،
بل يسيل قطرة قطرة .

كان الوقت لا يزال ظلاماً عندما سمعت صوت توم :

- هل تسمعهم .

- نعم .

كان الرجال يمشون في الباحة .

ما الذي جاء بهم ؟ فليس بإمكانهم ان يطلقوا النار في الظلام .
وما هي الا دقائق حتى لم نعد نسمع شيئاً . فقلت لتوم :
« ما هو النهار » .

استيقظ بدرو متثائباً وجاء ليطفىء السراج . وقال لرفيقه :
« ياله من صقيع » .

كان القبو قد أصبح داكناً تماماً . وسمعنا عيارات نارية من بعيد . فقلت
لتوم : « ها هي الأمور تبدأ ، يودون ان يقوموا بالواجب في الباحة
الخلفية » .

طلب توم من الطيب ان يعطيه سيجارة . انا لم اكن ارغب بالتدخين .
لا أريد لا سيجارة ولا كحولاً . ابتداء من هذه اللحظة ، لم يكفوا عن
اطلاق النار .

فقال توم :

« هل ترى ؟ »

كان يود ان يضيف شيئاً ولكنه سكت ، ونظر الى الباب . فتح الباب ،

وودخل ملازم مع اربعة جنود . فوقعت السيكاره من يد توم .

« ستينبوك ؟ » .

لم يجب توم . فبدرو هو الذي دل عليه .

— جوان مربال ؟

— هذا الذي يفترش القش . فقال الملازم :

« انهض » .

لم يتحرك جوان . فأخذه جنديان من تحت ابطيه وأوقفاه . ولكن ما ان تركاه حتى سقط أرضاً .

وتردد الجنود . وقال الملازم :

« ليس هو الوحيد الذي يرى نفسه في حالة سيئة ، عليكما ان تحملاه انتم الاثنين . وستتدبر الأمر هناك » .

واستدار الى توم :

« هيا ، تعال » .

وخرج توم بين جنديين . وكان يتبعه جنديان آخران ، يحملان الصغير من تحت ابطيه وعرقوبيه . لم يكن مفضياً عليه ، فعيناه جاحظتان ، والدموع تسيل على خديه . ولما هممت بالخروج اوقفني الملازم :

— انت إبياتا الـ

— نعم .

— ستنتظر هنا ؛ فسيأتون لاختك في الحال .

وخرجوا . خرج البلجيكي والسجانات ايضاً ، وبقيت وحدي . لم اكن أفهم ما يجري لي ، ولكنني وددت ان ينتهي ذلك بسرعة ، وسمعت الطلقات على فترات شبه منتظمة . وكنت ارتعش لسماح كل منها . كنت اود ان

اصرخ ، ان انتزع شعري . لكنني ضغطت على اسناني وغرست يدي في جيبني لاني كنت اود البقاء نظيفاً .

وما هي الا ساعة ، حتى أتوا ليأخذوني ، واقتادوني الى الطابق الأول ، الى حجرة صغيرة تفوح منها رائحة السيجار ، ذات حرارة خانقة . كان فيها ضابطان يدخانان وهما جالسان على كنبات ، كما يضع كل منهما على ركبتيه اوراقاً .

– اسمك ابياتا؟

– نعم .

– اين رامون غري ؟

– لا أعرف .

الذي كان يستجوبني قصير ضخم . كانت عيناه القاسيتان تبدوان من خلف نظارته . وقال لي :

– اقترب

واقتربت . فنهض وامسكني بكتفي وهو ينظر الي بوجه من يريد قذفني الى باطن الأرض . في نفس الوقت الذي كان فيه يضغط على عضلات ذراعي بكل قواه . لم يكن ذلك بغية ايدائي ، بل انها اللعبة اللبقة .

كان يبغني السيطرة علي . وارتأى ايضاً ان ينفث لهائه العفن في وجهي . بقينا لحظة واحدة على هذه الحال ، كان هذا اقرب الى اضحاكي . اذ كان يلزم اكثر من ذلك لاختافة رجل على وشك الموت : لم تنجح لعبته . فدفعتني بعنف ثم عاد الى الجلوس وقال :

« انها حياتك مقابل حياته . نحن سننقذ حياتك اذا قلت لنا اين هو . »

ان هذين الرجلين المزدانين بسياطهما واحذيتيها الطويلة الساق ، هما كذلك

من الرجال الذين سيموتون ، بعد موتي بقليل ، ولكن ليس ابعد من هذا .
كانا منهمكين بالبحث عن اوراقها ، يركضان وراء رجال آخرين بغية الالتقاء
بهم في السجن او حذفهم من الوجود . كانت لهما آراء حول مستقبل اسبانية
وحول مواضيع اخرى . كانت نشاطاتها الضئيلة تبدو لي ناكية غليظة : لم
يكن بوسعي ان اضع نفسي في مكانها إذ تهيأ لي انها مجنونان .

كان الصغير الغليظ ينظر الي بامعان ، وهو يضرب بالسوط على جزمته .
كل حركاته تدل بدقة على ان له مشية حيوان هائج مفترس .

— اذاً ؟ فهمت ؟ فأجبت :

— أنا لا اعرف اين غري . كنت اظن انه في مدريد .

ورفع الضابط الثاني يده بوقاحة . هذه الوقاحة كانت محسوبة بدقة
ايضاً . كنت أشهد مناوراتهم الصغيرة ، مندهشاً من وجود رجال يتسلون
بهذي الأمور . فقال بتؤدة :

— لديك ربع ساعة لتفكر . قده الى غرفة الغسيل ، وستعيده بعد
ربع ساعة . فاذا أصر على الرفض سننفذ به الحكم في هذا المكان .

كانوا يعرفون ما يريدونه لقد امضيت ليلى كله بالانتظار ؛ وبعد هذا ،
حملوني على الانتظار ساعة في القبو ، بينما كانوا يعدمون توم وجوان والآن ها
هم يحتجزونني في غرفة الغسيل . لا بد انهم أعدوا ضربتهم منذ البارحة .
قالوا في نفسهم ان الاعصاب تتلف مع الوقت وتأملوا في ان يروني هكذا .

كانوا يخطئون كل الخطأ . ففي غرفة الغسيل جلست على طاولة ، لاني
كنت لا أزال احس بضعفي وبدأت افكر ، ولكن ليس باقتراحهم . بالطبع
كنت أعلم اين كان غري ! كان مختبئاً في بيت ابناء عمه ، على بعد أربعة
كيلومترات عن المدينة . وكنت اعرف كذلك اني لن اكشف عن مكان
وجوده الا اذا عذبوني (ولم يبدا عليهم انهم فكروا بذلك) كل ذلك كان .

معداً تمام الاعداد النهائي ، فلن يهمني ابداً . بيد اني وددت لو ادرك اسباب سلوكي . كنت أوثر ان اموت على ان اسلم غري . لماذا ؟ لم اعد احب رامون غري . وصادقتي معه تلاشت قبل الفجر ، مع حيي لكونشا ، مع رغبتني في الحياة . كنت لا أزال اقدره بلا شك ، كان رجلاً قاسياً . ولكن ليس لهذا السبب قبلت بالموت مكانه ، فلم يعد لحياته قيمة تفوق قيمة حياتي ، لم يعد لأية حياة قيمة . سيلصقون الانسان بالجدار وسيطلقون الرصاص عليه حتى الموت ، ما هم لو كنت انا او غري او اي شخص آخر ، كنت اعلم انه اكثر فائدة مني لقضية اسبانية غير اني كنت اسخر من اسبانية والفوضى ، لم يعد لأي شيء اهمية . ومع ذلك كنت هناك ، وكان بإمكانني ان انقذ جلدي بتسليم غري ورفضت الاقدام على ذلك . رأيت هذا مضحكاً : إذ كان عناداً وفكرت :

« هل على المرء ان يكون عنيداً » .
واعتراني نوع من السعادة غريب .

وجاؤوا يستدعونني أمام الضابطين . فخرج جرد من تحت ارجلنا فسلاني قليلاً . واتجهت نحو احد رجال الكتائب وقلت له :

« هل رأيت الجرذ ؟ »

ولم يجب . كان مكفهر الوجه ، مقتنعاً بجديته . اما انا فكنت ارغب بالضحك ولكنني كنت اضغط على نفسي لاني خفت إن بدأت ان افقد القدرة على التوقف . كان لرجل الكتيبة شاربان ، فأضفت قائلاً له :

« عليك ان تحلق شاربك ايها الغبي » .

كنت ارى ان اطلاق الشعر ليغزو الوجه اثناء الحياة ، من الأمور الغريبة . فرفسني برجله بغير اقتناع ، فسكت .

فقال الضابط الضخم :

— حسناً ، هل فكرت ؟

نظرت اليها بفضول كما لو انني انظر الى حشرات من نوع نادر جداً .
وقلت لهما :

« انا اعرف اين هو . فهو مختبئ في المقبرة ، في قبو صغير او في كوخ
الحفارين » .

كان ذلك لأهزأ منها كنت اود ان اراها يقفان ، ويشدان حزاميهما
ويعطيان الأوامر باهتمام .
فقفزنا على ارجلها .

« هيا . اطلب خمسة عشر رجلاً من الملازم لوبيز . وقال لي الضابط القصير
الضخم : وانت لو قلت الحقيقة ، فليس عندي الا قول واحد . ولكن ستدفع
الثلثن غالياً لو كنت تكذب علينا » .

ومضوا محدثين ضجة قوية ، بينما انتظرت بسرور تحت رقابة رجال
الكتائب . كنت اضحك من وقت لآخر من الوجه الذي سيقابلونني به . شعرت
بنفسي مغفلاً وخبيثاً . تخيلتهم رافعين حجارة القبر ، فاتحين أبواب الأقبية
واحداً واحداً . وتمثلت الموقف كما لو كان شخصاً آخر : هذا السجين الذي
يصر على عمل البطولة ، هؤلاء ، هؤلاء الكتائبون الوقورون بشواربهم ،
واولئك الرجال ببزاتهم الرسمية يتراكمون بين القبور . كان ذلك في منتهى
الطرافة .

وما هي الا نصف ساعة حتى عاد القصير الضخم وحده . وخلت انه جاء
يعطي امر القضاء علي . اما الباقيون فظلوا في المقابر .

ونظر الى الضابط . وقد اختفت عن وجهه مسحة الارتباك وقال :
« اقتادوه الى الباحة مع الآخرين . ففي نهاية العمليات العسكرية ،
ستبت المحكمة العادية بمصيره » .

وخلت انني لم افهم ، فسألته :

— اذا سوف لن... لن يرموني بالرصاص ؟...

— ليس الآن على كل حال . وبعده ، لا يعود الأمر متعلقاً بي .

لم أفهم ابداً . وقلت له :

« ولكن لماذا ؟ »

فهرز كتفيه بدون ان يجيب ، واقتادني الجنود . وفي الباحة الكبيرة كان هناك مئات السجناء من نساء وأولاد وبعض الشيوخ . وبدأت أدور حول المرجة الرئيسية ، لقد اصبحت معتوها . عند الظهر ، قدموا لنا الطعام في المطعم . واستجوبني شخصان او ثلاثة . كان علي أن اعرفهم ، غير اني لم اجبهم ؛ فلم أكن اعرف اين انا .

عند المساء ، القوا في الباحة نحو اثني عشر سجيناً جديداً . فتعرفت على غارسيا ، الحباز . فقال لي :

— يالك من محظوظ مقدس ! لم أكن أفكر بأني سأراك على قيد الحياة . فقلت :

— لقد حكموا علي بالإعدام ، ثم غيروا فكرتهم . ولا أدري لماذا . فقال غارسيا :

— لقد أوقفوني في الساعة الثانية .

— لماذا ؟

غارسيا لم يكن يعمل بالسياسة . فقال :

— لا أدري . انهم يوقفون جميع من لا يفكرون على شاكلتهم . وخفض صوته :

« لقد قتلوا غري » .

وبدأت أرتجف .

- متى ؟

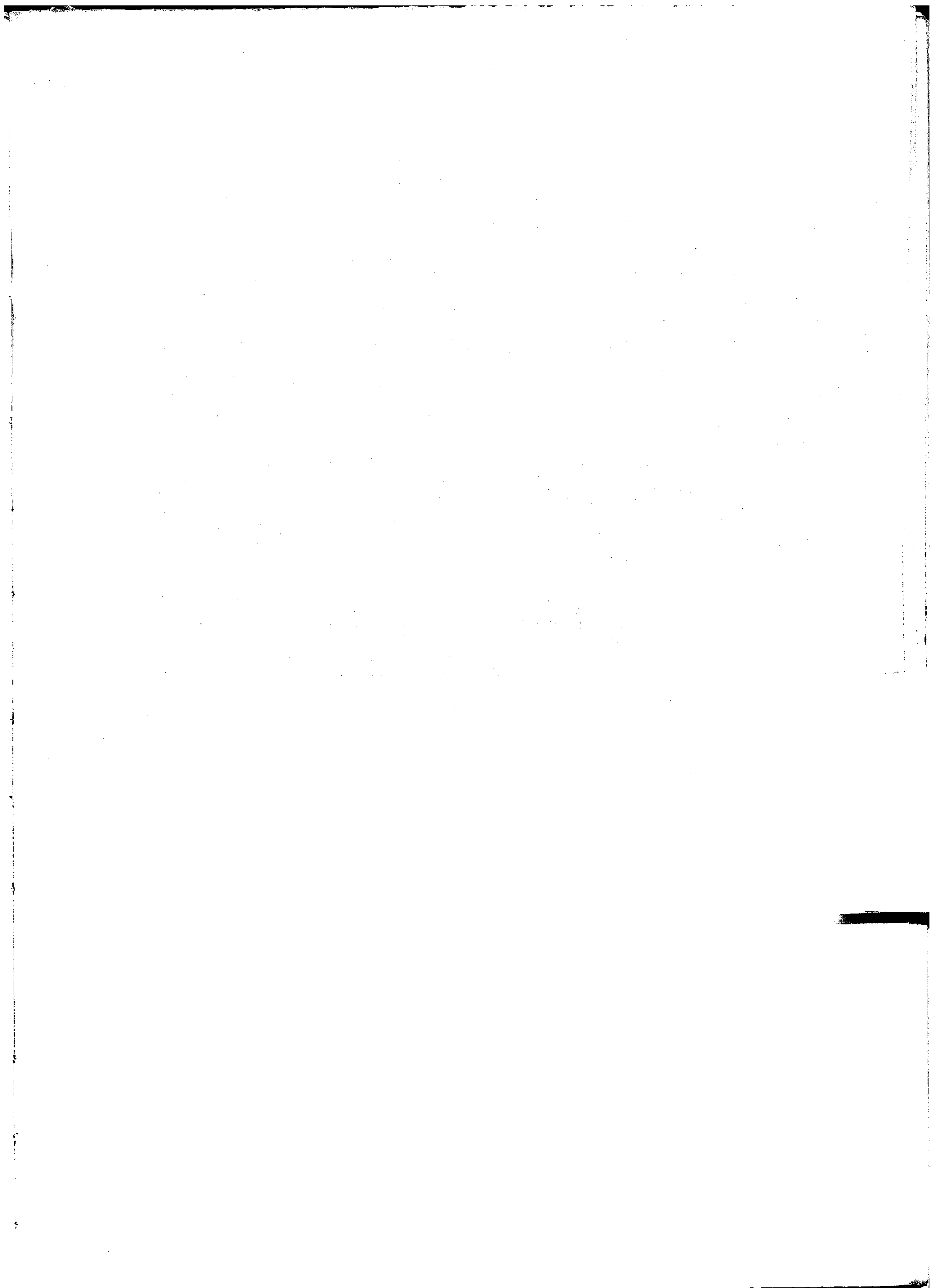
- هذا الصباح . لو تدري ما فعل المغفل . لقد غادر بيت ابناء عمّاه
يوم الثلاثاء ، لأنه صدر عنهم كلام . ولم يكن يفتقر لأناس يأوونه ولكنّه
لم يعد يريد إحساناً من أحد . وقال : « كنت سأختبئ عند إبيانا ولكن بما
أنهم ألقوا القبض عليه فسأذهب واختبئ في المقبرة » .

- في المقبرة ؟

- نعم . كانت بلاهة منه . فبالطبع مرّوا بها هذا الصباح ، وكان
هذا مقررأ . فوجدوه في كوخ الحفارين . فأطلق النار عليهم ، لكنهم
أردوه .

- في المقبرة !

كل شيء بدأ بالدوران ، ووجدتني جالسا على الأرض ؛ كنت أخجل
بقوة ، الى حدّ أن الدموع بانّت في عيني .



الفرفه

كانت السيدة داربدا تحمل قطعة راحة الحلقوم بين أصابعها . وقرّبتها من شفتيها بعناية مخافة ان يطير عنها مسحوق السكر قائلة في نفسها : « إنها معطرة » . وعضت تلك القطعة التي بلون الزجاج ، فتصاعدت منها رائحة عفنة ملأت فمها . « غريب كم ان المرض يصفي الأحاسيس » . واخذت تفكر بالجوامع ، وبالشرقيين من اصحاب المجاملة (فقد ذهبت الى الجزائر في رحلة عرسها) ورسمت شفتاها ابتسامة ، فراحة الحلقوم ايضاً متملقة .

وكان عليها ان تمر براحة يدها على صفحات كتابها ولعدة مرات لأن قشرة من المسحوق الأبيض كانت تغطي يدها رغم العناية . فيداها قد دحرجا حبيبات السكر وألصقاها بالورق الأملس : « إن هذا ليذكرني بأركاشون عندما كنت أقرأ على الشاطيء... » فقد أمضت صيف ١٩٠٧ على شاطيء البحر . وكانت تعتمر وقتئذ قبعة من القش لها شريطة خضراء ، كما تجلس على رصيف الحجارة وبيدها كتاب « لجيب » او « لكوليت إيفير » . والريح تطر على ساقها زوابع من الرمل ، وهي تقلب من وقت لآخر كتابها ممسكة بأطرافه . إنه الاحساس عينه ، غير ان قطعات الرمل الصغيرة كانت جافة في حين أن قطعات السكر تلتزق بيدها . فقد عاشت قطعة من السماء الغبراء المتلألئة فوق بحر اسود . « لم تكن قد ولدت بعد » . وأحست انها وهي مثقلة بالذكريات ثمينة كصندوق من الصندل . وعاودها اسم القصة

التي كانت تقرأها : واسمها السيدة الصغيرة ، ولم يكن الاسم مزعجاً . لكن السيدة داربدا باتت تفضل المذكرات والمؤلفات التاريخية منذ أرغمها بلاء مجهول على البقاء في غرفتها . كانت ترى ان الألم ، والقراءات العديدة ، والانتباه الدقيق لذكريات أيامها العذبة ، من شأنها ان تجعلها ناضجة كثمرة عجل نضجها .

وفكرت بأن زوجها سيطرق بابها بعد قليل . ففي أيام الأسبوع الأخرى كان يأتي في المساء فقط ، يقبلها في جبينها بصمت ويتابع قراءة كتاب «الوقت» قبالتها . لكن الخميس هو « يوم » السيد داربدا. إذ يملا الغرفة الهادئة بوجوده . فهو لا يجلس ، بل يذرع ارض الغرفة ويدور على نفسه . كانت حدته تجرح السيدة داربدا كشطية الزجاج . وهذا الخميس ، اسوأ من العادة ؛ حين تفكر بأن عليها في الحال ان تردد لزوجها اعترافات إيضا وتري ذلك الجسم الضخم الخفيف يقفز من الملح ، ذلك يجعل العرق يتصبب منها . ووضعت حلقوماً في الصحن وألقته بكآبة ؛ لم تكن تريد أن يراها زوجها تأكل الحلقوم .

وارتعشت لما سمعت الباب يطرق . وقالت بصوت ضعيف : « ادخل » .
دخل السيد داربدا على رؤوس اصابعه . فقال كما في كل خميس :
« اريد ان ارى إيضا » .

فابتسمت له السيدة داربدا :

« ستقبلها من أجلي » .

لم يجب السيد داربدا وقطب حاجبيه باهتمام ! ففي كل خميس وفي نفس الساعة ، يعتريه نوع من الاثارة التي تمتزج بجاذبية الهضم .

« سأمر لأرى فرانشو وهو خارج من بيتها ، أريد ان يكلمها بجدية وأن يحاول إقناعها » .

كانت تقوم بزيارات متعددة للدكتور فرانشو . ولكن عبثاً . ورفعت السيدة داربدا حاجبيها . ففي الماضي زمن نشاطها كانت ترفع كتفيها دائماً . ولكن منذ أثقل المرض جسدها ، استبدلت الحركات التي أرهقتها بحركات من وجهها : فتقول نعم بعينيها لا بطرف فمها ، كما ترفع حاجبيها بدلاً من الكتفين .

« من الواجب ان ننتزعها منه بالقوة » .

— سبق وقلت لك إن هذا مستحيل ، وذلك ان القانون قد اسيئت صياغته . قال لي فرانشو قبل ايام إن لديهم متاعب لا تحصى مع العائلات . اشخاص لا يعتمدون شيئاً معيناً ، يريدون إبقاء المرض عندهم . والأطباء مكبلو الأيدي فبإمكانهم ان يبدووا برأيهم ، ليس إلا . وتابع كلامه بقوله : عليه أن يثير فضيحة عامة او أن تطلب هي بنفسها وضعها في المستشفى .

فقالت السيدة داربدا :

— وهذا لن يكون في يوم غد .

— كلا .

واتجه نحو المرأة ، وغرس اصابعه في لحيته وبدأ يسرحها . كانت السيدة داربدا تنظر بغير حنو الى رقبة زوجها الحمراء القوية .

وقال السيد داربدا : إذا استمرت فستصبح اكثر اهتزازاً منه ، وتلك حالة مخيفة . فهي لا تتركه خطوة ، ولا تخرج أبداً إلا لتقابلك ، ولا تستقبل أحداً . فجو غرفتهم لا يمكن ، بكل بساطة ، تنشقه . وهي لا تفتح الباب إطلاقاً لأن بيار لا يقبل بفتحه . كما لو انه يريد استشارة المريض . ويجرقون ، على ما اظن عطوراً ، بل قذارة في مجرة ، وكأنهم في كنيسة . انني اقسم بأني اتساءل احياناً لماذا لها هاتان العينان الغريبتان . فقالت السيدة داربدا :

— لم ألاحظ ذلك . ارى هيئتها عادية . وهي كئيبة بالطبع .

- إن عليها ملامح من غادر القبر . فهل تنام ؟ وهل تأكل ؟ يجب ألا تسأل عن هذه الأمور . ولكنني اظن انه لا يغمض لها جفن برفقة رجل ضخم كبيار . وهز كتفيه .

« وما أراه اسطورياً أننا نحن وأهلها ، ليس لنا الحق بحمايتها من نفسها . ناهيك عن أن بيار يمكن الاعتناء به جيداً عند فرانشو . فهناك حديقة كبيرة . وأضاف مبتسماً : ان بإمكانه ان يتفق مع اناس من نوعيته . إن هؤلاء الأشخاص كالأولاد يجب تركهم معاً . فهم يؤلفون نوعاً من الماسونية . فهناك كان يجب وضعه منذ اليوم الأول وأقول : من أجل نفسه . من أجل مصلحته بلا ريب .

وأضاف بعد لحظة :

« سأقول لك اني لا اريد ان أعرف أنها وحيدة مع بيار ، خاصة في الليل . فلو افترضنا ان شيئاً ما قد حصل . فان بيار مرء بشكل خطير» . فقالت السيدة داربدا :

- لا أدري إذا كان من الواجب القلق الى هذا الحد ، لا سيما وانها حالة رافقته دائماً . كان يوصي بأنه يهزأ من العالم . وقابعت متنهدة : يا له من صبي مسكين ، حاز على شرفه ثم وصل الى هذا الحد . كان يظن أنه اذ كانا جميعاً وله أسلوب في قوله لك :

« الحق الى جانبك » . لاقفال النقاش ... انها رحمة له أن لا يستطيع الاطلاع على حالته » .

كانت تتذكر غير مسرورة ذلك الوجه الطويل الساخر ، الدائم الانحناء . الى جهة واحدة . ففي الأيام الأولى لزواج إيفاء ، لم تتمن السيدة داربدا أكثر من اقامة علاقات ودية مع صهرها . لكنه ثبت همتها ؛ فلم يكن يتحدث ، كما يوافق باستعجال وبغير اكتراث .

ويتابع السيد داربدا فكرته قائلاً :

« دعاني فرانشو لزيارة عيادته ، انه رائع . فالمرضى لهم غرف خاصة ، فيها مقاعد جلدية ، وأسرة مريحة وهل تعرفين ايضاً ان فيها معدات التنس ، كما وسيصار لبناء مسبح » .

كان قد انتصب أمام النافذة ، ينظر من خلال الزجاج مائجاً ذات اليمين وذات اليسار من على رجليه المقوستين . فجأة استدار على طرفي حذائه بمرونة واطىء الكتفين واضعاً يديه في جيوبه . وبدأت السيدة داربدا تشعر بأن العرق سيتصبب منها ، ففي كل مرة يحصل الشيء ذاته . والآن سيدرع أرض الغرفة طولاً وعرضاً كذب في قفصه ، وسيقرقع بحذائه عند كل خطوة .
فقلت له :

« يا صديقي ، أرجوك ، اجلس ، انت تتعبني » .
واضافت بتردد : « عندي شيء خطير اقله لك » .

جلس السيد داربدا على الكرسي الكبيرة ووضع يديه فوق ركبتيه . وسرت في ظهر السيدة داربدا قشعريرة خفيفة ؛ فقد أزفت الساعة ، كان عليها ان تتكلم . وقالت بصوت ملؤه الانزعاج :

- تدري أني رأيت إيفا يوم الثلاثاء .
- نعم .

- لقد تحدثنا عن أشياء كثيرة ، كانت لطيفة جداً ، فمنذ وقت طويل لم أجدها بتلك الثقة . عند ذلك طرحت عليها بعض الاسئلة ، وجعلتها تتكلم عن بيار .

وأضافت وقد ازداد انزعاجها : حسناً ، انها تتمسك « كثيراً » به .
فقال السيد داربدا :

- اقسم بأني أعرف هذا حق المعرفة .

كان يزعم السيدة داربدا قليلاً . إذ ان عليها دائماً ان تشرح له الأشياء بدقة واضحة النقاط على الحروف ، كانت السيدة داربدا تحلم بأن تمضي حياتها مع أشخاص من ذوي اللباقة والحس المرهف ، ممن يفهمونها بسرعة . وأردفت : « غير اني أريد ان اقول ، انها تتمسك به « بخلاف » ما نتصوره . »

وتطلع السيد داربدا بعينين غاضبتين مضطربتين ، كعادته عندما لا يفهم معنى تلميح أو خبر ما :

— ما يعني هذا ؟

فقال السيدة داربدا :

— شارل ، لا تتعبني ، عليك ان تفهم ان الأم تجد صعوبة في ذكر بعض الأمور .

فقال السيد داربدا بغضب :

— لم أفهم أية كلمة من الكلمات التي أتيت بها ، ولا تريد ان تقولي شيئاً رغم ذلك ؟

فقال : حسناً إذا !

— لديهم أيضاً .. ايضاً حتى الآن !

فأجابت بثلاث كلمات جافة :

— نعم ! نعم ! نعم !

فأزاح السيد داربدا ذراعيه ، وأخفض رأسه وسكت .

فقال امرأته بقلق :

— شارل ، كان عليّ ان لا اقول لك ذلك . لكنني لم اعد استطيع الاحتفاظ به لنفسني .

فقال بصوت وئيد :

— يا بنتنا ! مع هذا المجنون ! انه لم يعد يعرفها فهو يسميها أغاتا . فطبيعي .

ان تكون قد فقدت معنى ما يجب ان تكون .

فرفع رأسه ونظر الى زوجته بقساوة :

- أنت متأكدة من انك فهمت جيداً ؟ فأضافت بحدة :

- لم يكن هناك من شك ممكن . فأنا مثلك ، لم يكن يسعني ان اصدق ،
وانا لا افهمها على كل حال . إلا لأنها متأثرة بهذا البائس المسكين... وتنهدت :
واخيراً ، اعتقد انه يحتفظ بها بهذا .

فأجاب السيد داربدا :

- يا للأسف ! هل تذكرين ما قلت لك عندما جاء ليطلب يدها ؟ قلت

لك : « انه يروق لإيفا اكثر من اللزوم » . ولم تريدي ان تصدقيني .

وضرب فجأة على الطاولة واحمر بقوة :

- هذا فساد في الأخلاق ! يأخذها بين ذراعيه ويقبلها وهو يناديها
بأغاثا ويفرغ جميع سخافاتة حول التماثيل التي تطير وغير ذلك ! وهي تسمح
بذلك ! ولكن ما يجري في الحقيقة بينها ؟ ان تلومه من كل قلبها . ان
تضعه في مأوى للراحة ، حيث يصبح بإمكانها ان تراه كل يوم في ساعة
مبكرة ، غير اني لم افكر بشيء كهذا ... كنت اعتبرها بمثابة أرملة .

وقالت بصوت وقور :

- اصغي يا جانيت ، أريد ان اكلّمك بصراحة ، فاذا بقي فيها إحساس

عليها ان تتخذ لها عشيقاً !

فصاحت السيد داربدا :

- شارل ، احرص !

فأخذ السيد داربدا ، بهيئة متعبة ، القبعة والعصا اللتين وضعهما على

الطاولة المستديرة ، حين دخوله وختم حديثه قائلاً :

- بعد الذي قلته لي ، لم يبق لي اي أمل . وفي النهاية ، سأحدثها رغم كل

شيء لأن هذا من واجبي .

كانت السيدة داربدا تستعجل ذهابه . فقالت له بغية تشجيعه : « اتدري ان إيذا تشكو من عنادها اكثر من اي ... شيء آخر . تعرف أنه غير قابل للشفاء ولكنها تصر على عنادها ، وهي لا تريد ان ترضى بالتكذيب » .

كان السيد داربدا يداعب لحيته حالماً :

« عناد ؟ نعم يمكن ان يكون الأمر كذلك . حسناً ، فاذا كان الحق معك لا بد وان تتعب في النهاية . فهو ليس مريحاً كل يوم ثم ان الحديث ينقصه ، فعندما أقول له مرحباً ، يمد لي يداً رخوة بدون ان يتكلم . وعندما ينفردان معاً ، اظن انه يعود الى افكاره الثابتة : قالت لي انه يصرخ كالذبيح لأن عنده وساوس . تماثيل . تخيفه التماثيل لأنها تثر . يقول انها تدور حوله بأعين بيضاء » .

وأردف وهو يضع كفيه :

« ألا أقول لك ، انها ستمل في النهاية . ولكن إذا جنت قبل ذلك ؟ أود ان تخرج قليلاً ، ان ترى العالم : فاذا قابلت شاباً ظريفاً - شخصاً مثل شرويدر مثلاً وهو مهندس عند سامبلون ، شخصاً له مستقبله ، تراه تارة عند هؤلاء ، وطوراً عند اولئك وتعتاد برفق على التفكير ببناء حياتها من جديد » .

لم تجب السيدة داربدا بشيء مخافة ان يتطور الحديث . فأنحى زوجها نحوها قائلاً :

- هيا ، عليّ ان اذهب .

فقالت السيدة داربدا وهي تقرّب جبينها :

- وداعاً ايها الأب . قبلها جيداً وقل لها نيابة عني إنها عزيزة ناعسة . وما ان ذهب زوجها حتى وقعت السيدة داربدا على كنبتها وأغمضت

عينها من فرط الإعياء . وفكرت بنوع من الملامة : « يا لها من حيوية » .
وما كادت تستعيد بعض قواها حتى مدت يدها الشاحبة ووضعت قطعة من
الحلقوم في الصحن ، بارتجاف وبدون ان تفتح عينها .

كانت إيفا تسكن مع زوجها في الطابق الخامس من إحدى البنايات ،
في شارع باك . تسلق السيد داربدا برشاقة درجات السلم المئتين واثنى عشرة .
ولما ضغط على زر الجرس لم يكن على آخر رمق . وتذكر بارتياح كلمة الأنسة
دورموا :

« بالنسبة لسنك يا شارل ، انت ، بكل بساطة ، رائع » . لم يكن يعرف
أبدأ مثيلاً لقوته ونشاطه يوم الخميس ، لا سيما بعد تسلق الدرج .

وجاءت إيفا لتفتح له : « صحيح ، ليس عندها خادمة . هؤلاء البنات
لا يستطعن البقاء في خدمتها لو وضعت نفسي في مكانهن » . قبلها قائلاً :
« مرحباً بك يا عزيزتي المسكينة » .

فقالت له مرحباً ببعض البرود .

وقال السيد داربدا وهو يلامس خدها : « وجهك مائل الى الشحوب ،
فانت لا تتمرنين ما فيه الكفاية » .

ومرت فترة صمت .

وسألت إيفا :

– الماما صحتها جيدة ؟

– لا رديئة ولا جيدة . هل رأيتها الثلاثة ؟

حسناً انها ككل يوم . جاءت خالتك لويزا لتراها امس ، فسرت لذلك .
تحب كثيراً أن تتلقى الزيارات ، شريطة ألا تطول كثيراً . خالتك لويزا
أنت الى باريس مع الصغار من اجل قضية الحجز . حدثتك عنها على ما أظن .
انها قضية مضحكة . ومرت الى مكنتي لتأخذ استشارة . فقلت لها ان

ليس هناك من طريقين : عليها ان تبسح . فقد وجدت بريتوفيل كمستأجر على كل حال . هل تتذكرين بريتوفيل؟ لقد انسحب من الأعمال في الوقت الحاضر . وتوقف فجأة ، فايضا لا تكاد تصغي اليه . ففكر باكتئاب بانها لم تعد تكترث لشيء . « كقصة الكتب . في السابق كان علينا انتزاعها بالقوة . والآن لم تعد تقرأ ابداً » .

– كيف حال بيار ؟ فقالت ايضا :

– بأحسن حال . هل تريد ان تراه ؟

فقال السيد داربدا بسرور :

– بل بكل تأكيد ، اريد ان ازوره زيارة قصيرة .

كان كثير الملاطفة لهذا الرجل التعيس ، ولكنه لا يستطيع رؤيته بغير شمشراز . « انا اخاف الأشخاص غير الأصحاء » . لم تكن تلك غلطة بيار بلا شك : كانت سلالته مليئة . وتنهد السيد داربدا : « مهمنا اخذنا من احتياطات فان كل الأمور المماثلة تأتي متأخرة جداً » . كلا ، لم يكن بيار مسؤولاً . ولكن على كل حال ، فقد حمل هذه الآفة فيه ، وهي تكون جوهر طبيعته . اذ لم تكن كمرض السرطان او السل ، بالامكان التفاوضي عنهما عندما نكون بصدد الحكم على الانسان كما هو بحد ذاته . فلطالما راق ايضاً تلك الجاذبية العصبية وذاك الذكاء عندما كان يغازلها ، انها ازهار الجنون . « كان قد أصبح مجنوناً حين تزوجها ، غير ان جنونه لم يظهر . وفكر السيد داربدا ؛ فتساءل اين تبتدىء المسؤولية او بالأحرى اين تنتهي . انه يحلل نفسه كثيراً على كل حال فهل هذا سبب بلائه ام نتيجته . ولحق بابنته عبر ممر طويلاً . معتم وقال :

– هذه الشقة كبيرة بالنسبة اليكما ، عليكما ان تنتقلا منها . فأجابت ايضا :

– تردد لي هذا في كل مرة يا أبت ، لكنني اجبتك بأن بيار يرفض مغادرة

غرفته .

كانت إيفا مدهشة : وهذا ما يثير التساؤل فيما لو كانت تعلم بحالة زوجها
كان مجنوناً ، وهي تحترم قراراته وآراءه كما لو كان متمتعاً بحسه السليم .

فأردف السيد داربدا ببعض الانزعاج :

— ما التحدث عنه هو من اجلك . إذ يبدو لي لو كنت امرأة اني سأخاف
من هذه الحجرات القديمة شبه المضاعة ، اتمنى لك ان تقيمي في شقة مضيئة ،
كتلك التي بنوا منها هذه السنين الأخيرة ناحية أوتوبي ، من ثلاث غرف يدخلها
الهواء جيداً . وقد خفضوا ايجار شقاتهم لانهم لم يجدوا المستأجرين ،
فالفُرصة سانحة .

وأدارت إيفا مزلاج الباب برفق ، ودخلا الغرفة . كاد السيد داربدا
يختنق من رائحة البخور الثقيلة . والستارات كانت مسدلة . فميز في الظل
رقبة هزيلة فوق ظهر الكنبه ؛ كان بيار يدير ظهره ، انه يأكل .

فقال السيد داربدا رافماً صوته :

— مرحباً يا بيار . كيف حالنا اليوم ؟

واقترب السيد داربدا ؛ كان المريض جالساً الى طاولة صغيرة ؛ بهيئة
متملقة . وقال السيد داربدا رافعاً صوته اكثر :

— أكلنا بيضاً نبرشت . إنه لذيذ ، هذا البيض !

فأجاب بيار بصوت رقيق :

— أنا لست أصم .

والسيد داربدا الذي تأثر ، أدار وجهه ناحية إيفا ليأخذها كشاهدة .
لكن إيفا بادلته نظرة قاسية وسكتت . ففهم السيد داربدا انه جرحها .
« حسناً . فليكن ما تشاء » . كان يستحيل ايجاد اللهجة الملائمة مع هذا
الرجل : إذ ان عقله دون عقل طفل في الرابعة ، وايفا تريد ان يعامله الناس
كرجل . ولم يكن السيد داربدا ليستطيع ان يحول دون الانتظار بفارغ

الصبر زوال تلك النواحي المضحكة . فالمرضى يزعمونهم دائماً - وخاصة
المجانين لأنهم على خطأ . فييار المسكين مثلاً ، دائم الوقوع في الخطأ ، ليس
بوسعه ان يتفوه بكلمة بدون ان يضيع صوابه ، ومن العبث ان يطلب اليه
أي تواضع ، او حتى الاعتراف العرضي بالأخطاء .

وانتزعت إيفا قشرة البيض . ووضعت أمام بيار صحناً مع شوكة
وسكين .

فقال السيد داربدا مسروراً :
- ماذا سياً كل في الوقت الحاضر !
- قطعة بفتاك .

كان بيار قد تناول الشوكة ووضعها على طرف أصابعه الطويلة الشاحبة .
فحصها بدقة ثم ضحك ضحكة خفيفة . وتمم وهو يضعها من يده :

- لن تكون لهذه المرة . فقد نبهت .
واقتربت إيفا ونظرت الى الشوكة باهتمام فائق . فقال بيار :
- آغانا اعطيني شوكة أخرى .

واطاعته إيفا ، وبدأ بيار يأكل . فتناولت الشوكة المشبوهة وامسكتها
بكلتا يديها بدون ان تزيج نظرها عنها : يبدو انها تقوم بمجهود عنيف .
ففكر السيد داربدا . « كم هي منحرفة جميع تصرفاتهم وحركاتهم ! »

كان متضايقاً .

وقال بيار :

« انتبهي ، أمسكها من نصف الظهر بسبب الملاقط . »

فتنهدت إيفا وألقت الشوكة مع فضلات الطعام . وضاق السيد داربدا
ذرعاً بما رآه . ولم يفكر بأنه من الأفضل الموافقة على ترهات هذا المسكين -
حتى من وجهة نظر بيار ، كان الأمر مؤذياً . لقد قالها فرانشو بوضوح :

« علينا ألا ندخل في هذر المريض » . فبدلاً من اعطائه شوكة أخرى كان يجب تصويبه برفق وافهامه ان الشوكة الأولى ككل الشوكات الأخرى . واقترب من فتات الطعام ، وتناول الفرشاة علناً واخذ يحكها على اسنانه بخفة . ثم اتجه نحو بيار . لكن هذا كان يقطع قطعة اللحم بسرور . فرقع نحو حميه نظرة عذبة لا تم عن شيء . فقال السيد داربدا لايفاً :

« اريد ان اتحدث قليلاً معك » .

تبعته ايضاً طائفة الى غرفة الاستقبال . وانتبه السيد داربدا وهو يجلس ، الى انه نسي الفرشاة في يده . فرماها ، بانزعاج على المنضدة . وقال : « هنا أفضل » .

– لن آتي ابداً .

– بإمكانني أن أدخن .

فقال ايضاً بتلهف :

– طبعاً يا أبت . هل تريد سيجاراً ؟

آثر السيد داربدا ان يلف سيكارة . كان يفكر بغير قلق بالمناقشة التي سيجريها . كان منزعجاً من عقله وهو يتحدث الى بيار ، انزعاج المارد من قوته عندما يلاعب ولداً صغيراً . فكل صفاته من وضوح وشفاء ودقة كانت تتحول ضده . « مع جانيت المسكينة ، الأمر متشابه الى حد ما ، عليّ ان اعترف بذلك » وبالطبع ، ان السيدة داربدا ليست مجنونة ولكن المرض انهكها . ايضاً ، بالعكس ، كانت كأبيها ، ذات طبيعة مستقيمة ومنطقية . « لهذا لا اريد ان يفرقوها » . رفع السيد داربدا عينيه ، كان يريد ان يرى ملامح الذكاء والفتنة عند ابنته . خاب ظنه : ففي هذا الوجه الذي كان عاقلاً شديداً الوضوح ، يوجد الآن شيء مضطرب كثيف . كانت لا تزال جميلة جداً . ولاحظ السيد داربدا انها تزينت بعناية فائقة ، وحتى بزهو . فقد لونت ريفها بالأزرق واكتحلت . تلك الزينة الكاملة والعنيفة احدثت عند

ابيه انطباعاً مضمناً . فقال لها :

« تبدين خضراء من تحت زينتك ، اخشى ان تقعي فريسة المرض . ولكم
قتبرجين في الوقت الحاضر ! انت التي كنت » .

لم تجب ايها ، وتطلع السيد داربدا بانزعاج الى هذا الوجه البارز المنهك ،
تحت كتلة الشعر الكثيف الأسود . وفكر بأن لها هيئة ممثلة الدراما . « حتى
اني اعرف لمن تشابه . لتلك الامراة متحفظة الرومانية ، التي لعبت دور فيدرا باللغة
الفرنسية في حائط الأورانج » . وندم على ابدائه تلك الملاحظة غير المحببة .

— حصل هذا رغم ارادتي ! من الأفضل ألا اثيرها لأشياء صغيرة .

فقال لها مبتسماً :

— اعذريني ، فأنت تعرفين اني متمسك بالطبيعة قديم . لا احب كل هذه
المراهم التي تطلي بها نساء اليوم وجوههن لكنني انا المخطيء ، فمن الواجب ان
يماشي الانسان عصره .

وابتسمت له إيفاً بتعجب . أشعل السيد داربدا سيكارتته وأخذ عدة
أنفاس . وبدأ كلامه :

— يا ابنتي الصغيرة ، كنت اريد ان أقول لك حقاً إننا نريد ان نثرث
نحن الاثنين ، كما في السابق . هلمي ، اجلسي واصغي إليّ بلطف ، فعليك ان
تنثقي بهذا الأب العجوز .

فقالت ايها :

— أفضل ان أبقى واقفة . ثم أضافت :

— ما عندك لتقوله لي ؟

فقال السيد داربدا بمزيد من الجفاف :

— أريد ان أسألك سؤالاً بسيطاً . إلام سيقودك كل هذا ؟

فكرت إيفا مدهوشة :

- كل هذا ؟

- أجل ، كل هذا ، كل هذه الحياة التي ارتضيته .

وأردف قائلاً :

- اصغي ، لا تظني اني لا افهمك (اصيب بضياع مفاجيء) . لكن ما تريد ان تقومي به هو فوق طاقة البشر . تريد ان تعيشي بالخيال فقط أليس كذلك ؟ لا تريد ان ترضي بأنه مريض ؟ لا تريد ان تري بيار كما هو اليوم ، أليس كذلك ؟ ليس لك نظر لغير بيار كما كان في السابق . يا عزيزتي الصغيرة ، يا ابنتي الصغيرة . وتابع السيد داربدا : إنها مخاطرة لا يمكن الاستمرار فيها . خذي ، اريد ان اقص عليك حكاية لم تسمعي بها من قبل : نحن عندما كنا في سابله - دولون ، كان عمرك ثلاث سنوات ، وتعرفت أمك على امرأة جذابة كان عندها صبي رائع . كنت تلعبين على الشاطئ مع هذا الصبي ، كنت لا تزالين صغيرة جداً ، انه خطيبك . وفي باريس شئت أمك ان تعود للقاء تلك المرأة الشابة ، إذ قيل لها أن حادثاً رهيباً قد حصل لها . فولدها الجميل قتل بعد ان صدمته مقدمة احدى السيارات وقيل لأمك : « اذهبي لمقابلتها ولكن لا تتناولي بأي حال موضوع ولدها فهي لا تريد ان تصدق أنه مات » . وذهبت أمك لترى خلقة شبه مجنونة : كانت تعيش كالو ان ولدها لا يزال على قيد الحياة ، اذ انها تكلمه ، وتضع صحنه على الطاولة . لقد عاشت ستة اشهر على تلك الحال من التوتر العصبي ، ولم تمض هذه الاشهر الستة حتى اقتيدت بالقوة الى مأوى احترازي بقيت فيه ثلاث سنين . وقال السيد داربدا وهو يهز رأسه : لا يا صغيرتي ان اموراً كهذه مستحيلة . كان من الافضل لها ان تعترف بالحقيقة بشجاعة ، فتتألم لمرة واحدة ثم يمتص الزمن ألمها . فلا يمكن الا التطلع الى الأمور مواجهة ، صدقيني .

فقالت إيفا بعناء :

— انت مخطيء فأنا اعرف ان بيار ...

ولم تجر الكلمة على لسانها ، فوقفت منتصبه القامة ، ووضعت يديها على ظهر الكرسي . كان هناك شيء مجذب دميم في اسفل وجهها .

وسأل السيد داربدا مدهوشاً :

— حسناً ... ماذا ؟

— ماذا ؟

— انت ... ؟

فأسرعت إيفا لتقول بهيئة منزعجة :

— أحبه كما هو .

فقال السيد داربدا بقوة :

— ليس هذا صحيحاً ، ليس هذا صحيحاً : انت لا تحبينه ، ليس بإمكانك ان تحبيه . ليس بالإمكان الشعور بعاطفة الاتجاه إنسان سليم وطبيعي .

« ان لديك بعض الممالة لبيار ، ولا أشك بذلك ، كما لا بد وانك تحافظين على ذكرى السنوات السعيدة الثلاث التي امضيتها معه . ولكن لا اقول انك تحبينه ، فلن اصدقك » .

ظلت ايضاً بكاء وحدثت السجادة بنظرة تائهة . فقال السيد داربدا ببرود :

— ولا تظني ان هذا الحديث لا يؤلمني بقدر ما يؤلمك :

— ولكنك لن تصدقني .

فقال وقد ضاق ذرعاً :

— حسناً ، اذا كنت تحبينه فان هذا وبال عليك ، وعلي وعلى امك المسكينة وسأقول لك شيئاً كنت افضل اخفاه . لن تمر ثلاث سنوات حتى يصبح بيار مجنوناً كاملاً ، وسيتحول الى حيوان .

وحدج ابنته بنظرات قاسية ، لقد كرهها لانها ارغمته بعنادها على الاعتراف لها بهذا الأمر الخطير .

ولم تتحرك ايضاً وبدون ان ترفع ناظرها :
- اعرف ذلك .

فسأل مشدوها :

- ومن قاله لك ؟

- فرانشو . فأنا اعرف ذلك منذ ستة اشهر . .

فقال السيد داربدا بمرارة :

- وانا الذي قلت له ان يسارك .

«ولكن ، لعل هذا افضل . ففي مثل هذه الأحوال لا يمكن ان نغفر لك الاحتفاظ ببيار في بيتك . فالكفاح الذي كرسك من اجله سيكتب له الفشل ، فمرضه لا يغفر . فاذا كان عليك ان تفعل شيئاً ، واذا كان بالامكان انقاذه بالعناية ، فلا اعترض . ولكن انظري قليلاً : كنت جميلة ذكية مرحة ، وانت تدمرين حياتك مختارة وبغير فائدة . حسناً ، أفهم انك مدعاة للاعجاب ، ولكن ها انت قد قمت بواجبك على اكمل وجه بل أكثر من واجبك . ومن العار أن تصري على رأيك في الوقت الحاضر ، فعلى المرء واجبات تجاه نفسه يا ابنتي . ثم ألا تفكرين بنا .»

وأضاف وهو يشد على الكلمات :

- «يجب» عليك ان ترسلي بيار الى عيادة فرانشو ، ثم تتركي هذه الشقة التي لم تجلب لك سوى العذاب وتعودي الى بيتنا . واذا كنت راغبة بأن تكوني مفيدة وأن تسلي عن آلام الغير ، فعليك بأمرك . ان المسكينة تحت عناية الممرضات وهي بحاجة لأن ترى بشراً حولها . وأضاف :

- وهي - هي بامكانها ان تقدر ما تقومين به من أجلها وتكون لك شاكرة .

ومضى وقت طويل . وسمع السيد داربدا بيار يغني في الغرفة المجاورة .
بالكاد كان صوته غناء فهو نوع من السرد الحاد العصبي ، ورفع السيد
داربدا نظره نحو ابنته :

– اذاً ، لن تقبلي ؟

فقال برفق :

– سيظل بيار معي ، فأنا على اشد ما تكون المفاهمة معه .

– شريطة القيام بأعمال حيوانية طيلة النهار .

فابتسمت إيفا وحدثت أباهما بنظرة ساخرة شبه فرحة . وفكر السيد
داربدا بغضب : « صحيح ، فهذا لا يعملان اكثر من هذا : ينامان في
فراش واحد .

فقال وهو ينهض :

« انت مجنونة كاملة » .

فابتسمت بكآبة متممة وكأنها تحدث نفسها :

– ليس كثيراً .

– ليس كثيراً ! لا استطيع ان اقول لك سوى شيء واحد يا ابنتي ،
أنت تخيفيني .

وقبلها على عجل وانصرف . وفكر وهو ينزل الدرج :

« من الاجدر ان ارسل لها رجلين ضخمين يقتادان تلك القذارة المسكينة
ويضعانها تحت مصب المياه دون اخذ رأيها » .

كان يوماً هادئاً من أيام الخريف ، ليس فيه من غرابة . والشمس تسطع في
وجوه المارة . دهش السيد داربدا لبساطة تلك الوجوه فمنها الأسمر الخشن
ومنها الناعم ، لكنها كانت تعكس السعادة والهموم التي ألفها . وقال في نفسه
وقد استلم جادة سان جرمان :

« اعرف بوضوح تام ما آخذه على ايها ، لم يعد بيار كائناً بشرياً : فبكل ما توليه من عناية وتهبه من حب أراها تحرم هؤلاء البشر الآخرين . فليس بإمكان المرء ان يتخلى عن بني الانسان » .

كان يراقب المارة بمحبة : يعشق نظراتهم الوقورة الصافية . ففي هذه الشوارع المشمسة وبين البشر بإمكان المرء ان يكون مطمئناً ، كما لو في عائلة كبيرة .

وتوقفت احدى النسوة أمام الأشياء المعروضة في الهواء الطلق ، كانت تمسك بيدها بنتاً صغيرة .

فسألت البنت وهي تدل على جهاز الراديو :

— ما هذا ؟

فقال أمها :

— لا تلمسي شيئاً بيدك ، انه جهاز ، يحدث موسيقى .

وظلتا للحظة ساكنتين ، وفي غمرة السعادة .

فانحنى السيد داربدا وقد رق قلبه — نحو البنت الصغيرة وابتسم .

« لقد ذهب » . وكان باب المدخل قد اقفل بقرقرة جافة . وايفا وحدها في غرفة الاستقبال : « أودّ أن يموت » . وتشنجت يداها على ظهر الكرسي ، إذ تذكرت عيني أبيها . كان السيد داربدا قد انحنى فوق بيار وقال له : « أليذ هذا ! » وكأنه يتقن الحديث الى المرضى . نظر اليه ، فارتسم وجهه بيار في قعر عينيه . « انا اكرهه ، عندما أفكر بأنه يراه » .

وانزلت يدا إيفا على طول الكنبه ، واتجهت نحو النافذة . كانت مشدوهة . فالغرفة تسطع بالشمس ، فالشمس في كل مكان فيها : على السجادة ذات الدوائر ، وفي الهواء ، كغبار يعمي الأبصار . لقد فقدت إيفا تعودها على الضوء القوي ، الذي يصل الى كل مكان ويخترق جميع الزوايا ، يلامس الأثاث فيجعله يلمع . وتقدمت مع ذلك نحو النافذة ورفعت ستار القماش الذي يتدلى فوقها . في نفس اللحظة ، كان السيد داربدا يغادر البناية ؛ فلمحت إيفا فجأة كتفيه العريضتين . ورفع رأسه ونظر الى السماء مغمضاً عينيه ثم ابتعد بخطى واسعة وكأنه رجل شاب . وفكرت ايفا : « انه يجهد نفسه » . لم تكن لتكرهه أبداً : لم يبق في هذا الرأس من أشياء كثيرة ، إذ لا يكاد اهتمامه بالبقاء شاباً يظهر عليه . لكن الغضب عاد واستبد بها عندما شاهدته ينعطف نحو جادة سان جرمان ومن ثم يختفي . « انه يفكر ببيار » . فالقليل

من حياتها فرّ خارج الغرفة المقفلة ليتهاكك في سيره عبر الشوارع ، وفي الشمس ،
وبين الناس .

« أليس بالامكان قط أن ينسونا ؟ » .

كانت طريق بك شبه مقفرة . امرأة عجوز تعبر الشارع على مهل ، وتمر
ثلاث فتيات يتضحكن . ثم رجال ، رجال أقوياء وقورون يحملون حقائبهم
ويتبادلون الحديث وفكرت ايضاً : « البشر العاديون » ، وقد ادهشها ان ترى في
نفسها تلك المقدرة على الكره . وركضت امرأة جميلة سمينة أمام سيد أنيق .
فأحاطها بذراعيه وقبلها في فمها . ضحكت ايضاً ضحكة قاسية وأسدت
الستار .

كان بيار قد انقطع عن الغناء ، لكن زوجة الثالث جلست الى البيانو ؛
تعزف قطعة لشوبان . وشعرت ايضاً بأنها اكثر اطمئناناً ؛ وخطت خطوة نحو
غرفة بيار ، لكنها توقفت فجأة وأسندت ظهرها الى الحائط بشيء من القلق ؛
اذ في كل مرة كانت تغادر فيها الغرفة ، يدب في نفسها الدعر عند فكرة
العودة اليها ثانية . إلا انها تعرف أنه لم يكن بوسعها العيش في مكان آخر ؛
كانت تحب الغرفة . وجابت ببصرها بفضول بارد تلك الغرفة التي لا ظلال
لها ولا رائحة حيث كانت تنتظر عودة شجاعتها ، وكأنها تريد ان تكسب
قليلاً من الوقت . « ليقال انها عيادة طبيب الأسنان » : فكلمات الحرير
الوردي ، والديوان ، والطاولات كانت صبورة متكئمة ، على شيء من الأبوة
فهي من الأصدقاء الطيبين للإنسان . وتصورت ايضاً ان رجالاً وقورين عليهم
أثواب فاتحة ، يدخلون قاعة الاستقبال ويستأنفون حديثاً كانوا قد بدأوه . لم
يسعهم الوقت لكي يتعرفوا على المكان ، اذ تقدموا بخطى ثابتة الى وسط
الحجرة . وكان واحد مثلهم ، يجريده وراءه ، يلامس عند مروره الطنافس
والأغراض والطاولات ، فلا يرتعد لاحتكاكه بها . واذا وقعت في طريقهم
قطعة أثاث ، كان يعمد هؤلاء الرجال الرزينون لازاحتها من مكانها ، بدون

أن يأخذوا عناء الابتعاد عنها . وجلسوا أخيراً ، وهم لا يزالون غارقين في مباحثاتهم ، حتى بدون ان يلقوا نظرة الى الوراء . ففكرت ايها : « انها قاعة استقبال للبشر العاديين » وثبتت نظرها بالباب المقفل والقلق يضغط على حنجرتها : « عليّ ان اذهب . فلن اتركه وحده هذه المدة الطويلة » . كان عليها ان تفتح الباب ، ثم تقف في العتبة ، محاولة ان تعود عينيها على خيال الظل ، فتدفعها الغرفة بكل قواها . وكان عليّ ايها ان تنتصر على تلك المقاومة وان تدخل الى قلب الغرفة . فجأة اعترها ميل عنيف لمشاهدة بيار ، وأرادت ان تشاطره الهزء من السيد داربدا . لكن بيار لم يكن بحاجة اليها ؛ ولم تتصور ايها نوع اللقاء الذي يعده لها . وفجأة فكرت بنوع من الفخر انه لم يبق لها محل في اي مكان . غير اني لا استطيع المكوث ساعة بصحبتهم . أنا بحاجة لأعيش هناك ، من زاوية الجدار الثانية . ولكنهم لا يريدونني هناك .

وحصل تغير عميق فيما حولها . لقد شاخ الضوء ، واصبح لونه داكناً : وتناقلت ايها ، كالماء في اناء الزهور حين لا يتغير منذ البارحة . وعلى الاشياء وفي هذا الضوء العجوز ، رأت ايها من جديد تلك الكتابة التي كانت قد نسيته منذ وقت طويل ، كتابة بعد ظهر يوم من أيام خريف مضى . كانت تنظر فيما حولها مترددة خجولة : كل هذا كان بعيداً جداً : ففي الغرفة ليس هناك نهار أو ليل ، ولا فصل ولا كتابة . وتذكرت بغير وضوح فصول الخريف السابقة ، فصول خريف طفولتها ، ثم جمدت في مكانها فجأة ، كانت تخشى الذكريات .

وسمعت صوت بيار .

فصاحت :

— ها أنا آتية .

وفتحت الباب ودخلت الغرفة .

لقد ملأت رائحة البخور أنفها وقمها ، بينما أغمضت عينيها ومدت يديها الى الأمام - أصبحت الرائحة والظل بعينها عنصراً واحداً كالماء أو النار - وتقدمت بحذر نحو لطخة يبدو أنها طافية في الغمام . كانت اللطخة وجه بيار : فثيابه (وبيار مذ مرض بات يرتدي لباساً أسود) قد ذابت في العتمة . كان بيار قد قلب رأسه الى الورااء وأغمض عينيهِ . إنه جميل . نظرت ايضاً الى ريفه الطويل المقوس ، ثم جلست الى جانبه على الكرسي الواطئة . وفكرت في نفسها : « يبدو أنه يتألم » . بدأت عيناها تألفان الظل شيئاً فشيئاً . فظهر المكتب أولاً ، ثم السرير ، ثم اشياء بيار الشخصية ، والمقص ، والكتب التي كانت على الارض قرب الكنبه .

« أغاتا ؟ »

فتح بيار عينيهِ ونظر اليها باسماء . وقال :

- اتدرين قصة الشوكة ؟ قمت بذلك لأخيف الرجل . فلم يكن ينقصها شيء تقريباً .

فتبددت مخاوف ايضاً وضحكت ضحكة خفيفة وقالت :

- لقد نجحت نجاحاً هائلاً ، فجعلته يخاف خوفاً شديداً .

وابتسم بيار .

- أرايت ؟

داعبها هنيهة وأمسكها بكفتي يديه . وقال : ان ما هناك ، انهم لا يحسنون أخذ الأشياء فهم يضعونها في قبضتهم .

فقالت ايضاً :

- هذا صحيح .

ونقر بيار قليلاً على باطن يده اليسرى بسبابة يده اليمنى .

« فبهذه يلتقطون . يقربون اصابعهم وما ان يلتقطوا الشيء حتى يضعوا

راحة يدهم فوقه ليخنقوه »

كان يتحدث بصوت سريع وبطرف شففيه :
يبدو انه محتار . وقال في الختام :

— أتساءل عما يريدونه . لقد أتى هذا الرجل . لماذا أرسلوه الي ؟ فاذا أرادوا ان يعرفوا ما اعمل ، فليس عليهم سوى ان يقرأوه على الشاشة ، فليسوا بحاجة حتى للتحرك من أماكنهم . انهم يرتكبون الأخطاء . لديهم القوة ولكنهم يرتكبون الأخطاء . أما انا فلا اخطيء ابداً ، وهذا هو رصيدي . ثم قال : — هوفكا هوفكا . كان يحرك يديه المديدين أمام جبهته :

— العاهر ! هوفكا بافكا سوفكا . هل تريدان اكثر من هذا ؟
فسألته ايها:

— هل هذا هو الجرس ؟

وأردف بصراحة :

— نعم . انها ذهبت .

— هذا الرجل متخلف . انت تعرفينه ، وذهبت معه الى قاعة الاستقبال .
ولم تجب .

فسأل بيار :

— ما كان يريد ؟ لا بد وأن يكون قد قاله لك .

فترددت لحظة ثم أجابت بعنف :

— كان يريد ان نقفل عليك .

عندما تقال الحقيقة على مسمع بيار بهدوء ، كان شديد الحذر ، اذ يجب أن يضرب بالحقيقة بعنف كي تنشل شكوكه . كانت ايضاً تفضل أن تعنفه على ان تكذب عليه . فاذا كذبت وصدقها ، لم تكن لتتالك نفسها دون

شعور بسيط بالتفوق عليه ، يجعلها تشمئز من نفسها .

وكرر بيار بسخرية :

- أن يقفل علي . انهم يفقدون جادة الصواب . وما يمكن لهذا أن يصنع بي ، بين الجدران ؟ لعلهم يعتقدون بأن هذا يوقفني . أتساءل أحياناً هل هناك عصابتان ؟ الصحيحة هي تلك التي تنتسب للزنجي . ومن ثم عصابة مسودات تسعى لحشر أنفها في القضية فترتكب السخافة تلو السخافة .

ورقص يده على ذراع الكنبه ونظر اليها باغتباط ثم سأل بعد ان أستدار نحو إيفا بفضول :

- الجدران ، بالامكان اختراقها . فماذا أجبتة ؟

- أنه لن يصار الى إدخالك الماوى .

فهز كتفيه .

- لم يكن ينبغي ان تقولي هذا . انت أيضاً ارتكبت غلطة إذا لم تكوني قد تعمدتها . ينبغي ان يستنفدوا لعبتهم .

وسكت . فأخفضت إيفا رأسها بحزن : « يقبضون عليهم ! » فبأي لهجة احتقار قال هذا ، وكم كان صحيحاً . « وهل اقبض انا ايضاً على الاشياء ؟ مهما راقبت نفسي ، أظن ان غالبية حركاتي تؤذيه . ولكنه لا يفصح بذلك . شعرت عندئذ بأنها بائسة ، كما كانت عليه في سن الرابعة عشرة وان السيدة داربدا المليئة بالحيوية والحنفة تقول لها :

« سيظن بأنك لا تدرين ما تفعلينه بيديك » .

لم تكن تتجراً على القيام بأية حركة وفي تلك اللحظة تماماً شعرت برغبة لا ترد بتغيير وضعها . وأعدت رجليها بهدوء الى تحت الكرسي ، وبدون ان تلامس السجادة . كانت تنظر الى المصباح على الطاولة - المصباح الذي طلى

بيار ركيزته بالأسود - ورقة الشطرنج . على الرقعة لم يترك بيار سوى القطع السوداء . كان ينهض أحياناً ويذهب الى قرب الطاولة فيأخذ الجنود واحداً واحداً بين يديه . يحدثهم ، يطلق عليها اسم الأشخاص الآليين ، فيبدون وكأن الحياة قد أسبغت عليها بين أنامله . وعندما يضع الجنود من يده ، كانت ايضاً تذهب لتلامسهم بدورها (كان يتهاى لها انها مضحكة) : فعادت الجنود قطعاً من الخشب الميت ، ولكن شيئاً ما مبهماً لا يمكن التقاطه ظل يكسوها ، شيئاً يشابه المعنى . وفكرت في نفسها : « انها اشياؤه . لم يبق لي شيء في الغرفة » . كانت تملك بعض الأثاث في السابق . كالمراة والمنضدة التي أتتها من جدتها والتي كان بيار يسميها بمزحاً : منضدتك . لقد جر بيار الأشياء وراءه : وله وحده تظهر الأشياء وجهها الحقيقي . كان بإمكان ايضاً ان تنظر الى الأشياء طيلة ساعات ، والأشياء تأبى الا ان تبدي سوى مظاهرها - كما هي الحال بالنسبة للدكتور فرانشو والسيد داربدا . وقالت بنفس ملؤها بالقلق : « غير اني لا أرى الاشياء بمنظار أبي . فليس ممكناً أن أستطيع رؤيتها كما يراها هو » .

وحركت ركبته قليلاً ، فقد تخدرت ساقيها . كان وجهها جامداً متقلصاً ، فهو يؤذيها ، إذ تراه شديد الحيوية ، غير كتوم :

« أود ان أظل غير مرئية وأبقى هنا . أراه بدون ان يراني . فليس بحاجة إلي ، فأنا متطفلة في الغرفة » . وأدارت رأسها قليلاً ونظرت الى الجدار فوق رأس بيار . على الحائط كتبت التهديدات . وايضاً تعرف ذلك ولكنها لم تكن تستطيع ان تقرأها . غالباً ما هي تنظر الى الورود الكبيرة الحمراء على سجادة الحائط ، حتى تتراقص أمامها تلك الورود . وتلتهب الورود في الظل . ويكون التهديد أكثر ما يكون مسجلاً قرب السقف ، الى اليسار فوق السرير ، لكنه يتنقل في بعض الأحيان . « ينبغي ان انهض . لا أستطيع - لا أستطيع ان اظل جالسة لوقت أطول » . وعلى الجدار ايضاً

إطارات بيضاء تشابه قطع البصل . وتدور الاطارات على نفسها فتأخذ يدا
إيفا بارتجاف وتفكر بمرارة :

« هناك لحظات أصبح فيها مجنونة . ولكن لا ، ليس بإمكانني أن أصبح
مجنونة . بل تثور تأثرتي فقط » .

وفجأة شعرت بيد بيار فوق يدها . ويقول بيار مجنو :
- أغاتا .

كان يبتسم لها لكنه يأخذ يدها بطرف اصابعه بنوع من النفور ، وكأنه
يلتقط سرطاناً من ظهره يريد ان يتجنب ملاقطه . ويقول :
- أغاتا ، أريد ان اثق بك كثيراً .

واغمضت إيفا عينيها وارفعت صدرها : « ينبغي ألا تجيب والا سيشعر
بالتحدي فيمسك عن الكلام » .

وأرخت بيار يدها وقال لها :

- أحبك كثيراً يا أغاتا ولكن ليس بوسعي ان أفهمك . لماذا تظلين في
الغرفة طيلة الوقت ؟

ولم تجب إيفا .

- قولي لي لماذا .

فقالت يحفاف :

- انت تعرف جيداً بأني احبك .

فيجيبها بيار :

- أنا لا أصدقك . فلماذا تحبيني ؟ ينبغي ان أخيفك : فأنا مجنون .

ويبتسم ولكن سرعان ما يعود الى رصانته :

- هناك جدار بيني وبينك . أراك ، أكلّمك ، ولكن في الجهة الأخرى

ما يحول دون حبنا واحدا الآخر؟ يبدو لي أن هذا كان أسهل في الماضي . في هامبورغ .

فتقول إيفا بجزن :

— نعم .

هامبورغ دائما . لم يكن يتحدث قط عن ماضيها الحقيقي . فلم يكونا يوماً في هامبورغ لا هو ولا إيفا .

— كنا نتنزه على طول الأبنية ، وكان هناك قارب ، فهل تتذكرين؟ والقارب أسود ، وعلى الجسر كلب .

كان يخترع بمقدار . كان غائبا عن الواقع .

—وأخذك بيدي ، جلدك كان مختلفاً . وصدقت كل ما كنت تقولينه لي .

وصاح : « اسكتوا » .

وأصغى هنيهة ثم قال بصوت حزين :

« ها هم قادمون » .

فارتعدت إيفا :

— انهم قادمون؟ ظننت انهم لن يأتوا بعد اطلاقاً .

ثلاثة أيام ، وبيار أكثر هدوءاً من الماضي . فلم تأت اليه التماثيل . كانت بيار يخاف خوفاً شديداً من التماثيل ولم يتفق معها . أما إيفا فلم تكن تخشاها: ولكن ما أن يبدأوا بالطيران في الغرفة مهممين حتى تفزع هي أيضاً من بيار. ويقول بيار :

— اعطيني المجموعة .

وتنهض إيفا وتأخذ المجموعة : كانت مجموعة من قطع الورق المقوى ألصقها بيار بنفسه ، ويستخدمها في طرد التماثيل ، والمجموعة تشبه العنكبوت .

وعلى إحدى الأوراق كتب بيار : « قدرة على المكيدة » وعلى ورقة أخرى :
« أسود » . وعلى ورقة ثالثة رسم رأساً ضاحكاً بعينين مجعدتين : كانت
صورة فولتير .

وتناول بيار المجموعة بيده ونظر إليها بوجه معتم . وقال :

— لم يعد بإمكانها ان تخدمني .

— لماذا ؟

— لقد قلبوها .

— ستصنع مجموعة أخرى .

ونظر إليها طويلاً وقال من بين أسنانه :

— تريدينه كل الارادة .

وثارت إيفا ضد بيار . في كل مرة يأتون فيها ، يتلقى هو خبراً ، فكيف
يتصرف : إنه لا يخطيء أبداً .

كانت المجموعة تتدلى من طرف اصبع بيار . « انه يجد دائماً أسباباً
حقيقية لعدم استعمالها . ففي يوم الأحد عندما جاؤوا ، ادعى بأنه أضع
المجموعة لكنني كنت أراها بنفسني وراء علبة التزيق وليس ممكناً ألا يراها .
فأتساءل ان لم يكن هو الذي يجتديهم » . لم يكن بالامكان ان نعرف اذا
كان مخلصاً حقاً . ففي بعض اللحظات ، كان يتهاى لإيفا ان سيلا من الأفكار
والرؤى تغزو بيار . ولكن في لحظات أخرى ، كان يبدو لها ان بيار
يخترع . « إنه يتألم . ولكن الى اي حد هو يؤمن بالتأثيل وبالزنجي ؟ التأثيل
على كل حال ، أنا متأكدة من أنه لا يراها ، فهو يسمعها فقط : فحين تمر
بحول رأسه عنها ، ويدعي مع ذلك بأنه يراها ويصفها » . وتذكرت وجه
الدكتور فرانشو المائل الى الاحمرار : « ولكن ، يا سيدتي العزيزة ، ان
جميع المجانين كاذبون ، فستضيعين وقتك إذا أردت ان تميزي بين ما يشعرون به

حقاً وبين ما يدعون الشعور به». وارتعدت :

« لماذا أتى فرانشو ، لا أريد ان أفكر على غرارهِ » .

كان بيار قد نهض وذهب ليضع المجموعة في سلة الاوراق ، وتمتت :
« مثلك أريد ان افكر » كان يمشي بخطى ضئيلة ، على رؤوس أصابعه ،
لكي يحتل أقل مكان ممكن . وعاد الى الجلوس ونظر الى إيفا بوجه مطبق
وقال :

– ينبغي وضع سجادات سوداء فوق الجدران ، فليس في هذه الغرفة
ما يكفي من السواد .

كان قد ارتاح في الكنبه ونظرت إيفا بجزن الى هذا الجسد الشحيح ،
المستعد دائماً للأنسحاب والانكفاء على نفسه : فذراعاه ، وساقاه ، ورأسه
كانت تبدو كأعضاء قابلة للإنكماش . ودقت الساعة السادسة على الجدار ،
وسكت صوت البيانو . وتنهدت إيفا : لن تأتي التايل في الحال ، كان ينبغي
انتظارها .

« هل تريد ان أشعل النور » .

كانت تفضل ألا تنتظر التايل في الظلام .

فقال بيار :

– افعلي ما شئت .

واشعلت إيفا مصباح المكتب الصغير ، فاجتاح الغرفة ضباب أحمر . كان
بيار ينتظر أيضاً .

لم يكن يتحدث بل ان شفتيه بتحركها ترسمان بقعتين مظلمتين في الضباب
الأحمر . إنها تحب شفتي بيار . فقد كانتا في الماضي مثيرتين مغريتين . لكنهما
أضاعتا الاغراء . اذ تنفصل واحدهما عن الأخرى بارتعاش قليل ثم تعود
للالتحام مع رفيقتها ، فتنسحق واحدهما على الأخرى لتعودا فتنفصلان من

جديد . فمها تعيشان وحيدتين في هذا الوجه المسور ، وكأنهما حيوانات
وجلان . كان بإمكان بيار أن يجعل شفثيه ترقصان طيلة ساعات بدون أن
يخرج من فمه أي صوت ، ولطالما انبهرت ايفا بتلك الحركة المستمرة .
« أحبّ فمه » . لم يعد يقبلها أبداً . اذ بات يخشى الملامسة . في الليل كان
يلامس ؛ أيدي رجال قاسية جافة تلتقطه في انحاء جسمه . وأيدي نساء ذات
أظافر طويلة تقوم بدغدغته بقذارة . غالباً ما ينام بشيابه ، لكن يديه
تنزلقان تحت ثيابه وتشدان على قميصه . مرّة ، سمع ضحكة ؛ شفثان
منتفختان تلتصقان بشفثيه . منذ تلك الليلة انقطع عن تقبيل إيفا .

وقال بيار :

— أغاتا ، لا تنظري الى فمي !
وأخفضت ايفا عينيها .

وتابع بوقاحة :

— أنا لا أجهل ان بالامكان تعلم القراءة على الشفتين .

كانت يده ترتجف على ذراع الكنبه . ومد سبابته ونقر على الابهام ثلاث
مرات وتشنجت الأصابع الأخرى : كانت عملية مطاردة . وفكرت في
نفسها : « سيبتديء الأمر » . كان يودها ان تأخذ بيار بين ذراعيها .

بدأ بيار بالكلام بصوت عال وبلهجة لائقة :

— هل تذكرين سان بولي ؟

لا إجابة . لعل هذا فح .

وقال بوجه مسرور :

— هناك عرفتك . اختطفتك من بحار دانمركي . كدنا نتقاتل ، لكنني
دفعتم ثمن الرحلة وتركني في صحبتك . كل ذلك لم يكن الا مهزلة .

« انه يكذب ، انه لا يعتقد بأية حكمة يقولهها . يعرف اني لا ادعى أغاتا . اني اكرهه حين يكذب » . لكنها رأت عينيه الجامدتين وتبدد غضبها . وفكرت في نفسها : « إنه لا يكذب ، انه متعب . يحس بأنهم يقتربون . ويتحدث كيلا يسمع » . وتعلق بيار بكلتا يديه بذراع الكنبه . كان وجهه شاحباً ، ويبتسم . وقال :

— هذه اللقاءات غريبة اكثر الأحيان ، لكنني لا أومن بالصدفة . انا لا اسألك عن أرسلك ، فأنا أعرف انك لن تجيبي . لقد كنت على كل حال لبقه الى حد انك لطختني » .

كان يتحدث بعياء ، وبصوت حاد مضغوط . فهناك كلمات لم يستطع ان يلفظها فتخرج من فمه كإداة رخوة لا شكل لها .

« لقد جذبتني في غمرة العيد ، في ميادين السيارات السوداء ، ولكن وراء السيارات جيشاً من العيون الحمراء التي كانت تبرق عندما أدير ظهري . أظن أنك كنت تعطيمهم الاشارات ، وانت تتعلقين بذراعي ، لكنني لم أر شيئاً . كنت مأخوذاً جداً باحتفالات التتويج الكبرى » .

كان ينظر قبالة جاحظ العينين . ومرّ بيده على جبينه بسرعة فائقة وبجركة رشيقة وبدون ان يكف عن الكلام : لم يكن يريد الكف عن الكلام . وقال بصوت حاد :

— كانت حفلة تتويج الجمهورية ، مشهد مثير في نوعه بسبب الحيوانات المختلفة الأجناس التي أرسلتها المستعمرات من أجل الاحتفال . وخفت ان تضيعي بين القردة .

وتابع بصوت ملؤه الغطرسة وهو ينظر حوله :

— قلت بين القردة . وبإمكاني ان أقول بين الزنوج ؟ فالحيوانات الجهيضة التي تزحف تحت الرمال وتظن انها ستمضي بغير ان يراها احد

يكتشفها « نظري » ويقضي عليها في الحال . وصاح :

- الأمر هو السكوت . الجميع في مكانهم يتأهبون لدخول التماثيل ،
هذا أمر .

ترا لا لا - كان يعوي ويضع يديه معاً امام فمه - ترا لا لا . ترا لا لا .

وسكت ، وعلمت ايذا ان التماثيل قد دخلت الغرفة . فجلس جامداً
شاحباً باحتقار . وجمدت ايذا هي الاخرى وانتظر الاثنان بصمت . كان
احد الأشخاص يمشي في الممر . انها ماري ، الخادمة ، ها هي تصل بلا شك .
وفكرت في نفسها : « ينبغي أن اعطيها دراهم للغاز » . ومن ثم بدأت التماثيل
تطير ، فتمر ما بين ايذا وبيار .

وقال بيار : « هان » ، وتكور في كنيته مخبئاً ساقيه تحته . وحول رأسه .
كان يهذر من وقت لآخر لكن نقاطاً من العرق تتلألأ على جبينه : لم تستطع
ايذا أن تحتمل هذا الخد الشاحب ، وهذا الفم الذي يشوهه تحريكه شذراً .
وأغمضت عينيها . بدأت خيوط مذهبة تتراقص في قعر جفنيها . وأحست
بأنها عجوز كبيرة الوزن . وعلى مسافة غير بعيدة ، كان بيار ينفخ بجلبة .
« انهم يطرون ، يهدرون ، ينحنون فوقه ... » وشعرت بدغدغة خفيفة ،
وبانزعاج في الكتف والخاصرة اليمنى . وبجركة غريزية انحنى جسمها نحو
اليسار كما لو انها تتجنب ملامسة مزعجة ، او كأنها تفسح المجال لشيء ثقيل
أخرق . وفجأة قرقع السقف ، وأحست برغبة مجنونة لفتح عينيها ، والنظر
الى يمينها وهي تكنس الهواء بيدها .

ولم تفعل شيئاً . بل أبقت على عينيها مغمضتين وارتعشت في سرور
جاف . وفكرت في نفسها : « أنا ايضاً أخاف » . وانحنت نحو بيار ، بدون
ان تفتح عينيها . إذ يكفيها مجهود بسيط حتى تدخل في هذا العالم الرهيب
لأول مرة . وفكرت في نفسها : « أنا أخشى التماثيل » . كان تأكيداً عنيفاً

أعمى ، أو سحراً : أرادت بكل قواها ان تشعر بوجودهم . والقلق الذي يشل جبهتها اليمنى ، حاولت ان تجعل منه نوعاً من اللمس . وفي ذراعها ، وفي خاصرتها ، وفي كتفها ، شعرت بمرورهم .

كانت التائيل تطير على علو ضئيل ، وتهدر . وإيفا تعلم أن تلك التائيل خبيثة ولكنها أساءت تصورها . وتعلم أيضاً انها لم تكن حية تماماً ، بل ان قطعاً من اللحم والقشر تظهر على اجسامها الضخمة . وعلى طرف اناملها كان الحجر يتقشر ، وراحت ايديها تأكلها . لم تكن ايفا تستطيع ان ترى كل هذا : فهي تفكر فقط ان نساء شديداً الضخامة ينزلن عليها بعين انسانية « ها هي التائيل تنحني فوق بيار » وبذلت ايها مجهوداً عنيفاً الى حد ان يديها أخذتا ترتعشان . « انها (التائيل) تنحني فوقي » . وجمدها في النهاية صوت رهيب . « لقد لامسوه » . وفتحت عينيها : كان بيار يضع رأسه بين يديه ، وهو شديد الاعياء . وأحست ايفا بأنها منهكة ، وفكرت بندم : « انها لعبة . لم تكن سوى لعبة » ، لم اؤمن بها ولو لحظة واحدة . كانت تتألم طيلة هذا الوقت ، كما لو انها صحيحة .

وارتاح بيار وتهدد بقوة . ولكن حدقتيه ظلتا ممددتين بشكل غريب ، كان العرق يتصبب منه . وسأل :

— هل رأيتها ؟

— ليس بإمكانني أن أراها .

فقال :

— هذا افضل بالنسبة اليك . أما انا فقد تعودت .

كانت يدا ايفا لا تزالان ترتجفان ، ودمها يتصاعد الى الرأس . وتناول بيار سيكارة من جيبه ورفعها الى فمه . لكنه لم يشعلها وقال :

— لا فرق عندي اذا رأيتها . ولكن لا اريد ان تلامسني : أخشى ان تلتب لي بثوراً .

وفكر لحظة ثم سأل :

- وهل سمعتها ؟

فقال ايها :

- نعم ، انها كمحرك الطائرة (قالها لها بيار بنفس العبارة يوم الأحد الماضي) .

وابتسم بيار بنوع من التنازل وقال :

- انك تبالغين . لكنه ظل شاحب الوجه . وتطلع الى يدي ايها : «يداك ترعجفان . لقد أثر هذا في نفسك يا أغاتا المسكينة . ولكن لا حاجة لك لافساد دمك : فلن تعود قبل الغد (التايل) » .

لم تكن تستطيع الكلام ، ان أسنانها تصطك وتخشى ان يلاحظ بيار ذلك . ونظر اليها بيار طويلاً . وقال وهو يومئ برأسه :
« انت جميلة بقوة ، يا للخسارة . يا للخسارة حقاً . »

ومد يده ولامس أذنها بسرعة .

- يا شيطاني الجميلة ! انك تزعجينني قليلاً ، انت جميلة جداً : وهذا ما ما يسليني . إذا لم يكن الأمر استعادة ... »

وتوقف ثم نظر الى ايها بدهشة وقال بوجه غامض :

- ليس بهذه الكلمة ... ها قد أتت ... ها قد اتت . كانت عندي الكلمة الأخرى على رأس لساني ... وتلك ... حلت في مكانها . ونسيت ما كنت أقوله لك .

وفكر لحظة ثم هز رأسه وقال :

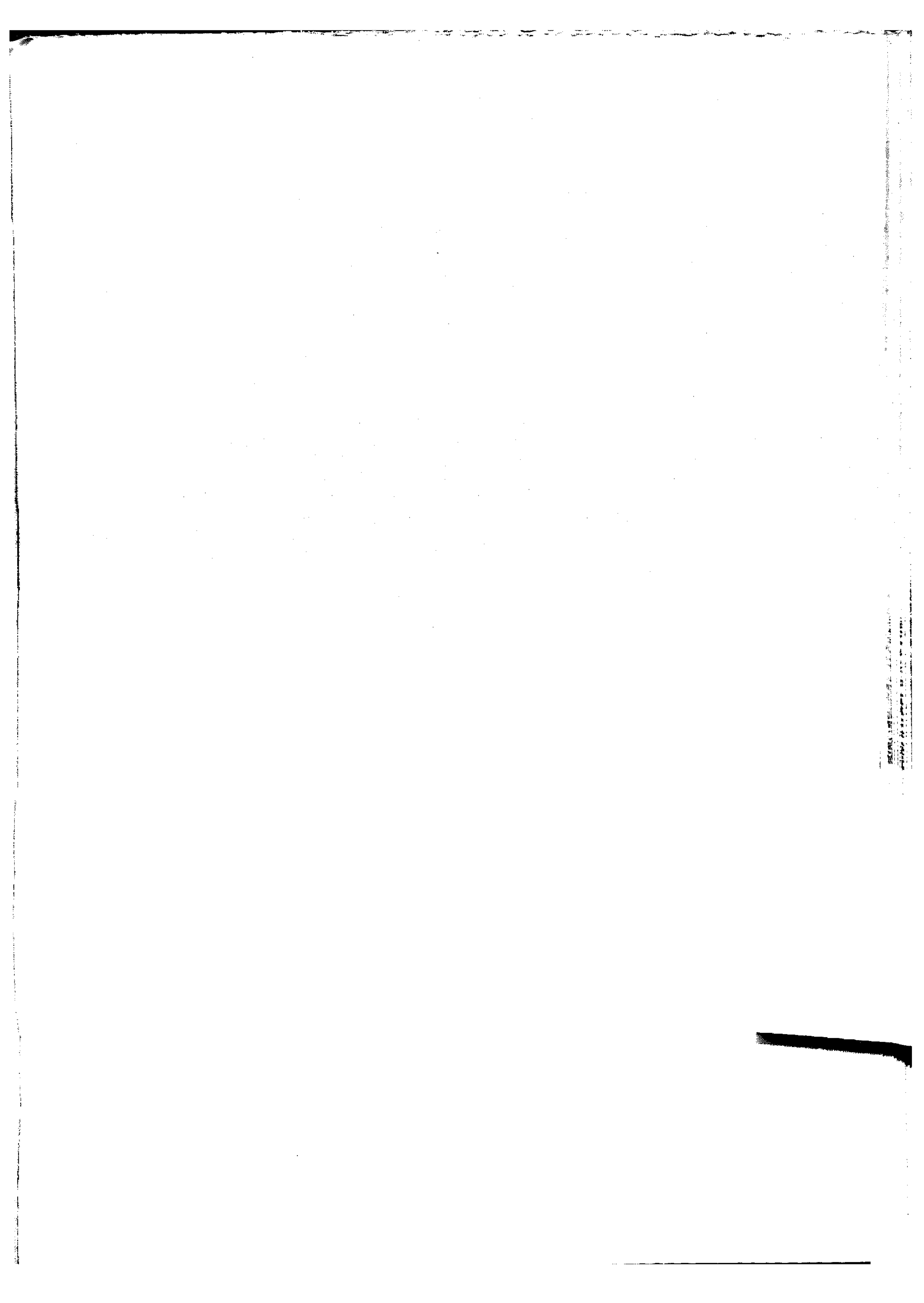
- هلمي ، أريد أن أنام ، وأجاب بصوت كصوت الطفل : « هل تعرفين يا أغاتا ، أنا متعب . لم اعد اجد افكاري » .

ورمى سيكارتته ونظر الى السجادة بوجه مضطرب . ووضعت ايضاًه مخذة تحت رأسه .

فقال لها وهو يغمض عينيه :
- بإمكانك ان تنامي أيضاً ، فلن تعود .

« استعادة » . كان بيار نائماً ، على وجهه نصف ابتسامة ساذجة . يحني رأسه : يقال انه يريد ان يجعل خده يلامس كتفه . لم تكن ايفا راغبة في النوم ، كانت تفكر : « استعادة » . واتخذ بيار فجأة شكلاً حيوانياً وسالت الكلمة خارج فمه طويلة مائلة للبياض . كان قد تطلع أمامه بدهشة كما لو انه يرى الكلمة ولا يتعرف عليها . فمه مفتوح رخو فكأن شيئاً قد تحطم فيه . « لقد دندن بسرعة . هي المرة الأولى التي يحصل له فيها أمر كهذا وقد انتبه لذلك على كل حال . قال انه لم يعد يجد أفكاراً » . أرسل بيار زفرة شهوانية ، وقامت يده بحركة خفيفة . نظرت اليه ايفا بقساوة : « كيف سيستيقظ ؟ » كان هذا يعذبها . فما ان ينام بيار حتى تضطر للتفكير به ، وليس بإمكانها ان تحول دون ذلك . انها تخشى ان يستيقظ بعينين مضطربتين وان يدندن . وفكرت في نفسها : « أنا بلهاء ، لن يبدأ الأمر قبل سنة هكذا قال فرانشو » . لكن القلق لم يغادرها ؛ عام ؛ فشتاء ، فربيع ، فصيف فبداية خريف آخر . ذات يوم ، ستتشوه هذه الملامح ، سيتهدل فكه ، وسيفتح عينيه الدامعتين قليلاً . وانحنت ايفا على يد بيار ووضعت شفثيها فوقها : « سأقتلك قبل ان يتم ذلك » .

اروسنران



البشر ينبغي ان نراهم من فوق . كنت اطفىء النور واجلس في النافذة :
لم يكونوا ليشتبهوا بأن احداً ينظر اليهم من فوق . هم يعتنون أحياناً
بالواجهة ، وبالجهات الخلفية ، ولكن جميع تأثيراتهم كانت محسوبة بعين
المشاهدين من قياس مئة وسبعين . فمن فكر اذا بشكل القبعة الصفراء ، كما
تبدو من الطابق العاشر ؟ انهم يهملون الدفاع عن أكتافهم وجماعهم تحت
الألوان الفاقعة والأقمشة البارزة اللون ، ليس بإمكانهم أن يقضوا على كل
هذا العدد الكبير للإنسانية : التطلع من فوق . وانحنيت واخذت اضحك :
أين هي تلك « المحطة الواقفة » التي فخرُوا بها : كانوا ينسحقون على الرصيف
وتخرج من بين أرجلهم سيقان طويلة تزحف تحت أكتافهم .

في شرفة الطابق السادس : هناك كان ينبغي أن أقضي كل حياتي .
كما ينبغي أن نسند مجالات التفوق المعنوي بشعارات رمزية ، لأنها ستسقط
بدون ذلك . اذاً ، ما هي بالضبط مجالات تفوقى على البشر ؟ تفوق في
الوضعية ليس إلا : وضعت نفسي فوق الانسان ، الذي هو في داخلي وأصبحت
اتفرج عليه . لهذا كنت احب ابراج نوتر دام ، وسطيحات برج إيفل ، والقلب
الأقدس ، وطابقي السادس في شارع دلامبر . إنها رموز رائعة .

كان ينبغي في بعض الأحيان النزول الى الشوارع . للذهاب الى المكتب
مثلاً . كنت اختلف . عندما نمضي مع البشر ، فمن الصعب كثيراً ان نعتبرهم
كالنمل : إنهم « مؤثرون » . مرة ، شاهدت شخصاً ميتاً في الشارع . سقط
على أنفه . قلبوه ، فرأوا الدماء تنزف منه . ورأيت عينيه المفتوحتين ووجهه

الدميم ، وكل هذا الدم . وقلت في نفسي : « ليس هذا بندي شأن ، فليس
اكثر تأثيراً من الدهان الجديد . لطخوا أنفه بالأحمر ، هذا كل شيء » .
لكنني احسست بعدوبة قدرة تتسرب الى رجلي ورقبتي ، فأغمي علي .
اقتادوني الى صيدلية ، ووضعوا لزقات على كتفي وسقوني كحولاً . كنت
سأقتلهم . أعرف انهم أعدائي ، ولكنهم لا يعرفون ذلك . كانوا يحبون
بعضهم ، ويشدون على مرافق بعضهم البعض . لعلمهم ضربوني بقبضة يد من
هنا وهناك لأنهم ظنوا بأني شبيه لهم . غير انهم لو أدركوا أقل جزء من
الحقيقة ، لقضوا عليّ . ولقد قضوا عليّ فيما بعد على كل حال . عندما القوا
القبض عليّ وعرفوا من أنا ، ضربوني لمدة ساعتين في دائرة الشرطة ، وصفعوني
ولكوني ، وجعلوا ذراعي تلتوي ، وانتزعوا سروالي ، ومن ثم ولكي ينتهوا
رموا بنظارتي على الأرض ، ولما هممت بتناولها على أربع ، أمعنوا بركلي من
الخلف ضاحكين . توقعت دائماً انهم سينتهون الى القضاء عليّ : أنا لست قوياً
وليس بإمكانني ان أدافع عن نفسي . كثيرون كانوا يتربصون بي منذ وقت
طويل : الكبار . يدفعونني في الشوارع ليضحكوا او ليروا ما سأقوم به ،
لم أقل شيئاً . وتظاهرت بعدم الفهم . ومع ذلك نالوا مني . كنت أخشاهم :
وهذا شعور مسبق . وكلكم تعتقدون تمام الاعتقاد ان لديّ اسباباً أخرى
تدفعني الى أن اكرههم .

من هذه الجهة ، سار كل شيء على ما يرام بعد ان ان اشتريت مسدساً .
يحس المرء بقوته عندما يحمل باستمرار شيئاً من تلك الأشياء التي تنفجر أو
تحدث ضجة . كنت آخذه يوم الاحد ، وأضعه في جيب سروالي ثم أذهب
لاقتزاه - عادة في الشوارع العريضة . فأحس به ينطلق من جيب سروالي
كالسرطان ، وأشعر به يضغط على فخذي ، ببرود كلي . لكنه يسخن شيئاً
فشيئاً باحتكاكه بجسدي . ومشيت بنوع من الجمود ، مشية الشخص الذي
يشد سرواله دائماً . ومددت يدي الى جيبي وتحسست « الغرض » . كنت
ادخل من وقت لآخر الى المراحاض - وحتى في المراحاض كنت اتنبه فغالباً

ما يكون يجواري أحد من الناس. كنت اخرج مسدسي وأروزه، واتطلع الى قبضته ذات المربعات السوداء وزناده الأسود الذي يشبه جفنًا شبه مغمض. والآخرون، أولئك الذين يرون من الخارج، رجلي المتباعدتين وقعر سروالي، كانوا يظنون اني ابول. ولكنني لا ابول ابدأ في المراحل العامة.

ذات مساء اتتني فكرة اطلاق النار على البشر. كان ذلك في يوم السبت. مساء، خرجت لكي ابحت عن ليا، وهي شقراء تداوم على الوقوف أمام احد الفنادق في مونبارناس. لم اكن قد اقيمت علاقات وثيقة بامرأة قط: فأحسست بأنني سُرقت. صحيح أننا نعتليهن، ولكنهن يفترسن أسفل بطنك بفمهم الواسع المكسو بالشعر، فهن اذاً على ما سمعت، اللاتي يربحن من هذه المبادلة. انا لا اطلب شيئاً الى أي انسان، غير اني لا أريد ان اعطي شيئاً. أو انه ينبغي أن تكون لي امرأة باردة تقيّة تتقبلني باشمزاز. في اول سبت من كل شهر كنت اصعد مع ليا الى غرفة في فندق دوكان. كانت تخلع ثيابها، فأنظر اليها بدون ان ألامسها. في بعض الاحيان كنت ابلغ ذروة اللذة في سروالي، واحياناً اخرى كان لدي الوقت الكافي للعودة الى منزلي حتى انتهي. هذا المساء، لم أجدها في مكتبها. وانتظرت لحظة، ولما لم تأت، افترضت انها مصابة بالزكام. كان الوقت في بداية كانون الثاني والطقس شديد البرودة، حزنت كثيراً: فأنا خيالي، وتمثلت اللذة التي توقعت ان اجتلبها في تلك الأمسية. في شارع أوديسا تقف احدى السمراوات، وكنت قد لاحظت وجودها في اكثر الاحيان، انها شديدة النضوج، لكنها صلبة وثمينة. أنا لا أكره النساء الناضجات: لكنهن عاريات، او انهم يبدين كذلك فوق اللزوم. غير انها لم تكن تدري شيئاً عني، وهذا ما كان يجعلني أخجل منها. ثم اني احذر المعلومات الجديدة: اذ ان بإمكان أولئك النسوة ان يخبئن لصاً وراء الباب، لا يلبث ان يستولي على دراهمك. هذا اذا لم يرسل لك اللكمات. غير ان شيئاً ما كان يأخذني في تلك الأمسية فقررت ان امر بمنزلي لاخذ المسدس وأقوم بالمغامرة.

لما دخلت على المرأة ، وبعدها بربع ساعة ، كان مسدسي لا يزال في جيبي ، ولم أخش شيئاً. والناظر اليها من قريب يدرك انها اقرب الى البؤس. انها تشبه جارتي في البيت المقابل ، اي زوجة نائب الضابط ، سررت لذلك لأنني تمنيت منذ وقت طويل ان اراها عارية . كانت ترتدي ثيابها والنافذة مفتوحة في غياب نائب الضابط ، وكنت ابقى وراء الستار كي اباغتها. لكنها تقوم بزيئتها في قعر الغرفة .

في فندق ستيللا لم يبق سوى غرفة فارغة . وصعدنا . كانت الامراة ثقيلة تتوقف عند كل درجة ، لتتنفس، وكنت مرتاحاً جداً : لأن جسمي جاف رغم بطني الدافق ، إذ يلزمني أربعة طوابق لأتعب كثيراً . على درج الطابق الرابع توقفت ووضعت يدها اليمنى على قلبها وتنهدت بقوة . بيدها اليسرى كانت تحمل مفتاح غرفتها . وقالت محاولة ان تبتم لي : « المكان شاهق » . اخذت المفتاح من يدها بدون ان اجيب وفتحت الباب . كنت احمل مسدسي بيسراي ، مصوباً الى الأمام في جيبي ، ولم اتركه الا بعد ان اضاءت النور . الغرفة خاوية . وعلى المغسلة وضعوا مربعاً صغيراً من الصابون الأخضر . وابتسمت : لم تكن قطعة الصابون مفيدة بالنسبة الي . لا تزال المرأة تلهث ورائي وهذا ما يهيجني . واستدرت ، فمدت لي شفيتها . فدفعتها عني وقلت لها :

— اخلي ثيابك .

كانت هناك كنية عليها طنافس فجلست عليها مرتاحاً . في مثل تلك الأحوال لا اقدم على التدخين . وخلعت الامراة فستانها ثم توقفت وهي تنظر الي نظرة حذرة .

وسألتها وانا ارتمي الى الوراء :

— ما اسمك ؟

— رينه .

— حسناً ، عجلي يا رينه ، اني انتظر .

- ألا تتعري ؟

فقلت لها :

- اذهبي ، اذهبي ، لا تهتمي بي .

وانزلت سروالها حتى رجليها ثم التقطته ووضعتة بعناية فوق فستانها الى جانب صدريتها .

وسألتنني :

- انك مذنب صغير ، يا عزيزي ، وكسول صغير . هل تريد ان تقوم امرأتك الصغيرة بالعمل كله ؟

وفي نفس الوقت ، اقتربت مني خطوة ، وحاولت ، وهي تسند يديها على جانبي الكنبة ، ان ترقع بين فيخذي . غير اني رفعتها بقساوة . وقلت :

- لا اريد شيئاً من هذا ، لا اريد شيئاً من هذا .

فنظرت اليّ بدهشة :

- ماذا تريد ان أفعل لك ؟

- لا شيء ، أمشي ، تنقلي ، لا أطلب منك اكثر من ذلك .

وبدأت تسير عرضاً وطولاً ، بوجه العاجز . لا شيء يزعج النساء قدر مسيرهن عاريات . فلم يألفن إهمال الكعب العالي . وقوست البغي ظهرها وجعلت ذراعيها يتهدلان . أما أنا ، فكنت مع الملائكة : أجلس بهدوء ، مرتدياً ملابسني حتى العنق ، ولا أزال واضعاً قفازي ، بينما راحت تلك المرأة الناضجة تدور قبالي ، عارية .

وأدارت رأسها نحوي ، وابتسمت لي بفنح لانقاذ المظالم .

- هل تجدني جميلة ؟ هل تفرك عينك ؟

- لا تهتمي بهذا .

فسألتنني بغضب مباغت :

– قل ، أتريد ان تجعلني أمشي كثيراً هكذا ؟

– اجلسي .

جلست على السرير ، وبدأنا نتبادل النظر بصمت . أقشعر بدننا . وسمعنا صوت الساعة الكبيرة من جانب الجدار الآخر ، وفجأة قلت لها :

– باعدي بين فخذيك .

فترددت لربع ثانية ثم انصاعت . فنظرت بين فخذيهما وشخرت . ثم بدأت أضحك بقوة حتى سالت الدموع من عيني . وقلت لها ببساطة :

– هل لاحظت ؟

وتابعت الضحك .

فنظرت اليّ مشدوهة ثم احمرت كثيراً وضمت فخذيهما .

وقالت من بين اسنانها :

– يا للقدر .

لكنني استرسلت بالضحك ، عندها قفزت وراحت تأخذ صدريتها عن

الكرسي .

فقلت لها :

– هه ، لم أنته بعد . سأنقذك خمسين فرنكاً في الحال ، لكنني أريد

مقابل دراهمي .

وتناولت سروالها بعصبية .

– ضقت ذرعاً ، هل تفهم . لا أعرف ماذا تريد . واذا كنت جعلتني

أصعد لتمهراً مني ...

عندها أخرجت مسدسي وأبديته لها .

فتطلعت الي بوجه رصين وأنزلت سروالها بدون أن تنبس بشفة .

فقلت لها :

- إمشي ، تنقلي .

وتمشت خمس دقائق . ثم اعطيتها عصاي وجعلتها تقوم بالتمرين . ولما شعرت بأن سروالي تبلل ، نهضت وناولتها ورقة الحسين فرنكا . فأخذتها .

وأضفت :

- الى اللقاء ، عساي لم أتعبك مقابل هذا الثمن .

وذهبت ، وتركتها عارية وسط الغرفة ، صدريتها بيد ، وورقة الحسين فرنكا في اليد الأخرى . لم آسف على دراهمي : لقد افزعته وهذا ليس عجباً انها بغني . وفكرت وأنا انزل الدرج :

- هذا كل ما أردته ، ان أدهشهم جميعاً . كنت جذلاً كالطفل . وحملت الصابون وعدت الى بيتي وفركته كثيراً تحت الماء الساخن حتى تحول الى قطعة رقيقة بين أصابعي تشبه حبة الملابس بالنعناع إذا وضعت في الفم وقتاً طويلاً . ولكن في الليل ، استيقظت مذعوراً ، ورأيت عينيها ، تينك النظرين اللتين رسمتهما لما شهرت سلاحي ، وكذلك بطنها السمين الذي كان يقفز عند كل خطوة .

وقلت في نفسي : « كم كنت متوحشاً » . وأحسست بندم أليم : كان علي أن اطلق النار عندئذ ، أن أبقر هذا البطن . في تلك الليلة ، ولثلاث ليالٍ متتابة حملت بستة ثقوب حمراء بشكل دائرة .

بعد ذلك لم أعد اخرج بدون مسدسي . كنت انظر الى ظهور الناس وأتصور كيف سيسقطون فيما لو اطلقت النار . يوم الأحد ، تعودت على الذهاب الى أمام الشاتليه ، عند انتهاء حفلات الموسيقى الكلاسيكية . وفي الساعة السادسة ، كنت اسمع رنين جرس فتأتي الحاجبات لاقفال الأبواب المزججة باحكام . إنها البداية : الجمهور يخرج على مهل ، والناس يسيرون

بخطى متهدجة ، أعينهم لا تزال الاحلام تغمرها ، وقلوبهم مفعمة بالعواطف .
كثيرون منهم كانوا يتطلعون حولهم بوجه مدهوش . لقد بدا لهم الشارع كلي
الزرقة . عندها ، كانوا يتسمون بغرابة : إذ ينتقلون من عالم الى آخر . وفي
العالم الآخر كنت أنا بانتظارهم . وضعت يدي اليمنى في جيبى وضغطت بكل
قواي على قبضة مسدسي . وما هي إلا هنيهة ، حتى رأيتني اطلق النار
فوق رؤوسهم . جندلتهم كمجموعة من الغلابين ، فأخذوا يتساقطون بعضهم
فوق بعض ، والذين ظلوا على قيد الحياة استبد بهم الذعر ، ففروا الى
المسرح يحطمون الزجاج والأبواب . كانت لعبة شديدة الازعاج : فيداي
كانتا ترتجفان ، كما ألفتني مرغماً على احتساء الكونياك عند دراهير لأعود
الى صوابي .

النساء لم يقتلن . بل اطلقت النار على كلياتهن وفي مؤخراتهن لأدفعن
الى الرقص . . .

لم أكن قد صممت على شيء ولكنني ارتأيت أن افعل كل شيء ، كما لو
أن قراري توقف . وذهبت لأتمرن في معرض (دانفر روشرو) . كانت الأهداف
واسعة . واخيراً ، بت اهتم بدعايتي . اخترت يوماً كان فيه جميع أقراني
مجتمعين في المكتب . صباح يوم اثنين . كنت لطيفاً جداً معهم ، رغم اني
أجد رهبة في مصافحتهم .

كانوا ينزعون قفازاتهم ليصافحوا الناس ، ولهم طريقة خاصة في
تعرية أيديهم . أما أنا فكنت احتفظ بقفازي .

صباح الاثنين ، ليس هناك من شيء مهم يجب عمله . فقد أتت الضاربة على
الآلة الكاتبة بالأوراق . ومازحها لومارسييه بلطف وما إن خرجت حتى
تحدثوا عن صفاتها بلباقة . ثم تحدثوا عن لندبرغ . كان يحبون لندبرغ كثيراً .
فقلت لهم :

— أنا أحب الأبطال السود .

فسأل ماسيه :

- الزوج ؟

- كلا . الزوج ، كما يقال السحر الأسود . ولندبرغ هو بطل أبيض .
فهو لا يهمني .

وقال بوكسان بخشونة :

- اذهبوا وانظروا إذا كان عبور الأطلسي ممكناً .

وعرضت لهم مفهومي عن البطل الأسود .

وقال لومارسييه مختصراً :

- انه فوضوي .

فقلت بهدوء :

- كلا ، ان الفوضويين يحبون الرجال على طريقتهم الخاصة .

- إذا فهو مجنون .

ولكن ماسيه الذي كانت بين يديه رسائل ، تدخل في تلك اللحظة

وقال لي :

- اني اعرفه صاحبك ، واسمه اروسترات . كان يريد ان يصبح عظيماً

ولم يجد شيئاً أفضل من احراق هيكل إيفاز ، احدى عجائب الدنيا السبع .

- وما كان اسم مهندس الهيكل ؟

فاعترف قائلاً :

- لم أعد اتذكر ، بل اعتقد بأن لا أحد يعرف اسمه .

- حقاً ؟ وتتذكر اسم اروسترات ؟ هل ترى انه لم يجر حساباً خاطئاً .

وانتهت المحادثة عند هذه الكلمات ، لكنني كنت مطمئناً ، فسيذكرونها

في اللحظة المناسبة . أما بالنسبة لي ، ولم أكن حتى ذلك الحين ، قد سمعت

بأروسترات ، فشجعتني تلك الحادثة . ها قد مضى ألفا سنة على وفاته ،

وفعلته لا تزال تشع ، كالماسة السوداء . وبدأت اعتقد بأن مصيري سيكون
قصيراً مؤلماً . وهذا ما جعلني أخاف في البداية ، ثم ألفت ذلك . فاذا اعتبر
هذا الأمر من زاوية معينة ، فهو شديد العنف ، لكنه ، من جهة ثانية ،
يعطي قوة وجمالاً لا يستهان بهما . وعندما نزلت الى الشارع ، احسست ان
في جسمي قوة غريبة . كنت احمل مسدسي ، ذلك الشيء الذي ينفجر
ويحدث ضجيجاً . لكنني لم أعد آخذ ضمانتي منه ، بل من نفسي ! فأنا كائن من
نوع المسدسات والمفرقات والقنابل . ذات يوم وفي نهاية حياتي القائمة ،
سأنفجر واضيء العالم بلهب ساطع قصير ، كهريق المانييزيوم . وحدث لي في
نفس الحقبة ان رأيت نفس الحلم في عدة ليال . كنت فوضوياً ، وألقيت
بنفسي في طريق القيصر وحملت معي آلة خبيثة . وفي الساعة المحددة ، مر
الموكب وانفجرت القنبلة وقفزنا في الهواء ، أنا والقيصر والضباط الثلاثة
الموشون بالذهب ، تحت أعين الجمهور .

بقيت أسابيع كاملة أداوم في المكتب . كنت اتزده في الشوارع الكبيرة ،
وسط ضحاياي في المستقبل ، أو كنت انعزل في غرفتي وأعد الخطط . طردوني
في بداية تشرين الأول . فملأت فراغي إذ سجلت الرسالة الآتية ، وجعلتها في
مئة ونسختين :

ايها السيد

أنت شهير ، تطبع مؤلفاتك على ثلاثين ألف نسخة . سأقول لك لماذا :
لأنك تحب البشر . انك تتفتح عندما تكون بصحبة احد : الانسانية تجري
في دمك . فما أن ترى واحداً من أشباهك وحتى بدون أن تعرفه تشعر بعطف
نحوه . وأنت تميل لمشاهدة جسمه ، من أجل الشكل الذي يتحرك فيه ، ومن
أجل رجليه اللتين تنفرجان وتنضمان تبعاً لارادته ، ولا سيما يديه : اذ
يعجبك ان يكون له خمس أصابع ، وان يستطيع مقابلة الابهام بسائر
اصابعه . تسر كثيراً عندما يتناول جارك كأساً عن الطاولة ، لأن هناك

طريقة وصفتها لي أكثر الأحيان في مؤلفاتك ، وهي أقل مرونة وسرعة من طريقة القرد . ولكن ليس انها أكثر ذكاء ؟ انت تحب ايضاً لحم الانسان ، وهيئته في مشيته ، ونظرته التي لا تستطيع الوحوش احتمالها . يسهل عليك اذاً ان تجد اللهجة الملائة لتحدث الانسان عن نفسه : لهجة محتشمة لكنها مشتمة . ويرتمي الناس على كتبك بنهم ، يقرأونها على مقاعد وثيرة ، ويفكرون بالحب التعيس والخفي الذي تخبئه لهم ، وهذا ما يعزيهم عن البشاعة والجبن أو عدم تلقي زيادة في أول كانون الثاني . ويقولون مختارين عن روايتك الاخيرة : انها عمل جيد .

كما افترض بأنه يهملك ان تعرف ما يمكن ان يكون الانسان الذي لا يجب البشر . إنه انا ، أحبهم حباً ضئيلاً جداً حتى انني اريد ان اقتل منهم نصف دزينة فقط ؟ لأن في مسدسي ست رصاصات فقط . انه لعمل اجرامي ليس كذلك ؟ وهو بالأخص عمل غير سياسي اطلاقاً؟ ولكنني أقول لك ان ليس بإمكانني أن احبهم . انا أفهم تماماً ما تشعر به . لكن ما يجذبك اليهم يثير اشمئزازي رأيت مثلك البشر يضغطون العلكة بقدر ، محافظين على نظرتهم الوقحة ، وهم يقبلون باليد اليسرى مجلة اقتصادية . هل هي غلطتي اذا كنت افضل حضور وليمة الحيوانات القطبية ؟ ليس بإمكان الانسان ان يفعل شيئاً لوجهه بدون ان يتحول هذا الى تلاعب في ملامحه . وعندما يضغط وهو مطبق فمه ، فترتفع زوايا فمه وتنخفض ، يبدو أنه يريد الانتقال بلا تأخر من الصفاء الى المفاجأة المبكية . انت تحب هذا ، وأنا اعرف ذلك ، فأنت تسميه نباهة الروح . لكن هذا يقتلني . ولا أدري لماذا خلقت هكذا .

فإذا لم يكن بيننا سوى فارق في الذوق ، فلن أتعبك . لكن كل شيء يجري كما لو ان لك الرحمة ، وأنا لا ألوي على شيء . انا حر في ان احب الطبق الأميركي أو ألا احبه ، ولكنني لا احب البشر ، أنا بائس وليس بإمكانني ان اجد مكاناً تحت الشمس . لقد ارهقوا معنى الحياة . آمل ان تفهم ما اريد

ان أقوله . ها قد مرت ثلاثون سنة وانا اصطدم بابواب مغلقة كتب فوقها :
« لا يدخل أحد ما لم يكن انساني النزعة » . وكل ما فعلته هو انني هجرت
المكان . كان ينبغي ان اختار : إما انها كانت محاولة مجنونة ، أو انها ينبغي
ان تنقلب لمصلحتهم . والأفكار التي لم أكرسها لهم ، ليس بإمكانني ان انتزعها
من نفسي ، وأن أصوغها : فستظل في كحركات عضوية خفيفة . والأدوات
التي كنت استعملها ، أحس بأنها لهم . الكلمات مثلاً : وددت لو ان لي
كلمات . لكن هذه الكلمات التي استعملها ، لا أدري عبر أي من العقول
انتقلت . فهي تترتب في رأسي من تلقاء ذاتها بفضل عادات اكتسبتها عند
الآخرين ، وليس استعمالي لها خلواً من الاشمئزاز . لكنني أقول لك ، ولآخر
مرة : يجب ان نحب البشر . او اذا ما كانوا يسمحون لك بعمل اية صنعة ، فأنا
لا اريد ان اقوم بأية صنعة . سأتناول مسدسي في الحال ، سأنزل الى الشارع
وسأرى اذا كان بإمكانهم ان يفعلوا شيئاً ضدكم . وداعاً يا سيدي قد تكون
انت الذي سأصادفك . لن تعرف عندئذ بأي سرور سأطير دماغك . والا
- وهذا مرجح - فاقراً صحف الغد . فسترى ان شخصاً يدعى بول هلبير
صرع في سورة غضبه خمسة من المارة في جادة ادغار كينييه . وانت تعرف أفضل
من اي شخص آخر ما قيمة النثر الذي تكتبه الصحف اليومية الكبرى . ستعرف
عندئذ بأني لم اكن في « سورة غضب » . بل انا هادىء ، وارجو ان تقبل
يا سيدي افضل عواطفني .

« بول هربير » .

وضعت الرسائل في مئة ومظروفين ، وكتبت على المظروفات عنوان
مئة واثنين من الكتاب الفرنسيين . ثم وضعت الكل في درج الطاولة مع ثمانية
دفاتر من ورق البول .

طيلة الأيام الخمسة عشر التالية ، نادراً ما كنت اغادر البيت ، اذ كنت
أتلهى بجريمتي . وفي المرأة التي اتطلع من خلالها الى نفسي ، لاحظت بسرور

التعديل الذي طرأ على وجهي ، لقد اتسعت عيناى ، حتى كادتا تقضيان على معظم وجهي ، بسوادهما الرقيق البادي من تحت النظارة ، كنت أديرهما كالكوكب . غير انى رغبت فى التبدل كثيراً بعد المحزرة . رأيت صورة تينك الفتاتين الجميلتين ، صورة الخادمتين اللتين قتلنا مخدميهما . رأيت صورهما من قبل ومن بعد . من قبل ، كان وجهاهما يتأرجحان كالزهور العاقلة فوق العنق ، كما كانتا ترفلان بالصحة والشرف . لست أدري اية آلة جعلت شعريهما . وكانتا لشدة الشبه بينهما تبدوان كالاختين عند المصور ، الأمر الذي يضع صلات الدم والجذور الطبيعية والعائلية فى المكان الاول . ومن بعد ، كان وجهاهما يشتعلان كالخريق . وتعدت عنقاهما وكأنهما سائرتان الى الشنق ، وغزتها التجاعيد ، تجاعيد خفيفة من الرهبة والكراهية ؛ تجاعيد ، وثقوب فى اللحم كما لو أن وحشاً من الوحوش قد دار بأظافره فوق وجهيهما . وهاتان العينان ، هاتان العينان الواسعتان السوداوان اللتان لا قرار لهما - هما كعيني . على انهما لم تعودا تتشابهان . إذ باتت كل منهما تحمل ذكرى الجريمة على طريقتها الخاصة . وقلت فى نفسى : « إذا كانت الجريمة التى ارتكبت بالصدفة من شأنها ان تشوه الوجه هكذا ، فكيف لجريمة عن سابق تصور وتصميم قمت بها ؟ » ستستولى عليّ ، وتشوه دماى الانسانية... الجريمة تقطع حياة مرتكبها الى شطرين . تمر لحظات نتمنى فيها العودة الى الوراء فاذا بالجريمة تقف فى الطريق تسده . لم اكن اطلب سوى ساعة واحدة لأعيش جريمى ، وأحسّ بعبئها القاتل . فى هذه الساعة ، سأرتب كل شيء لأخذها لنفسى : قررت أن اقوم بالتنفيذ فى شارع أوديسا . سأفيد من الجنون لأفركاً تاركاً إياهم ورائى يجمعون الأموات . سأركض ، سأعبر جادة إدغار - كينيه وأدور سريعاً فى شارع دولامبر . لن احتاج لأكثر من ثلاثين ثانية كي أبلغ باب البناية التى اسكن فيها ، وفى هذه اللحظة ، يكون من يطاردنى لا يزال فى جادة إدغار كينيه ، فيضيعون أثرى ، إذ تلزمهم ساعة على الأقل حتى يحدوه . سأنتظرهم فى بيتى ، وعندما أسمعهم يطرقون الباب ، سأحشو مسدسى.

واطلق النار في فمي .

كانت حياتي أوسع مما هي عليه . تفاهمت مع صاحب مطعم في شارع فافان كان يأتي لي بأطباق جميلة كل صباح ومساء . ويطرق العميل الباب ، فلا أفتح له ، بل انتظر عدة دقائق ثم افتح الباب لأرى في سلة كبيرة على الأرض ، صحوناً مملأى يتصاعد منها الدخان .

في ٢٧ تشرين الأول ، وفي السادسة مساء ، كان قد بقي معي سبعة عشر فرنكاً ونصف . فأخذت مسدسي ورزمة الرسائل ، ونزلت . تعمدت عدم اقفال الباب ، كي أتمكن من العودة بسرعة بعد ان أقوم بضربتي .

لم اكن على أحسن حال ، إذ ان يدي باردتان والدم صعد الى رأسي ، وكنت بحاجة لأفرك عيني . نظرت الى المخازن . الى فندق المدارس ، والى دكان الورق حيث اشترى اقلام الرصاص فلم أعرفها . وقلت في نفسي : « ما هذا الشارع ! » كانت جادة مونبارناس تعجّ بالبشر ؛ يدفعونني الى الأمام والوراء ، ويلطمونني بمرافقهم أو بأكتافهم . كنت اتهادى ذات اليمين وذات اليسار ، إذ لم تكن لديّ قوة الانزلاق بينهم . رأيتني فجأة وسط ذلك الجمهور ، شديد الوحشة والصغر . كم كان بإمكانهم ان يؤذوني لو شاءوا ! كنت خائفاً بسبب السلاح الذي في جيبي . فقد تهيأ لي انهم سيكتشفون مكانه . سيتطلعون اليّ بأعينهم القاسية وسيقولون : « ولكن ... ولكن ... » بغضب يصحبه الفرح ، وهم يدوسون عليّ بأرجلهم البشرية . ما ان يقضوا عليّ كلياً ، حتى يلقوا بي من فوق رؤوسهم ، فأقع فوق أيديهم كاللعبة الصغيرة فارتأيت تأجيل مشروعني حتى الغد . وذهبت لأتناول العشاء في الكوبول بستة عشر فرنكاً وثمانين . كان قد بقي لي سبعون سنتيماً ألقيت بها في الساقية .

بقيت ثلاثة أيام في غرفتي ، بدون طعام أو نوم . واغلقت المنافذ ولم أعد أجرؤ على الاقتراب من النافذة او على إضاءة المصباح . يوم الاثنين طرق

بابي أحدهم . فهدأت من روعي وانتظرت . وما هي سوى دقيقة حتى عادوا الى رن الجرس . رحت على رؤوس اصابعي لأنظر من ثقب الباب ، فلم أر سوى قطعة قماش أسود وزر . رن الشخص الجرس ثانية ثم نزل . ولا أدري من هو . في الليل ، رأيت احلاماً عذبة وسعفاً ، ودماً جارياً ، وسماءً بنفسجية فوق قبة . لم أكن ظمناً لاني كنت أشرب ساعة بعد ساعة من حنفية المغسلة لكنني كنت جائعاً . ورأيت البغي السمراء مرة ثانية . كان ذلك في قصر بنيته فوق الهضبة السوداء على بعد عشرين ميلاً من كل قرية . كانت السمراء عادية ، ووحيدة معي . أرغمتها على الركوع بقوة مسدسي ، وعلى الركض على أربع . ثم ربطتها بعمود ، وبعد ان شرحت لها مطوّلاً ما سأقوم به ، أمطرتها وابلاً من الرصاص . أثرت في هذه الصور فاكتفيت بها . وبعدها ، بقيت جامداً في الظلام ، فارغ الرأس تماماً . بدأت قطع الأثاث تترقع . كانت الساعة تشير الى الخامسة صباحاً . كنت أعطي أي شيء مقابل الخروج من غرفتي ، ولكن لم يكن بوسعي ان أنزل بسبب الناس الذين يسرون في الشارع .

وجاء النهار . لم أعد احس بالجوع ، بل ان العرق صار يتصبب مني : فتبلل قميصي . في الخارج ، كانت الشمس . عندها فكرت : « في الغرفة المقفلة ، في الظلام يختبئ . فمنذ ثلاثة ايام لم يذق الطعام او النوم ، دق بابه ولم يفتح . والآن ، سينزل الى الشارع وسيقتل » . كنت اخيف نفسي . في السادسة مساء عاودني الجوع . كنت غاضباً حتى الجنون . تعثرت لحظة في الغرف ، ثم اضأت الكهرباء في الغرف والمطبخ والمراحيض . وبدأت أغني بأعلى صوتي ، وغسلت يدي وخرجت . كان يلزمني دقيقتان لأضع جميع رسائلني في علبة البريد . كنت أرميها عشرة عشرة . فجعدت بعض المظروفات .

ثم سرت في جادة المونبارناس وحتى شارع أوديسا . وتوقفت أمام

المرأة في إحدى محلات بيع القمصان ، ولما لمحت وجهي فيها فكرت في نفسي : « هذا من أجل المساء » .

تمركزت في أعلى شارع أوديسا ، ليس بعيداً عن قناة الغاز ، وانتظرت .
ومرت امرأتان . كل منهما تمسك بذراع الأخرى ، وتقول الشقراء :

– لقد وضعوا السجادات في كل النوافذ ، وكان نبلاء البلاد هم الذين يقومون بالتصوير .

فسألت الأخرى :

– هل هم مفلسون ؟

– ليس ضرورياً أن يكون المرء مفلساً حتى يقبل بعمل يدر عليه خمس ليرات ذهبية في اليوم .

فقالَت السمراء مبهورة :

– خمس ليرات !

وأضافت وهي تمر من أمامي :

– ثم أتصور انهم يتسلون بارتداء ثياب أجدادهم .

وابتعدت الامراتان . كنت أشعر بالبرد لكن العرق يتصبب مني بغزارة .
وما هي إلا لحظة ، حتى أتى ثلاثة رجال ، فتركتهم يعبرون : إذ كان يلزمني ستة . ونظر الي من كان على اليسار وقرقع بلسانه . فحولت نظري عنه .

في السابعة وخمس دقائق ، دخلت امرأتان تتبع واحدهما الاخرى جادة ادغار كينييه . كان رجل وامرأة بصحبة ولدين في إحدى الفرقتين . ووراءهم تأتي ثلاث عجائز . خطوات خطوة الى الأمام . كانت المرأة غاضبة تهز الصبي بذراعه . ويقول الرجل بصوت متهدج :

– انه لا يطاق ، هذا الولد .

كان قلبي يخفق بقوة مما سبب لي ألمًا في ذراعي . وتقدمت ووقفت
قبالتهم ، لا حراك بي . واصابني في جبي ، كانت رخوة حول الزناد .
وقال الرجل اذ دفعني :
« عفواً » .

تذكرت انني اغلقت باب غرفتي وهذا ما جعلني متناقضاً : اذ يلزمي وقت
ثمين لفتحه . وابتعد الاشخاص . فهجمت عليهم اتبعهم بصورة آلية . لكنني
لم أعد اربح في اطلاق النار عليهم . لقد ضاعوا في زحمة الجمهور في الشارع .
اما انا ، فاستندت الى الجدار . فسمعت الساعة الثامنة تدق ومن ثم التاسعة .
وكررت قائلاً في نفسي :

« لماذا ينبغي قتل هؤلاء الأشخاص الموتى » واعترتني رغبة بالضحك .
فجاء كلب وشم قدمي .

ولما تجاوزني الرجل السمين ، أرتعدت . كنت أرى تجاعيد عنقه الحمراء .
كان يروح ذات اليمين وذات اليسار ويتنفس بقوة ، فهو يبدو قوياً . اخرجت
مسدسي ؛ كان لماعاً بارداً ، يثير اشمئزازي ، لم اذكر تماماً ما كان يجب ان
افعل به . فتارة ما كنت انظر اليه ، وطوراً الى عنقه . تجاعيد عنقه
كانت تضحك لي ، كهم باسم مرير . وتساءلت في نفسي اذا كنت سأهم
بالقاء مسدسي في احد المجاري .

فجأة اتجه الرجل نحوي ونظر اليّ بحنق . فتراجعت خطوة الى الوراء .
« ذلك كي ... اسألك ... »

لم يبد عليه انه يريد الاستماع . كان ينظر الى يدي . وانتهيت بصعوبة :

– هل بإمكانك ان ترشدني الى شارع « السرور » ؟

كان وجهه ضخماً ، وشفتهاء ترتجفان . لم يقل شيئاً بل مدّ يده . فتراجعت
أكثر وقلت له :

– أريد ..

في تلك اللحظة عرفت اني سأبدأ بالصياح . ولما لم أرغب في ذلك ، افرغت له ثلاث رصاصات في بطنه . فسقط بهيئة مضحكة على ركبتيه ، وتدحرج رأسه على كتفه اليسرى . وقلت له :

— يا للقدر ، يا للقدر اللعين !

وهربت . وسمعته يسعل . وسمعت أيضاً صياحاً ووقع خطى تتبعني . وسأل أحدهم : « ما هذا ، انها يقتتلان ؟ ثم صاحوا بعد ذلك : « الى القاتل ! الى القاتل ! » لم أفكر بأن هذه الأصوات تتعلق بي . لكنها بدت مشؤومة ، كصفارة رجال الاطفاء كما كنت اسمعها في طفولتي . مشؤومة ومضحكة نوعاً . وركضت بكل ما أوتيت ساقي من قوة .

إلا اني ارتكبت خطيئة لا تغتفر : فبدلاً من ان اصعد نحو جادة ادغار كينيه ، نزلت نحو جادة المونبارناس . وعندما ادركت ذلك ، كان الوقت متأخراً : كنت وقتئذ في وسط الجمهور ، تتجه نحو الوجوه المدهوشة ، (اتذكر من بين تلك الوجوه وجه امرأة شديدة التبرج تعتمر قبعة خضراء) وأسمع أصوات السخفاء في شارع أوديسا يصيحون : الى القاتل وراء ظهري . وأحسست بيد تمتد الى كتفي ، عندها اضعت رشدي : لم أكن أريد ان أموت خنقاً على يد هذا الجمهور . اطلقت أيضاً عيارين نارين . فبدأ الأشخاص يهربون ويتفرقون . فدخلت راكضاً الى احد المقاهي . فوقف المستهلكون عند مروري ولكنهم لم يحاولوا إيقافني ، وعبرت المقهى بطوله واعتصمت في المغاسل . بقيت رصاصة واحدة في مسدسي .

ومرت لحظة . كنت منهوك القوى ، لاهثاً . كل شيء صامت صمتاً عجيباً ، كما لو أن الناس تعمدوا السكوت . ورفعت سلاحي حتى عيني ورأيت ثقبه الاسود المستدير : ستنتلق الرصاصة من هنا : وسيحرق البارود وجهي . أرخيت ذراعي وانتظرت . ما هي إلا لحظة حتى وصلوا بخطى الذئاب ، لا بد وأن يكونوا قطعاً كاملاً ، على ما يتبادر الى الذهن من وقع

خطاهم . وتمتموا لحظة ثم سكتوا . أما انا فكنت لا أزال ألهث وفكرت بأنهم سيسمعونني وأنا ألهث ، من جهة الحاجز الاخرى . اقترب احدهم بهدوء وشد على قبضة الباب . لعله أسند ظهره للجدار جانبياً ليتقي رصاصاتي . ورغبت مع ذلك في اطلاق النار - لكن الرصاصة الاخيرة كانت لي . وسألت في نفسي : « ماذا ينتظرون ؟ » فاذا انقضوا على الباب وخلعوه « حالاً فلن يتركوا لي الوقت الكافي لقتل نفسي ، فيقبضون علي حياً » . لكنهم لم يستعجلوا ، فقد تركوا لي فرصة كي اموت . القذرون ، كانوا خائفين .

وما هي إلا لحظة حتى ارتفع صوت « هيا افتح فلن نؤذيك » . وما هي إلا لحظة صمت حتى تابع الصوت : « انت تعرف انه ليس بإمكانك الفرار » . لم أجب ولكنني كنت لا أزال ألهث . وحتى اتشجع على اطلاق النار ، قلت في نفسي : « اذا قبضوا علي فيضربونني ، سيحطمون أسناني ، سيفقأون احدى عيني » . وودت أن أعرف اذا كان الرجل السمين قد مات . لعلي جرحته فقط ... والرصاصتان التاليتان لعلها لم تصيبا أحداً ... كانوا يعدون أمراً ما ، فهم يحرون شيئاً ثقيلاً على الارض .

أسرعت بوضع فوهة مسدسي في فمي وعضضت عليها بقوة . غير اني لم استطع اطلاق النار ، ولا حتى وضع اصبعي على الزناد . كل شيء عاد للصمت . عندها رميت المسدس وفتحت لهم الباب .



كانت لولو تنام عارية لأنها تحب أن تداعب نفسها بالغطاء ،
ولأن الغطاء كان ثميناً . اعترض هنري في البداية : فلا يجوز ان تنام عارية
في السرير ، فهذا لا يمكن ، بل إنه قذر . لكنه انتهى مع ذلك الى النزول
عند رأي زوجته لكن هذا كان نوعاً من المسايرة بالنسبة اليه ، كان جافاً تمام
الجفاف عندما يكون بين الناس . وبالنسبة للأصناف (كان معجباً بأهل سويسرا
لا سيما سكان جنيف ، انه يعجب بهم لأنهم من خشب) غير انه كان يهمل
نفسه في الأشياء البسيطة ، فليس شديد النظافة مثلاً ، إذ لم يكن يغير سرواله
كثيراً . فحين تضع لولو سراويله للتنظيف ، كانت تلاحظ عليها البقع
الصفراء : لم تكن لولو شخصياً تكره القذارة : فهي تجعل الشخص اقرب
الى القلب ، وهي تضيي ظلالاً غذبة بين المرافق مثلاً . فلم تكن تحب أولئك
الانكليز ، تلك الأجساد غير البشرية التي ليس لها رائحة . لكنها كانت
تخشى اهمال زوجها ، لأنه سبيل للميوعة . في الصباح ، حين يستيقظ ، يكون
شديد الرقة أمام نفسه ، فرأسه مليء بالأحلام . كان الماء البارد وشعيرات
الفرشاة تحدث له انعكاسات سيئة .

كانت لولو نائمة على ظهرها ، كما أدخلت اصبع رجلها اليسرى الكبيرة في
شق الغطاء . لم يكن هذا شقاً ، بل أن الغطاء ممزق . انه يزعجها . وعليها ان
تخيطه غداً ، كانت مع ذلك تشد على الخيطان لتقطع . لم يكن هنري قد

نام ، لكنه انفك عن الازعاج . لطالما قال هذا للولو : ما ان يغمض عينيه حتى يشعر بأنه قد ربط تماماً بحيث لا يستطيع ان يحرك حتى اصبعه . الذبابة عالقة في خيوط العنكبوت . ولولو تحب ان تشم هذا الجسد السجين . فلو ان بإمكانه ان يظل هكذا مشلولاً لاعتنيت به انا ، ولتنظفته كولد ولقلبته أحياناً على ظهره وضربته على مؤخرته وازحت الغطاء حتى اذا أتت أمه ورأته عارياً ، أظن انها ستجمد في مكانها . منذ خمسة عشر عاماً لم تشاهده على هذه الحال . مرت لولو بيدها الخفيفة على خاصرة زوجها وقرصته قليلاً . فهمهم هنري لكنه لم يقم بأية حركة . أصبح « عاجزاً » . وابتسمت لولو : كلمة « العجز » كانت تضحكها دائماً . ففي الوقت الذي كانت لا تزال فيه تحب هنري ، تخيلته وكأنه « جلفر » ، وهنري يحب ذلك فهذا اسم انكليزي ولولو تبدو مثقفة ، لكنه كان يفضل ان تلفظه لولو باللهجة الانكليزية . كم كانوا قادرين على ازعاجي : فلو رغب في الثقافة لم يكن عليه سوى الاقتران بجان بدير ، فهي وان حملت نهدين بارزين ، تتقن خمس لغات وعندما كنا نذهب الى « سو » يوم الأحد ، كنت شديد الازعاج بين اسرتها حتى اني كنت آخذ اي كتاب لأقرأ فيه . وغالباً ما كان هناك من يأتي لينظر الى ما اقرأ وتسألني أختها الصغيرة : « هل تفهم لوسيا؟ » انها لا تجدني مميّزاً . السويسريون نعم هم الاشخاص المميزون ، لأن أختها البكر قد تزوجت من رجل سويسري انجبت منه خمسة أولاد . أما أنا فلا يمكن ان يكون لي أولاد . انه أمر مشروع ، غير اني لم ار ان ما يقوم به ، من زيارة المراهيض عدة مرات عندما يكون برفقتي ، شيئاً مميّزاً . اذ اصبح مرغمة على النظر في الواجهات وأنا بانتظاره . ويخرج وهو يشد سرواله ويقوس ساقيه كالعجوز .

وسحبت لولو اصبعها من شق الغطاء وحركت رجلها قليلاً ، حتى تشعر بلذة تنبها . الى جانب تلك الكتلة الرخوة من اللحم . وسمعت غرغرة ؛ انها بطن تغني ، وهذا يزعجني ، فليس بإمكانني ان اعرف هل كانت بطني ام بطنه .

وأغمضت عينيها : انها سوائل يسمع خريها في الاقنية الرخوة ، فالجميع عندهم منها ، عند ريرات وعندي (لا أحب أن افكر بذلك ، فهذا ما يسبب لي ألماً في بطني) انه يحبني ولا يحب امعائي ، فلو قدمت له زائدي الدودية فلن يعرفها ، سيظل طيلة الوقت يقلبني ولكن اذا وضعنا الاناء في يديه فلن يشعر بشيء . فلن يفكر بأن هذا الذي في الداخل « هوها » . من الواجب أن نحب كل شيء في الشخص ، بلعومه وكبده وامعاه . لعنا لا نحب هذه الأعضاء بحكم عدم التعود عليها ، فلو رأيناها كما نرى أيدينا وأذرعنا لأحبيناها على ما اعتقد . فنجوم البحر إذا تفوقنا في محبة بعضها . فهي تتمدد على الشاطئ في الشمس وتخرج معدتها لتتنشق الهواء ، والجميع يرون هذه المعدة . أتساءل كيف بإمكاننا أن نخرج معدتنا ؟ كانت قد اغمضت عينيها ، أخذت الصحون السوداء بالدوران ، كما كنت أمس في المعرض ، اطلق النار على الصحون بأسهم من المطاط . كانت هناك حروف تشع ، يشع الحرف عند اطلاق النار ، فتؤلف الحروف اسم مدينة ، لقد حرمني من رؤية حروف ديجون كاملة لفرط ما كان يلتصق بي من الخلف ، أكره كثيراً أن يلامسني أحد ، أود لو لم يكن لي ظهر ، لا أريد أن يفعل لي الناس شيئاً عندما لا اكون منتبهة . فبإمكانهم أن يحركوا أيديهم فوق ظهرك فلا تدري الى أية جهة ستنتقل الأيدي ، وهم يتطلعون اليك بكل أعينهم بدون أن تراهم ، وهنري يجب هذا حتى العبادة . لم يفكر هنري قط بذلك ، لكنه يفكر بالوقوف ورائي ، وأنا متأكدة من انه يفعل هذا عمداً ، ويلامسني من خلف ، فأنا اخجل من مؤخرتي ، وهو يعرف ذلك ، لكن هذا يهيجه . لكنني لا أريد أن افكر فيه (كانت خائفة) . أريد أن افكر بريرات . كانت تفكر بريرات في جميع الأمسيات وفي نفس الساعة . في نفس اللحظة التي يبدأ فيها هنري بالشخير . لكن المقاومة موجودة ، فالآخر أراد أن يظهر نفسه ، ورأى للحظة الشعر الأسود ، وارتعش لأن المرء لا يدري ماذا سيحصل له . فلو انه الوجه لسكانت الحال على ما يرام ، لكن هناك ليالي قضاها بدون

أن يغمض عينيه بسبب الذكريات القذرة التي طغت عليه ، فمن الأمور
الرهيبية أن نعرف كل شيء عن انسان ما وخاصة هذا . وهنري لا يمثل
الشيء ذاته ، فبإمكانني أن اتصوره من الرأس حتى الرجلين ، فهو يجعل قلبي
رقيقاً ، لأنه رخو ، ولحمه رمادي الا بطنه فهي وردية ويقول ان الرجل
الحسن القوام هو الذي اذا جلس تتجدد بطنه ثلاث تجعدات ، بينما هو فتتجدد
بطنه ست تجعدات . الا انه يعدها اثنتين بعد اثنتين ولا يريد أن يرى
الآخرين . وأبدت امتعاضها وهي تفكر بريرات : « لولو ، انت لا تدركين
كيف يكون جسم الرجل الجميل » . هذا مضحك بالطبع ، نعم أنا اعرف ما الجسم
الجميل ، تريد أن تقول انه جسم قاس كاللحجر ، جسم ذو عضلات ، أنا لا
أحب هذا الجسم ، باترسون كان له جسم مشابه ، وأنا كنت احسني رخوة
كاللودة عندما كان يضمني اليه . وتزوجت من هنري لأنه رخو ، ولأنه
يشبه الكاهن . والكهنة كالنساء على جانب من العذوبة بقلنسواتهم ، كما يبدو
أن لهم جوارب . في الخامسة عشرة ، كنت احب أن أرفع فساتينهم برفق
لأرى سيقان الرجال عندهم وكذلك سراويلهم ، كان يضحكني أن يكون
لهم شيء بين الساقين . كنت أريد أن أمسك الفستان بيد وأزحلق الأخرى
على طول سيقانهم ، صاعدة الى حيث أفكر ، وليس مرد ذلك الى اني احب
النساء الى هذا الحد ، لكن عضو الرجل عندما يكون تحت الفستان ، طريء
كالوردة الكبيرة . ان ما هنالك انه ليس بالإمكان أن يمك هذا باليد فيظل
ساكناً ، بل هو يبدأ بالتحرك كالحيوان ، ويصبح قاسياً عنيماً . الحب ، كم هو
قدر . أنا كنت احب هنري لأن غرضه الصغير لا ينتصب أبداً ولا يرفع رأسه ،
كنت اضحك ، وأقبله احياناً ، لم أعد أخشاه كثيراً . في المساء ، آخذ شيئه
العذب الصغير بين أصابعي ، فكان يحمر ويدير رأسه جانباً وهو يتهدد ،
ولكن الشيء لم يتحرك ، بل يظل عاقلاً في يدي ، لم أكن اضغط عليه ،
فنظل طويلاً على هذه الحال ، وكان ينام . عندها استلقي على ظهري وأفكر
بالكهنة ، والاشياء الطاهرة والنساء ، وادغدغ بطني اولاً ، بطني الجميلة

المسطحة ، وأنزل يدي ؛ انزلها ، وما هي اللذة . اللذة التي لا يستطيع أحد
غيري أن يحتلبها لنفسه .

الشعر مجعد كشعر الزنجي . والقلق في الحجرة ككتلة مستديرة . لكنها
ضغطت على جفنيها بقوة ، واخيراً ظهرت اذن ريرات ، وهي اذن صغيرة محمرة
ومذهبة كالسكر المذاب . وإذا رأيت لولو لن تجدها بمثل سرورها المعتاد
لأنها تسمع صوت ريرات ، وهو صوت حاد دقيق لا تحبه لولو . « عليك ان
تذهبي مع بيار يا لولو العزيزة ، فهذا هو العمل الذكي الوحيد الذي بإمكانك
ان تقومي به . اشعر بكثير من العاطفة تجاه ريرات ، لكنها تزعجني قليلاً
عندما تتظاهر بالأهمية وتفتخر بما تقوله . انحنت ريرات عند العشية في
الكوبول ، وكانت عليها ملامح التعقل المصحوب بالخوف : « ليس بإمكانك
ان تظلي مع هنري ، لانك لا تحبينه ، فهذا عمل اجرامي » . إنها لا تضيع أية فرصة
دون أن تتناوله بسوء ؛ أرى ان هذا ليس من اللياقة بشيء ، فهو شديد المحبة لها
ان اكون لا أحبه ، امر ممكن ، ولكن ليس من واجب ريرات ان تقوله لي .
اذ انه يبدو معها كل شيء بسيطاً سهلاً : فالمرء إما ان يحب ، واما الا يستمر
في هذا الحب . أما انا فلست بسيطة . أولاً ، إن لي عاداتي الخاصة ، ومن ثم
اني احبه ، فهو زوجي . كنت أود ان اضربها ، ولا زلت أرغب في إيذاها
لأنها وقحة . « انه لعمل اجرامي » . لقد رفعت ذراعها ، فرأيت ما تحت
أبطها . لا أزال أحبها حين تكون ذراعاها عاريتين . تحت الابط ، يفتح
نصف فتحة ، فقد يتبادر الى الذهن انه فم ، وترى لولو لهما بنفسجياً ، قليل
التجاعيد ، تحت شعيرات مجمدة كأنها الشعر . يطلق بيار عليها اسم
« مينرفا السمينة » وهي لا تحب هذا الاسم اطلاقاً . وابتسمت لولو لأنها
فكرت بأخيها روبر الذي قال لها ذات يوم وكانت بالغلالة الرقيقة : « لماذا
لك شعر تحت الذراع ؟ » وأجابته : « انه مرض » . كانت تحب كثيراً ان
ترتدي ثيابها أمام أخيها الصغير ، لأنه كان لديه دائماً ملاحظات طريفة ،
ويتساءل المرء أين تريد ان تبحث عن هذا . كان يلامس جميع أغراض لولو ،

فيطوي الفساتين بعناية بيدين حاذقتين؛ سيصبح يوماً ما « خياطاً ». انها مهنة مغربية ، وانا ، سأرسم له على قطع القماش . إنه لغريب ان يحلم الصبي بأن يصبح خياطاً . يتهاى لي لو كنت صبياً ، انني أتمنى عندئذ ان اصبح مغامراً أو ممثلاً ، وليس خياطاً . لكنه حالم طيلة الوقت ، فهو لا يتكلم كثيراً ، ويتابع فكرته . وأنا كنت أريد ان أصبح اختاً سالحة للاستجداء ، في البنائات الكبرى . أحس بعدوبة عيني وكأنهما اللحم البشري ، اريد ان انام ، وجهي الجميل الشاحب تحت التسريحة . كانت ملاحي مميزة . رأيت مئات من الردهات المعتمة . غير ان الخادمة أضاءت النور في الحال ، عندها أبصرت لوحات العائلة ، وتماثيل البرونز على المنضدات . وكذلك المشاجب . وتأتي السيدة بدفتر صغير وورقة من فئة الخمسين فرنكاً :

« خذي يا اختي - شكراً يا سيدتي وليبارك الله والى المرة القادمة » لكنني لم اكن أختاً حقيقية . في السيارة ، أومأت بعيني لأحد الأشخاص ، ففزع أولاً ، ثم تبعني وهو يحدثني عن أشياء فسلمته للشرطي . دراهم الاستجداء كنت احتفظ بها لنفسي . ماذا اشترى لنفسي أشتري سماً . يا للبلاهة . وارتحت عيناى ، فهذا يعجبني ، إذ يقال انها قد تبللتا بالماء ، فجسمي مريح بمجمله . والتاج الجميل المرصع بالزمرد . ودار التاج ، ثم دار ، فتحول لرأس ثور مخيف ، لكن لولو لم تكن خائفة ، وقالت : « يا لعصافير الكانتال » . وجرى نهر احمر عبر الحقول المجدبة . وفكرت لولو بفأسها الآلية .

« إنها لجريمة » . وارتعدت فرائصها واستيقظت في ذلك الليل ، بعينين قاسيتين ! انهم يعذبونني ، أفلا يشعرون ، بذلك ؟ انا أعرف ان ريرات تتحدث عن نية حسنة ، لكنها وهي العاقلة بالنسبة للآخرين ، ينبغي ان تفهم انني بحاجة للتفكير . قال لي : « ستأتين ! » وقد احمرت عيناها اشد الأحمرار . « ستأتين الى بيتي انا ، أريدك ان تكوني لي » . اني اخشى عينيه حين يريد ان يلعب دور المنوم المغناطيسي ، كان يخدر ذراعي . فلا أرى

عينيه على تلك الحال حتى افكر بالشعر الذي على صدره . ستأتين ، أريدك ان تكوني لي : كيف للمرء ان يقول أشياء كهذه ؟ أنا لست كلباً .

عندها جلست وابتسمت له ، وغيرت المسحوق من أجله وكحلت عيني لانه يجب ذلك ، لكنه لم ير شيئاً ، فهو لا ينظر الى وجهي ، كان يتطلع الى نهدي ، فوددت لو انها يحفان فوق صدري لزعجه ، على كل حال فلست غنية بالنعيم ، فهما صغيران جداً . ستأتين الى دارتي في نيس . قال انها بيضاء ، درجها من المرمز ، وهي مشرفة على البحر ، وأنا سنعيش عارين طيلة اليوم ، سيكون الأمر طريفاً عندما يصعد الانسان الدرج بغير ثياب . سأرغمه على الصعود قبلي ، حتى لا ينظر الي . والا فلن أستطيع ان احرك رجلي ، بل سأظل مستمرة في مكاني متمنية من كل قلبي أن يصبح أعمى ، لكن هذا لن يبدلني . اذ أنه عندما يكون موجوداً أحس دائماً بعربي . أخذني بذارعي ، يبدو انه خبيث وقال لي : « انت في جلدي ! » وأنا كنت خائفة فقلت : « نعم » . اريد ان اصنع سعادتك ، سنذهب للزهوة في السيارة ، وفي المركب ، سنذهب الى ايطاليا وسأعطيك كل ما تريدين . لكن دارته ليست غنية بالاثاث فسننام على الارض في فراش . يريدني أن انام بين ذراعيه ، سأشم رائحته ؛ احب صدره كثيراً لانه صدر اسمر عريض ، لكن هناك كثيراً من الشعر فوقه ، أريد ان يكون الرجال بدون شعر ، شعره هو أسود ناعم كالزبد ، فلطالما دغدغتها ولطالما فزعت منها ، أتراجع قدر الامكان لكنه يشدني اليه . يريد ان انام بين ذراعيه وأشم رائحته . وعندما يأتي الليل ، نسمع ضجيج البحر ، وبامكانه أن يوقظني في منتصف الليل اذا اراد ان يفعل هذا : لن أستطيع ان انام مطمئنة ما لم تكن حوائجي لدي ، اذ يتركني وشأني وقتئذ ، ثم ان هناك رجالاً يقومون بهذا مع نسوة في دورتهن ، فتتلطخ بطونهم بالدم ، بدم ليس لهم ، سيلطخ الدم أيضاً الاغطية ، وكل مكان ، هذا شيء يدعو للاشمزاز ، لماذا ينبغي أن يكون لنا أجسام ؟

وفتحت لولو عينيهما ، كانت الستائر ملونة بالاحمر ، يلونها النور الآتي من الشارع ،

وفي المرآة كان خيال أحمر ، والكنبة انشطرت الى ظل على الحائط .
على ذراع الكنبة ، كان هنري قد ألقى سرواله ، وقميصه كان يتدلى في الفراغ .
علي ان اشترى له حزاماً للقميص . أوه ! لا اريد . لا اريد ان اذهب . سيقبلني
طيلة اليوم ، « وسأكون له » ، اصنع لذته ، وسينظر اليّ . سينكر « انها
لذتي ، لامستها هنا وهناك ، وبإمكانني ان اعيد الكرة عندما يروق الامر لي » .
في بور رويال ، رفست لولو الاغطية برجلها ، كانت تمقت بيار عندما تتذكر ما
جرى لها في بور رويال . كانت وراء السياج ، تظن ان بيار لا يزال في
السيارة ، يتفحص الخريطة ، وفجأة ابصرته ، ركض وراءها بخطى
الذئب ، كان ينظر اليها . رفست لولو هنري ، سيستيقظ .
لكن هنري شخر « هوم ف. ف. ف. » . ولم يستيقظ . اريد
ان أتعرف على شاب وسيم ، طاهر كالفتاة ، فلا يلامس أحدنا الآخر ،
ونتزّه على شاطئ البحر ، امسك بيده ويمسك بيدي . وفي المساء ننام كل في
سرير منفصل ، نظل كأخ واخت غارقين في حديث حتى الصباح . أو اني
أحب ان اضحك مع ريرات ، فما أحلى النساء فيما بينهن . كتفاها عريضتان
وسمينتان . كنت سعيدة جداً عندما كانت تحب فرسنييل ، لكن فكرة
دغدغته لها كان تهزني ، وكذلك يهزني ان يمر بيديه على كتفيها وعلى خاصرتيها
وان تتنهد . أتساءل كيف يمكن لوجهها ان يكون عندما تكون ممددة على
هذا الشكل ، عارية ، تحت رجل ، تحس بيدين تنقلان على لحمها . لن ألامسها
مقابل ذهب العالم كله ، فلن اعرف ما أفعله بها ، حتى ولو رغبت في ذلك
وقالت لي :

« حقاً اني اريد » . فلن اعرف ، لكنني لو كنت غير منظورة ، لأحببت
ان أراه يفعل هكذا معها ، ينظر الى وجهها (يدهشني ان تكون كمينرفا) ،
ويدغدغ بيد رشيقة ساقيها المنفرجتين ، وركبتيها الموردتين ، ويسمعها تتنهد .
وضحكت مينرفا ضحكة جافة : اذ يعترني المرء احياناً مثل هذه الافكار .

مرة أدعت بأن بيار يريد ان يغتصب ريرات . وساعدتها ، اخذت ريرات
بين ذراعي . امس . كان خداها شديدي الاحمرار ، كنا جالستين على ديوان ،
الواحدة قبالة الاخرى ، كانت ساقاها مضمومتين ، لكننا لم نقل شيئاً ، ولن
نقول شيئاً . بدأ هنري بالشخير وصفرت لولو . أنا هنا ، ليس بإمكانني ان
أنام ، سأفسد دمي ، وهو كان يشخر ، ذاك السمج . فلو أخذني بين ذراعيه
ولو رجاني ، ولو قال لي : « أنت لي بأكملك . لولو ، أنا احبك ، لا
تذهبي ! » سأقدم له هذه التضحية ، سأبقى نعم ، سأظل طيلة حياتي معه ،
طلباً لرضاه .

جلست ريرات على شرفة القبة وطلبت كأساً من البورتو . كانت متعبة ،
غاضبة من لولو .

« ... البورتو الذي قدموه فيه طعم الفلين ، ولولو لا يهمها الأمر فهي
تشرب القهوة ، لكنه ليس من المناسب أن تشرب القهوة في وقت المقبلات .
إنهم يشربون القهوة هنا طيلة اليوم أو القهوة مع الكريما لأنهم مفلسون ،
كم يزعجهم هذا الأمر ، أما انا فلا أستطيع ، بل اضرب جميع الحوانيت
برؤوس الزبائن ، فهم أناس لا يريدون الاستمرار . لا ادري لماذا تحدد لي
المواعيد في المونبارناس دائماً ، لا سيما وأنها لو حددت لي مواعييدها في مقهى
السلام أو البام بام ، لكان اقرب اليها ، وأبعد عن مكان عملي . لا أستطيع
أن اقول كم يحزنني ان ارى دائماً هذه الرؤوس ، ففي كل دقيقة لدي ، عليّ أن
آتي الى هذا المكان . لو كنت في الشرفة فلا بأس ، ولكن في الداخل
تفوح رائحة الثياب القذرة . وحتى على الشرفة احس بأني غريبة بين رجال
لا يخلقون ذقونهم ونساء لست أدري كيف هن . قد يقول أحدهم : « ما تراها
تفعل هنا ؟ » أعرف ان الاميركيات المثریات يؤمن المكان في الصيف ،
ولكن يبدو أنهن قد توقفن الآن في انكلترا مع حكومتنا ، لهذا فان تجارة
الكاليات ليست على ما يرام ، فقد بعث حتى الآن نصف ما بعته في السنة
الماضية . » واتساءل ماذا يفعل الآخرون ، لانني أنا البائعة الفضلى ، والسيدة

دوباش هي التي قالت لي هذا ،
فهي لم تكسب درهماً واحداً ،
يقضي المرء نهاره واقفاً على رج
يسمع فيه الموسيقى ، وليس الذ
لكن الخدم وقحون ، ، فهم يعاه
فهو لطيف . أظن ان لولو تسرّ عند
الذهاب الى مكان راق ، فهي ليست شديدة الثقة
كل رجل ذي عادات جميلة ، ولم تكن تحب لويس .
والرجال هنا فقراء يضعون غلايينهم في أفواههم ، ولا
الشرهة ، وإن كان يبدو عليهم أنهم لا يستطيعون دفع اجرة النس
إنهم يتطلعون بشراهة ، وليسوا قادرين على أن يقولوا للمرأة بأسلوب لطيف
يأنهم يرغبون فيها .

واقترب الخادم :

- تريد البورتو الصرف يا آنستي ؟

- نعم . شكراً .

- يا له من وقت جميل .

فقال ريرات :

- ليس الوقت مبكراً !

- حقاً ، حتى انه بإمكاننا ان نقول ان الشتاء لن ينتهي أبداً .

وذهب ، فتبعته ريرات بعينها . وقالت في نفسها « أحب هذا الصبي
كثيراً ، انه يحسن الوقوف في مكانه ، ولا يتعدى حدوده ، لكن له دائماً
كلمة يقوله لي ، ليعيرني انتباهاً خاصاً . »

كان رجل نحيل مقوس الظهر ينظر اليها بامعان . فهزت ريرات كتفيها وأدارت ظهرها : « إذا أراد الرجل ان يغازل المرأة ، فعليه على الأقل ان ينظف ثيابه . سأجيبه بهذا اذا وجه لي الكلام . واتساءل لماذا لا تذهب . إنها لا تريد أن تؤذي هنري ، هذا جميل جداً : فليس للمرأة الحق بأن تفسد حياتها من أجل رجل عاجز » . كانت ريرات تحتقر الرجال العاجزين . وقررت في نفسها : « عليها ان تذهب ، فإن مسألة سعادتها في الميدان ، سأقول لها بأنه لا يجب ان تضع سعادتها على كف عفريت . لولو ، ليس لديك الحق بأن تتلاعي بسعادتك . سوف لا أقول لها شيئاً ، لقد انتهت القضية ، وقلت لها مرة انه ليس بالامكان اسعاد الآخرين رغماً عن إرادتهم » . واحست ريرات بفراغ كبير في رأسها ، كانت شديدة الابعياء ، تنظر الى شراب البورتو المائع في كأسها ، وكأنه نوع من الحلوى السائلة ، ويتردد في ذهنها صوت يقول : « السعادة ، السعادة » لقد كانت كلمة عذبة رصينة وفكرت بأنه لو طلب اليها رأيها في مباراة باريس سوار ، لقاتلت ان تلك الكلمة هي أجمل ما في اللغة الفرنسية . « فهل فكر فيها أحد ؟ » ذكروا : الطاقة ، والشجاعة ، ذلك لأنهم رجال ، أما لو كانت هناك امرأة ، فهي التي تستطيع ان تأتي بتلك الكلمة . كان من الواجب تخصيص جائزتين ، واحدة للرجال فتكون كلمة « شرف » ، وأخرى للنساء فأربح اذا قول : « سعادة » . فالشرف والسعادة يتلاءمان ؛ واسم كهذا ممتع . سأقول لها : « لولو لا يمكنك ان تتخلي عن سعادتك . سعادتك يا لولو . » سعادتك » . انا شخصياً اجد بيار ممتازاً ، فهو انسان طيب أولاً ثم انه ذكي ، وهذا لا يفسد شيئاً ، ولديه دراهم ، وسيظل دائم الاهتمام بها . إنه من أولئك الرجال الذين يعرفون كيف يذللون صعوبات الحياة ، وهذا ما يلائم المرأة . احب حسن القيادة كثيراً ؛ لكنه يحسن الكلام مع الخدم وموظفي الفنادق ، فهم يطيعونه ولعل هذا ما ينقص هنري . ثم ان هناك اعتبارات صحية ، فلولو عليها ان تنتبه ، فإن كان جميلاً ان تظل المرأة رقيقة شفافة والا تشعر بالجوع او

النحاس . لكن هذا امر لا واع ، اذا انها بحاجة لاتباع نظام غذائي ، فلا بأس اذا أكلت قليلاً في المرّة الواحدة ولكن عليها أن تقوم بهذا عدة مرات . ستتحسن صحتها لو أرسلت الى المصح طيلة عشر سنوات .

وثبتت نظرها حائرة على ساعة جادة مونبارناس الكبيرة ، التي تشير عقاربها الى الحادية عشرة وعشرين دقيقة .

« أنا لا افهم لولو ، فهي ذات مزاج غريب ، لم استطع ابداً ان اعرف ما اذا كانت تحب الرجال ، او انهم يشيرون اشمئزازها : ومن الواجب مع ذلك ، ان تكون على وفاق مع بيار ، وهذا ما يغيرها قليلاً عما كانت عليه في السنة الماضية . »

لقد تمتعت بهذه الذكرى ، لكنها كتمت ابتسامتها لأن الشاب النحيل كان لا يزال ينظر اليها ، إذ انها فاجأته وهو ينظر اليها وهي تدير رأسها .

كانت رابو ذات وجهه مثقوب بنقط سوداء ، وكانت لولو تعبت بهذه البثور اذ تضغط على جلدها بالأظافر . « هذا مؤلم ، ولكن ليست هذه غلطتها ، فلولو لا تعرف ما هو الرجل الجميل ، اما انا فأعبد الرجال المتحذلقين ، وقضايهم تبعث في النفس السرور ، قمصانهم ، أحذيتهم ، ربطات أعناقهم . إنه شيء قاس ، لكنه لذيذ ؛ وقوي ، له قوة عذبة . كرائحة التبغ الانكليزي الذي يدخنونه ، وكرائحة العطر ، ورائحة جلدهم عندما يخلقون ذقونهم . ليس . . . ليس جلدهم كجلد المرأة ، فكأنه جلد من قرطبة . وتنقض عليك أذرعهم القوية ؛ نضع الرأس على صدورهم ، فنحس برائحتها ، رائحة الرجولة . ويتستمون لك كلمات عذبة . لديهم اشياء جميلة ، أحذية قاسية من جلد البقر ، ويهمسون في أذنك : « يا عزيزتي ، يا عزيزتي الرقيقة . » فنحس بأجسامنا تنهد ؛ وفكرت ريرات بلويس الذي هجرها في العام الماضي فانعصر قلبها : « رجل يحب نفسه ولديه الكثير من العادات الصغيرة . وافضل من ذلك رجل في الأربعين ، رجل يعتني بنفسه ، رد الى الوراء ، شعره الذي

غزاه الشيب في الصدغين ، يكون عريض المنكبين ، رياضياً ، لكنه يعرف الحياة حق المعرفة ، وله قلب طيب لأنه أجرى تجربة الألم . ليست لولو سوى صبية صغيرة ، حالفها الحظ فكانت لها صديقة مثلي ، لأن بيار بدأ يمل . فلو ان واحدة كانت في مكانها لعرفت كيف تستفيد . وعندما يكون رقيقاً . معي اظهر بعدم الانتباه ، وابدأ بالحديث عن لولو ، فأجد دائماً كلاماً يرفع من شأنها ، غير انها لا تستحق ما لها من حظ ، انها لا تعني ، أتمنى لها ان تعيش قليلاً بمفردها كما عشت منذ ان ذهب لويس ، فسترى ما تعني . عودتها وحيدة الى البيت في المساء ، بعد عناء اليوم ، لترى الغرفة خاوية ، فتموت من شدة رغبتها في الارتقاء على ذراع رجل . ولعلنا نتساءل اين نجد الشجاعة على النهوض صبيحة اليوم التالي ، بغية العودة الى العمل ، مع المحافظة على الاغراء والفرح . في الوقت الذي نفضل فيه الموت على حياة كهذه ... »

ودقت الساعة الحادية عشرة والنصف . كانت ريرات تفكر بالسعادة ، بالعصفور الازرق ، بعصفور السعادة ، بعصفور الحب الثائر . وقفزت من مكانها : « تأخرت لولو ثلاثين دقيقة ، وهذا أمر عادي . فهي لن تهجر زوجها قط ، وهي لا تملك إرادة الإقدام على عمل كهذا . في الواقع انها تبقى مع هنري بدافع الاحترام : انها تخوفه ولكن ذلك لا يهم طالما ان الناس ينادونها بقولهم « سيدتي » . لقد فعلت كل شيء من أجلها ، وقلت لها كل ما يجب ان أقوله ، فتبأ لها . »

وتوقفت سيارة أمام القبة ، وترجلت لولو منها . كانت تحمل حقيبة ضخمة ، على وجهها مسحة الوقار . وصاحت من بعيد :

— لقد هجرت هنري .

واقتربت ، مقوسة الظهر تحت عبء حقيبتها . وكانت تبتمس .
فقالت ريرات مدهوشة :

— كيف يا لولو ؟ الا تريد ان تقولي ...؟

فقال لولو :

— نعم ، انتهى كل شيء ، لقد رميته .

فقال ريرات وهي لا تزال على سذاجتها :

— وهل عرف هذا ؟ هل قلت له ؟

فبدا الغضب في عيني لولو وقالت :

— وكيف !

— حسناً . يا لولو الصغيرة !

وافترضت ريرات ان لولو كانت بحاجة للتشجيع فقالت لها :

— يا له من فعل حسن لقد كنت في غاية الشجاعة .

وأرادت ان تضيف قائلة : رأيت ان هذا لم يكن صعباً . لكنها تماكنت
نفسها . بينما كانت لولو تتلقى الأعجاب : كان خداهما محمرين ، وعيناها
متأججتين . جلست ووضعت حقيبتها الى جانبها ، كانت ترتدي معطفاً من
الصوف الرمادي يشده قشاط جلدي وكنزة صفراء فاتحة ذات عنق مبروم .
وكانت مكشوفة الرأس : لقد أدركت في الحال هذا المزيج من الملامة والتسلية ،
هذا المزيج الذي عرفت به . كانت لولو توحى لها دائماً بهذا الأثر . وصمت
ريرات على القول : « ان ما احبه فيها هي حيويتها » .

وقالت لولو : لقد قلت له كل ما شعرت به .

فقال ريرات :

— لن اعود عنه ، ولكن ما هو الذي حدا بك الى هذا يا عزيزتي لولو ؟
هل اكلت من لحم الأسد ، مساء امس . كنت مستعدة لأن اقطع رأسي لو لم
تتركه .

— ذلك بسبب أخي الصغير . أريد ان يكون عليّ رئيساً ، ولكنني لا

أقبل بأن يس عائلتي ابدأ .

- ولكن كيف تم ذلك ؟

فقلت لولو وهي ترتعد فوق كرسيها :

- أين الصبي . إن صبيان مقهى القبة ليسوا دائماً حاضرين عندما ينادونهم .
انه الأسمر الصغير الذي يخدمنا ؟

فقلت ريرات :

- نعم ؟ هل تعرفين انني سيطرت عليه .

- كيف ؟ عليك ان تحذري من امرأة المغاسل ، فهو يعيش دائماً الى
جانبها . يغازلها ، ولكن هذا ان هو الادعاء ليرى النساء تدخل الغرف الصغيرة .
وعندما يخرجن ، ينظر الى اعينهن حتى تحمر وجوههن . وبالمناسبة ، انني ،
اعطيكم مهلة دقيقة ينبغي ان انزل واتصل ببيار ، لأنه سينغضب ! واذا رأيت
الصبي ، اطلبي لي فنجاناً من القهوة مع الكريمة . سأغيب دقيقة ثم أعود
واخبركم بكل شيء .

ونهضت ، ثم خطت عدة خطوات وعادت الى ريرات .

- انا سعيدة جداً يا عزيزتي ريرات .

فقلت ريرات وهي تمسك بيدها :

- يا لولو العزيزة .

وافلتت لولو يدها واجتازت الشرفة بخطى وثيدة ونظرت اليها ريرات
وهي تبتمد . « لم اكن لأظن انها قادرة على مثل هذه الأمور . وفكرت
في نفسها : كم هي سعيدة . وإن كانت تؤاخذ نفسها قليلاً . ولو سمعت مني
لأقدمت على ذلك منذ مدة طويلة . على كل حال فان لي فضلاً في ذلك . في
الواقع ، انني أوثر عليها أشد التأثير .

وعادت لولو بعد لحظات وقالت :

بيار كان جالساً . يريد تفاصيل حسنة ، وسأعطيه هذه التفاصيل في الحال ، سأتناول طعام الغداء معه . قال إنه بالامكان أن نذهب غداً مساء .

فقال ريرات :

– كم أنا سعيدة يا لولو . اخبريني بسرعة . هل قررت ذلك هذه الليلة بالذات ؟

فقال لولو بتواضع :

– أنا لم اقرر شيئاً ، فالأمر تقرر تلقائياً . ونقرت على الطاولة بعصبية :
« يا صبي ! يا صبي ! انه ليزعجني هذا الصبي ، أريد فنجان قهوة مع الكريما » .

دهشت ريرات : فلو كانت في مكانها ، تواجه أشياء خطيرة لما اضاعت وقتها في الركض وراء القهوة مع الكريما . لولو امرأة جذابة ، ولكن كم هي تافهة في بعض الأحيان . انها عصفور .

وضحكت لولو :

– لو رأيت هيئة هنري !

فقال ريرات برصانة :

– اتساءل ما يمكن ان تقول والدتك .

فقال لولو باطمئنان :

– امي ؟ ستكون سعيداً جداً . كان سيء الخلق معها ، وقد ضاقت ذرعاً به حتى الآن . كانت تتهمه بأنه أساء تهذيبي ، وانني كنت كذا وكذا ، وانني تعلمت ثقافة من الدرجة الأخيرة . هل تدرين ان كل ما فعلته هو بسببها ؟

– ولكن ماذا جرى بالفعل ؟

- لقد صفع روبير .

- اذا فروبير أتى الى بيتك .

- نعم . عندما مرّ بنا هذا الصباح ، اذ ان والدتي تريد أن تعلمه عند غومبيز . اظن إنني اخبرتك بذلك . لذا مرر ببيتنا وكننا نتناول طعام الفطور ، فصفعه هنري .

وسألت ريرات بانزعاج ، لانها كانت تكره الشكل الذي كانت لولو تسرد به قصتها :

- ولكن لماذا ؟

فقالت لولو بغموض :

- تبادلنا بعض الكلمات ، ولم يسكت الصغير عنها لقد . قابله بعناد . وقال له في وجهه « أيها الوسخ العجوز . وذلك لأن هنري قد نعته بقلة الأدب طبعاً ، فهو لا يعرف سوى التفوه بهذه الكلمات . عندها نهض هنري ، وكننا نتناول طعام الفطور في الستوديو ، وصفعه صفقة واحدة ، فوددت لو اقتله .

- عندها ، ذهبت ؟

فقالت لولو مدهوشة :

- ذهبت ؟ الى اين ؟

- ظننت بأنك تركته في تلك اللحظة بالذات . اصغني ، يا لولو الصغيرة ، عليك ان تخبريني القصة بالتسلسل ، وإلا فلن أفهم منها شيئاً .

وأضافت وقد ساورها الشك :

- قولي ، هل هجرته فعلاً ، هل هذا صحيح ؟

- أجل ، وها انا اشرح لك القصة منذ ساعة .

- حسناً ، صفع هنري روبير ؟ وبعدها ؟

فقال لولو:

- وبعدها : احتجزته =
يرتدي ثياب النوم ، وهو ينقر
كالقملة. أما ، اناقلو كنت موجود
بالدم . وتخاصمنا . وابتسم لي
ويعر الصبي ، فتمسكه لولو

- إذا ، ها انك اتيت اخيرا ايها الصبي ؟ هلا
فنجانا من القهوة مع الكريما !

كانت ريرات مزعوجة لكنها ابتسمت للصبي ابتسامة مسايرة
الصبي فظل مكفهر الوجه والنحنى انحناءة ملؤها اللوم ، ريرات كرهت
بعض الكره . لم تكن لتستطيع أبداً ان تحسن لهجتها مع من هو دونها ،
فتارة ما تكون شديدة المسايرة ، وطوراً جافة جداً .

وبدأت لولو بالضحك .

« اضحك لاني أرى هنري بثياب النوم على الشرفة ، كان يرتجف من البرد .
هل تدرين ماذا فعلت حتى اطبقت عليه ؟ كان في طريق الستوديو ، وروبير
يبكي ، ويقسم . وفتحت النافذة وقلت : « انظر يا هنري ! هناك سيارة
صدمت بائعة الزهور » . فجاء بالقرب مني : انه يجب بائعة الزهور كثيراً
لاني قالت له انها سويسرية ويظن انها تعشقه . « اين حدث هذا ؟ أين ؟ »
وانسحبت على مهل ، وعدت الى الغرفة واقفلت النافذة . وصحت فيه من
وراء الزجاج :

« ستتعلم ألا تكون متوحشاً مع اخي » . تركته اكثر من ساعة على
الشرفة ، كان ينظر الينا بعينين مدورتين ، وقد أزرق لونه من الغضب . أما أنا
فمددت له لساني واعطيت روبر ملبساً ، وبعدها ، حملت اشياي الى الستوديو

وارتديت ثيابي أمام روبير لاني اعلم أن هنري يكره هذا : كان روبير يقبل ذراعي وعنقي وكأنه رجل ، انه جذاب . تصرفنا كما لو أن هنري كان غائباً . ونسيت أن اغتسل .

فقالت ريرات وقد انفجرت ضاحكة :

— هذا مضحك جداً .

وانقطعت لولو عن الضحك وقالت مجدية :

— اخشى أن يكون قد برد كثيراً ، فالمرء لا ينتبه في حالات غضبه . وتابعت بسرور : كان يمد لنا قبضة يده ويتكلم طيلة الوقت ، لكنني لم افهم نصف ما كان يقوله . ثم ذهب روبير وجاء من يراه على تلك الحال فقلت لهم : انظروا الى زوجي ، زوجي العزيز الكبير ، إذا كان يشبه سمكة في مسبح ؟ فحياه هؤلاء من خلال الزجاج مدهوشين .

فقالت ريرات ضاحكة :

زوجك في الشرفة والناس في الستوديو . أرادت ان تبحث عن كلمات مضحكة وملونة لكي تشرح المشهد للولو ، وفكرت بأن لولو لا تعرف معنى الضحك . ولكن الكلمات لم تأتيا .

فقالت لولو :

— وفتحت النافذة فدخل هنري . وقبلني على مرأى منهم . وأخذ يمازحني ، انه يريد ان يمثل معي دوراً ، وابتسمت . وابتسم الجميع . لكنهم عندما ذهبوا ، لطمني بقبضة يده على أذني . عندها اتيت بفرشاة وألقيت بها على زاوية فمه . فانشقت شفتاه .

فقالت ريرات بحنو :

— يا لولو المسكينة .

لكن لولو دفعت بجررتها كل مسايرة . وانتصبت وعلى سياتها الغضب ،
بينما راحت عينها تشعان كالبرق :

— عندها افصحنا عن كل شيء . غسلت شفثيه بمنشفة ، وقلت له انني ضقت
به ذرعاً ، وبأنني لا أحبه ، وأريد الذهاب . فأجهش بالبكاء وقال انه
سيقتل نفسه . لكن احابيله لم تعد تنطلي عليّ : هل تذكرين يا ريرات ، في
السنة الماضية أثناء المناوشات مع الريثاني ، كان يقول لي في كل يوم : ستقع
الحرب . لولو ، سأذهب وأموت ، وستأسفين عليّ ، وستندمين علي كل
ما أقدمت عليه تجاهي . ما « يهم لو قلت له انك عاجز » . ومع ذلك ،
هدأت من روعه ، لأنه فكر بأن يقفل عليّ الباب في الستوديو ، فاقسمت له
بأنني لن اذهب قبل شهر . بعدها ، حضر الى مكتبه ، وكانت عيناه حمراوين ،
ولم يكن جميلاً . أما انا ، فقممت بأعمال البيت ، وضعت العدس على النار
وأحضرت حقيبتني . وتركت له خطاباً على طاولة المطبخ :

— ماذا كنت تكتبين له ؟

فقال لولو بفخر :

— كتبت قائلة : العدس على النار . تناول طعامك واطفئ الغاز . لحم
الخنزير المجفف في البراد . اما انا فضقت ذرعاً . الوداع .

وضحكت الاثنتان معاً بقوة حتى التفت صوبها المارة . وفكرت ريرات
بأن منظرهما سيكون جذاباً وندمت على عدم جلوسها في شرفة الفيال او في مقهى
السلام . ولما فرغتنا من الضحك ، سكنتنا ، ورأت ريرات انه لم يبق شيء
يستحق الذكر . فاحست ببعض الحيرة .

فقال لولو وهي تنهض :

— علي أن انقذ نفسي . سألاقي بيار ظهراً . ماذا ينبغي ان افعله

بحقيبتني ؟

فقلت ريرات :

- اتركيها لي ، سأسلمها في الحال الى امرأة المغاسل . متى أراك ثانية ؟
- سأاتي لآخذك من بيتك في الساعة الثانية ، فلدي الكثير من الأعمال
بصحبتك : فأنا لم آخذ سوى نصف أغراضي ، يجب على بيار أن يعطيني
نقوداً .

وذهبت لولو ، فنادت ريرات الخادم . أحست بأنها شديدة الوقار
والحزن . وأسرع الصبي : لاحظت ريرات بأنه يأتي مسرعاً عندما تناديه هي .
وقال لها :

- خمسة فرنكات . وأضاف بهيئة جافة :

كنتا مسرورتين معاً ، فقد سمع ضحكنا الى تحت .
وفكرت ريرات بتأن :
« لعل لولو مست شعوره » .

وقالت بعد ان احمر وجهها :

- صديقتي عصبية المزاج هذا الصباح فقال الصبي :
- انها جذابة . اشكرك يا آنستي .

ووضع في جيبه الفرنكات الستة وذهب . ودهشت ريرات بعض الدهشة
وفكرت بأن هنري سيعود الى بيته ويعثر على خطاب لولو : كانت لحظة
مفعمة بالسعادة بالنسبة اليها .

قالت لولو لأمينة الصندوق :

- أريد ان يرسل كل هذا قبل مساء الغد الى فندق المسرح في شارع
فاندام . ثم اتجهت نحو ريرات :

- كفى يا ريرات فسنضعها هنا .

فقلت امينة الصندوق :

— ما هو الاسم ؟
— مدام لوسيان كرسبان .

وألقت لولو معطفها على ذراعها وراحت تركض . ونزلت راكضة درج السامارتان . كانت ريرات تتبعها . كادت تقع عدة مرات لأنها لم تكن تنظر الى رجليها . لم تكن تنظر لسوى الطيف الأزرق والاصفر الهادىء الذي كان يرقص أمامها ! « صحيح أن لها جسماً بعيداً عن الحشمة » . في كل مرة كانت ريرات ترى فيها لولو من الخلف أو جانبياً ، تقف مشدوهة أمام جسمها غير المحتشم بدون ان تشرح لنفسها السبب . انه انطباع . « انها رقيقة لينة ، لكن فيها شيئاً بعيداً عن الحشمة ، فلن اتخلى عن هذه الفكرة . تقول انها تخجل من مؤخرتها وهي ترتدي « التنورة » الضيقة التي تبرز تلك المؤخرة . إن مؤخرتها صغيرة ، اصغر من مؤخرتي بكثير ، لكنها بارزة أكثر . فهي مستديرة من تحت كليتيها الهزيلتين ، وهي تملأ التنورة تماماً . ثم إنها تحسن الرقص .

واستدارت لولو ، وتبادلنا الابتسام . فكرت ريرات يحسم صديقتهما الفاضح بنوع من عدم الرضى : نهدان ناهضان ، ولحم مصقول احمر — حين يلامس يظن انه صنع من المطاط وساقان طويلتان ، وقامة مديدة ، وأطراف طويلة . وفكرت ريرات في نفسها : « انه جسم زنجية ، فهي تشبه زنجية ترقص الرمبا » . قرب الباب لاحظت ريرات صورتها تنعكس ، وفكرت في نفسها ، وهي تمسك بذراع لولو : « انا رياضية اكثر من لولو ، لكنها ابلغ أثراً مني عندما نكون لابستين ثيابنا ، ولكنني اجمل منها عارية » .

وظلنا للحظة صامتتين ، ثم قالت لولو :

— بيار كان جذاباً . انت ايضاً كنت جذابة يا ريرات ، فأنا اشكركما انما الاثنتين .

قالت هذا بلهجة المتضايقة ، لكن ريرات لم تنتبه لها ، لم تعرف لولو قط

ان تشكر ، فقد كانت شديدة الخجل .

واضافت لولو فجأة : « هذا يزعجني ، ولكن عليّ ان اشترى صدرية » .

فقال ريرات : - من هنا ؟ فخذ كائنا تمان امام دكان لبيع الثياب .

- كلا . تذكرت لانني رأيت . وبالنسبة للمصداري فأنا اقصد محل

فيشر . وهدفت ريرات :

- من جادة مونبارناس ؟ وقابعت كلامها بجدية :

- اصغي يا لولو ، عليك الا تترددي كثيراً على جادة المونبارناس خصوصاً

في هذه الساعة : سيقع نظرنا على هنري ، وهذا أمر مزعج .

وقالت لولو وهي تهز كتفيها .

- على هنري . كلا . لماذا ؟

واستبد الغضب بريرات فاحمر خداهما وصدغاهما :

- انت لا تزالين على حالك يا لولو الصغيرة ، فحين لا يروق الأمر لك ، تعمدين

الى نفيه ، بكل سهولة . أنت ترغبين في الذهاب الى محل فيشر ، فتؤكدين لي

ان هنري لا يمر في جادة المونبارناس . وانت تعرفين حق المعرفة انه يمر من

هناك ، كل يوم في السادسة ، فهذا هو طريقه . وانت التي قلت لي ذلك

بنفسك : فهو يصعد في شارع الرين وينتظر في زاوية جادة رسباي .

فقال لولو :

- أولاً ، ليست الساعة الخامسة الآن ثم انه ، قد يكون غائباً عن

مكتبه : فبعد الكلمة التي وجهتها اليه لا بد وان يعمد للراحة .

فقال ريرات فجأة :

- ولكن يا لولو ، هناك محل آخر لفيشر ، ليس بعيداً عن الأوبرا في

شارع الرابع من ايلول .

فقال لولو بوجه عديم الارادة :

- نعم يا لولو ، ولكن علينا ان نذهب الى المحل الاول .
- آه ! كم انني احبك يا صغيرتي لولو ؟ ينبغي ان نذهب الى المحل الأول؟
لكن هذا المحل على بعد خطوتين ، فهو أقرب بكثير من جادة المونبارناس .
- لا احب ما يبيعونه هنا .

وفكرت ريرات في نفسها بأن جميع محلات فيشر تبيع الاصناف نفسها .
لكن لولو كانت تصر اصراراً لا يفهم . فهنري هو آخر من ترغب في رؤيته في
الدنيا في هذا الوقت ، ومع ذلك فهي تتصرف وكأنها تريد ان ترتقي
عند رجله .

وقالت باصرار :

- حسناً ، فلنذهب الى مونبارناس ، وعلى كل حال فان هنري فارغ الطول
وسنراه قبل ان يرانا .

وتابعت لولو :

- ثم ماذا ؟ اذا صادفناه ، نكون قد صادفناه وكفى ، فلن يأكلنا .
اصرت لولو على بلوغ مونبارناس مشياً . قالت إنها بحاجة لتنشق الهواء .
أخذتا طريق السين ، ثم شارع الأوديون وشارع فوجيرار . وامتدحت ريرات
صفات بيار وبينت للولو كيف انه كان رائعاً في هذه الفرصة .

فقالت لولو :

- كم احب باريس ، سأسف عليها كثيراً .
- اسكتي يا لولو ، سنحت لك الفرصة بالذهاب الى نيس وتندمين على
ايام باريس .

لم تجب لولو بشيء ، بل أخذت تنظر ذات اليمين وذات اليسار بهيئة
حزينة تامة .

وعندما خرجتا من محل فيشر كانت الساعة تشير الى السادسة .

اخذت ريرات لولو بكتفها وأرادت ان تسير بها بأقصى سرعة . لكن لولو توقفت أمام محل بومان بائع الورود .

– انظري الى هذه النباتات الصحراوية يا صغيرتي ريرات . فلو كانت عندي قاعة استقبال كبيرة ، لوضعت هذه النباتات في كل مكان فيها .

فقال ريرات :

– أنا لا احب الورود في الخبز . كانت ساخطة . وأدارت وجهها ناحية شارع الرين ، فرأت بالطبع ، طيف هنري الطويل . كان مكشوف الرأس يرتدي سترة عادية بلون كستنائي . وريرات تكره هذا اللون .

وقالت على عجل :

– ها هو يا لولو . ها هو .

فقال لولو :

– أين ؟ أين هو ؟

لم تكن اكثر هدوءاً من ريرات .

– انه وراءنا على الرصيف الآخر . فلنذهب ولا نتطعم الى الورا .

واستدارت لولو رغم ذلك الى الورا وقالت :

– ها انني أراه .

حاولت ريرات أن تجرّها لكنها تجمدت ، واخذت تنظر بامعان نحو

هنري . وقالت أخيراً :

– أظن انه رأنا .

وظهر عليها الخوف فأطاعت ريرات وتابعت طريقها .

فقال ريرات لاهثة :

– والآن بحق السماء يا لولو ، لا تنظري الى الورا . سندور في الشارع

التالي نحو اليمين ، انه شارع دلامبر .

كانتا تسيران على عجل وتدفعان المارة . كانت لولو تتباطأ حيناً ، وتجرجر

ريرات حيناً آخر . وقبل ان تصلا الى زاوية شارع دلامبر حتى أبصرت ريرات ظلاً اسمر وراء لولو . ففهمت أنه هنري كان وبدأت ترتجف من الغضب . أما لولو فظل جفناها منخفضين ، وعليها سياء الممالة . « انها تأسف لقلة درايتها لكن الوقت متأخر ، فلتحسن النتائج » .

وحثنا الخطى . فتبعها هنري بدران ان يقول كلمة واحدة . وقطعتنا شارع دلامبر وتابعتا المسير في اتجاه المرصد . كانت ريرات تسمع قرقرة حذاء هنري ، كما تسمع نوعاً من الحشرة المتقطعة . كان لهاث هنري . (هنري لهاثه قوي منذ البداية ولكن ليس الى هذا الحد : إذ انه ركض حتى لحق بها او انه اثر الانفعال) .

وفكرت ريرات . ينبغي أن نتصرف كما لو انه ليس هنا . وان نتجاهل وجوده . لكنها لم تستطع عدم النظر اليه بطرف بصرها . كان أبيض كقطعة القماش البيضاء ، يخفض حاجبيه الى الأرض وكأنه يغمض عينيه . وفكرت ريرات في نفسها بنوع من الخوف : « لعله مروبص » كانت شفتا هنري ترتجفان ، وعلى شفته اليمنى قطعة من القماش الناعم ترتجف معه أيضاً . ولهاثه ، لهاثه الذي ظل على حاله مبجوحاً ، بات ينتهي الآن بنوع من الموسيقى التي تنبعث من المنخرين . احست ريرات بالضيق : لم تكن لتخشى هنري لكن المرض والعاطفة يخيفانها الى حد ما . وما هي الا لحظة ، حتى قرب هنري يده برفق وبدون ان يتطلع وأمسك بذراع لولو . فقلبت لولو فمها وكأنها تهم بالبكاء وافلتت ، منه مرتعشة فقال هنري :

- بوف ه . . . ه .

واعترت ريرات رغبة جامحة في التوقف . لكن لولو كانت تركض . فهي أيضاً تبدو وكأنها مروبصة . وفكرت ريرات انها لو افلتت ذراع لولو وتوقفت لاستمررا في مسيرهما جنباً الى جنب ، ابكين ، شاحبي اللون كأموات مغمضي الأعين .

بدأ هنري بالكلام ،
قال بصوت مضحك مبحوح :
— عودي معي .
لم تردّ لولو عليه . فتابع هنري بنفس الصوت المبحوح :
— انت زوجتي . عودي معي .
فقال ريرات من بين اسنانها :
— انت تری تماماً انها لا تريد العودة . فدعها وشأنها .
ولم يبد انه سمعها . بل اخذ يكرر :
— انا زوجك وأريد ان تعود معي .
فقال ريرات بصوت حاد :
— أرجوك ان تتركها وشأنها ، فلن تكسب شيئاً بازعاجها على هذه
الصورة . اذهب من هنا .
فأدار نحو ريرات وجهها مدهوشاً وقال :
— انها زوجتي ؛ انها لي . وأريد ان تعود معي .
تمسك بذراع لولو ، ولولو لم تفلت هذه المرة . فقالت ريرات :
— اذهب من هنا .
— لن اذهب . سأتبعها الى اي مكان ، اريد ان تعود الى المنزل .
كان يتكلم بعناء . وفجأة كشر عن اسنانه وصرخ بكل قواه :
— انك لي !

فاستدار بعض الناس نحوه ضاحكين . بينما كان هنري يهز ذراع لولو
مهمماً كحيوان وهو يزم شفتيه . ومن حسن الحظ ، مرت سيارة فارغة .
أشارت لها ريرات بالوقوف . فوقف هنري ايضاً . وأرادت لولو ان تتابع
مشيتها فشدّها كل منها بذراع .

فقال ريرات وهي تجر لولو نحو الطريق :
— ينبغي ان تفهم انه ليس بالامكان ان تعود اليك بوسائل العنف هذه

فقال هنري وهو يجرها باتجاه معاكس :

- اتركيها ! اتركي زوجتي .

كانت لولو رخوة كحزمة القماش .

وصاح السائق :

- هل تريدون الصعود أم لا ؟

وتركت ريرات ذراع لولو وامطرت يد هنري بوابل من الضربات . غير انه لم يكن يحس بها . وما هي إلا هنيهة حتى تركها وراح ينظر نحو ريرات كالمعتوه . نظرت اليه ريرات ايضاً . كانت تجد صعوبة في استجماع افكارها ، كما اجتاحتها ألم عميق . بقيا على هذه الحال لعدة ثوان . كان كلاهما يلهث . ثم عادت ريرات لتتالك نفسها ، فامسكت لولو وجرتها الى السيارة .

فسأل السائق :

- الى اين نذهب ؟

وتبعها هنري . كان ينبغي ان يستقل السيارة معها .

لكن ريرات دفعته عنها بكل قواها واغلقت الباب بعنف . وقالت للسائق :

- هيا اذهب ، سندلك على العنوان فيما بعد .

وسارت السيارة ، فتراخت ريرات في وسطها . وفكرت في نفسها :

« يا للدناءة ! كانت تكره لولو . »

وسألت بعدوبة :

- الى اين تريدان الذهاب ، يا صغيرتي لولو ؟

ولم تجب لولو . فأحاطتها ريرات بذراعها وقالت بلهجة مقنعة :

- عليك ان تجيبيني . أتريدان ان اضعلك عند بيار ؟

وقامت لولو بحركة اعتبرتها ريرات دالة على الاذعان . وانحنت الى الامام :

- ١١ شارع الماسين .

ولما عادت ريرات الى وضعها السابق ، كانت لولو تنظر اليها بوجه

غريب .

وبدأت ريرات .

- ما الذي ...

فصاحت لولو :

- انني اكرهك . وأكره بيار ، وأكره هنري . ماذا تريدون مني جميعاً؟
انكم تعذبونني .

وتوقفت على عجل واضطربت جميع ملاحظها . فقالت ريرات بوقار
هاديء :

- ابكي ، ابكي ، فسينفك البكاء .

وانطوت لولو على نفسها واخذت تبكي . فأخذتها ريرات بذراعيها
وضمتهما الى صدرها . كانت تداعب شعرها من وقت لآخر . لكنها كانت تحس
في داخلها بالبرود والاحتقار . ولما توقفت السيارة ، كانت لولو هادئة . فمسحت
عينها ووضعتم المسحوق على وجهها . وقالت بلطف :

- اعذريني ، كنت متوترة الأعصاب . لم أكن اطيع رؤيته على تلك الحال ،
لقد كان يؤذيني .

فقالت ريرات وقد عاودتها البشاشة :

- كان يشبه الأورانج أوتانج .

وابتسمت لولو .

وسألته ريرات :

- متى أراك ثانية ؟

- أوه ، ليس قبل الغد . أنت تعرفين ان بيار لا يستطيع ايوائي بسبب
أمه ؟ فأنا في فندق المسرح . بإمكانك ان تأتي في وقت مبكر ، نحو الساعة
التاسعة ، اذا كان هذا لا يزعجك ، لأنني ذاهبة لمقابلة أمي بعد ذلك .

كانت بيضاء شاحبة ، وفكرت ريرات بكآبة بالسهولة التي تتفكك بها
ريرات وقالت :

- لا تشغلي بالك كثيراً هذا المساء .

فقال لولو :

— أنا متعبة جداً ، وأتمنى ان يتركني بيار لأعود في ساعة مبكرة . لكنه لا يفهم هذه الأمور .

وأبقت ريرات السيارة بانتظارها لتقتادها الى بيتها . وفكرت للحظة بأنها ستذهب الى السينما لكنها لم تعد تتحمل ذلك . فألقت قبعتها على كرسي ومشت خطوة نحو النافذة . لكن السرير كان يحتد بها ، ببياضه ، وعذوبته ، وليونته . فهل تقفز فوقه لتستمتع بمداعبة الوسادة على خديها المحترقين . « انا قوية ، فأنا التي فعلت كل شيء من اجل لولو والآن أراني وحيدة ليس بوسع احد ان يفعل شيئاً من أجلي » . كانت تشفق على نفسها كثيراً ، ولشدة شفقتها تصاعدت الى حنجرتها زحمة الدموع . « سيذهبان الى نيس وسوف لا أراهما بعد الآن . فأنا الذي صنعت سعادتهما ، لكنهما لن يفكرا بي . وأنا اظل هنا اعمل ثماني ساعات في اليوم ، في بيع اللآلئ المزيفة عند بورما » . ولما انحدرت أوائل الدموع على خديها ، ارتمت برفق فوق سريرها . وكررت وهي تبكي بمرارة :

— الى نيس ... الى نيس ... الى الشمس ... على الريفيرا .



General Direction of the National Library of the Republic of Tunisia
Bibliothèque Nationale de Tunisie

- ٣ -

« بواه ! »

ليل أسود . فكأن احداً كان يمشي في الغرفة : إنه رجل يضع في رجليه خفين . كان يقدم بعناية قدمه الأولى ويتبعها بالثانية ، بدون أن يتمكن من تجنب القرقعة على الأرض . يتوقف ، فيعم الصمت ، ثم لا يلبث أن يطير الى جانب الغرفة الآخر متابعاً مشيته كالمعتوه . وكانت لولو تشعر بالبرد ، إذ ان الأغطية خفيفة جداً . وقالت « بواه ! » بصوت عال فخافت من صدى صوتها .

بواه ! أنا متأكدة من أنه يتطلع الآن الى السماء والنجوم ، ويشعل سيكارة ، وهو في الخارج . وقال إنه يحب اللون البنفسجي في سماء باريس . ويعود الى بيته بخطى وثيدة ، ويحس بأنه شاعري عندما يقوم بهذا العمل ، كما قال لي وبأنه رشيق كبقرة يجلبونها ؛ لم يعد يفكر بهذا وأنا أشعر انني تلتطخت . ولا يهمني أن يكون طاهراً في هذه اللحظة ، فقد ترك قذارته هنا في الظلام ، وهذه منشفة اتسخت ، والغطاء رطب وسط السرير ، فليس بإمكانني أن امد رجلي لأنني سأشعر بالرطوبة تحت جلدي ، يا للقذارة ، لكنه جاف هو ، سمعته يصفر تحت نافذتي عندما خرج . كان تحت النافذة ، جافاً ونشطاً في ثيابه الزاهية ، بسترته نصف الفصلية ، وينبغي أن نعترف أنه يحسن هندامه ، ويمكن للمرأة ان تفخر بالخروج معه . كان تحت نافذتي ، وأنا عارية

في الظلام ، أشعر بالبرد ، وأفرك بطني بيديّ لاني كنت احس بالرطوبة .
« سأصعد دقيقة لأرى غرفتك » . ظل ساعتين ، والسرير يحدث صريراً .
يا له من سرير حديدي قدر . اتساءل في نفسي ما الذي جعله يعثر على هذا
الفندق ، قال لي انه امضى فيه خمسة عشر يوماً في الماضي ، وبأنني سأرتاح
فيه ، إنها غرف مضحكة ، رأيت منها اثنتين ، لم أرقط غرفاً بهذا الصغر ،
تعج بالأثاث ، فيها طنافس وكنبات وطاولات صغيرة ، هذا يجعل الحب منتناً ،
لا أدري اذا أمضى فيه خمسة عشر يوماً ؛ لكنه لم يمض هذه الأيام بمفرده .
ينبغي ألا يفرط في احترامي لأنه ألتصق بي في الداخل . كان صبي الفندق يهذر
عندما سعدنا ، انه جزائري ، انني اكره هذا الشخص وامثاله ، لقد نظر الى
ساقتي ، وبعدها عاد الى المكتب ، وقال في نفسه : « حصل الأمر ، انهم
يقومون بهذا » وتخيّل أشياء قدرة ، يبدو أن ما يفعلونه هناك مع النساء ،
مخيف . فاذا وقعت امرأة تحت ايديهم لا بد وأن تظل عرجاء طيلة حياتها .
وفي الوقت الذي كان بيار يزعجني فيه فكرت بهذا الجزائري الذي فكر بما
أقوم به ، وتصور قذارات تفوق القذارات التي حصلت فعلاً . هناك شخص
ما في الغرفة !

وضبطت لولو تنفسها ، لكن القرقعة انقطعت فجأة . أشعر بألم بين
فخذي ، يتأكلني ويحرقني ، لدي رغبة بالبكاء ، هكذا طيلة ليالي إلا في
الليلة القادمة لأننا نكون آنثذ على متن القطار . وعضت لولو على شفرتها
لأنها تذكرت انها تنهدت . ليس صحيحاً ، انا لم اتنهد ، بل تنفست بقوة ،
ولأنه ضعيف السمع بحيث انه حين يكون فوقني يقطع لي نفسي . قال لي :
« قتنهدين ، تلتندين ا » ، أكره الكلام كثيراً عند القيام بهذا العمل ، أريد
ان انسى نفسي ، لكنه لا ينفك عن سرد سفاهاته . انا لم اتنهد في البدء ،
وان كنت لا استطيع ان آخذ اللذة ، وهذا أمر واقع ، فالطبيب هو الذي
قال لي ذلك ، إلا اذا اجتلبتها لنفسي . إنه لا يريد ان يصدق ، وهم جميعاً لا
يريدون ان يصدقوا ، كانوا يقولون لي : « ذلك لأن البداية سيئة ، انا

سأعلمك اللذة . وكنت اسمح لهم بذلك ، فأنا اعرف القصة حق المعرفة ، وهذا سبب طيبي ؛ لكن هذا يثير أعصابهم .

كان أحدهم يصعد الدرج. ذاك الذي يهيم بالدخول. إلا اذا كان هو نفسه قد عاد. فهو مستعد لذلك إذا دفعته الرغبة. ليس هو، إذ ليست هذه خطى ثقيلة-أو لعله - وهنا قفز قلب لولو في صدرها - الجزائري ، فهو يعلم انني وحدي ، سيأتي ويدفع الباب ، انا لا استطيع احتمال هذا . انه في الطابق الاسفل ، انه شخص يعود الى غرفته ، يضع مفتاحه في ثقب الباب ، يلزمه بعض الوقت ، انه ثمل ، أتساءل من يسكن هذا الفندق ، فيه شيء خاص . صادفت بعد الظهر شقراء على الدرج ، عيناها كعيني المدمن على المخدرات . لم أتهدأ ! إلا انه جعلني اضرب بأشيائه تلك ، انه يحسن العمل . وانا أخاف الأشخاص الذين يحسنون العمل فأنا افضل ان أنام مع رجل طاهر . فاليدان اللتان تذهبان توأ الى المكان المطلوب ، اليدان اللتان تلامسان وتشدان قليلاً، وليس كثيراً جداً... يدان تعتبرانك آلة يفخرون بأنهم يحسنون اللعب بها . انا أكره ان يهزني احد ، إن بلعومي قد جف ، كما انني خائفة وفي فمي طعم ، وأشعر بالذل لأنهم يعتقدون بأنهم يسيطرون عليّ . بيار ، سأصفعه عندما يقول مفاخرأ : « عندي اسلوب فني » . رباه ، أن نقول ان هذه هي الحياة ، ومن اجل هذا نغتسل ونتجمل . وكل الروايات كتبت من اجل هذا ، ويفكر الناس بهذا طيلة الوقت ، واخيراً ليس هذا سوى أمر بسيط ، ان نذهب مع شخص الى غرفة ، شخص يخنقك نصف اختناق ويبلل جوفك في النهاية . أريد ان أنام ، أوه لو استطيع فقط ان أنام قليلاً ، وغداً سأسافر الليل بطوله ، سأكون محطمة . أود مع ذلك ان أحافظ على بعض نشاطي لاجول في نيس . يبدو انها جميلة ، فيها شوارع إيطالية صغيرة وغسيل ملون يحف في الشمس ، سأقيم مع الركيزة وأرسم ، وستأتي الفتيات الصغيرات ليرين ما اصنعه . يا للقدارة ! (كانت قد تقدمت قليلاً فلامست خاصرتها بقعة الغطاء المبللة) . من اجل هذا هو يصطحبني . لا ،

لا احد يحبني . كان يسير بجوارى ، وكانت قواي خائرة انتظر كلمة من كلمات المحبة ، فلو قال : « احبك » . لما عدت بالطبع اليه ، غير انني أقول له آتئذ قولاً لطيفاً ، وهكذا نفرقت كأصدقاء طيبين ، وانتظرت ؛ انتظرت ، فأخذ ذراعي فتركها له . فغضبت ريرات ، اذ ليس صحيحاً انه يشبه الأورانج أوتانج ، لكنني كنت أعرف انها تفكر بشيء كهذا ، اذ تنظر اليه شذراً بعينين قدرتين ؛ انه لمدهش جداً ان تكون قادرة على الشراى هذا الحد ؛ ورغم هذا ، حين أخذ ذراعي لم أقاوم ولكن لست « أنا » التي كنت أريد ، فهو يريد « أمراًته » لأنه اقترن بي وهو زوجي ؛ كان ينقص دائماً من قدرتي ويقول إنه اكثر مني ذكاء ، وكل ما حصل انما حصل بسببه ، فلو عاملني من غير تكبر لبقيت معه حتى الآن . أنا متأكدة من انه لا يأسف عليّ في هذه اللحظة فهو لا يبكي بل يشخر ، وهذا كل ما يعمل ؛ انه مسرور لأن السرير أصبح له وحده ؛ وبامكانه ان يمدّ عليه ساقيه الضخمتين . أريد ان أموت . لم يكن بوسعي ان اشرح له شيئاً لأن ريرات كانت بيننا ، تتحدث وتتحدث ، وكأنها هستيرية . انها مسرورة في الوقت الحاضر ، راضية عن نفسها لما أبدته من شجاعة ، يا للخبث ، تجاه هنري الوديع كالحمل . سأذهب . فليس بإمكانهم ان يرغموني على هجره كالكلب . وقفزت خارج السرير وأدارت الزر . جورباي وغلاطي تكفي . ولم تكلف نفسها عناء تسريح شعرها ، فهي مستعجلة من جهة ؛ والناس الذين سيرونها لن يدركوا انها تحت معطفها الرمادي ، الذي ينزل حتى القدمين . والجزائري - وهنا توقفت وقلبها تخفق بشدة - عليّ ان أوقظه ليفتح لي الباب . ونزلت بخطى حثيثة لكن الدرجات أخذت تقرقع واحدة واحدة ؛ ونقرت على زجاج المكتب . فقال الجزائري : « ما هذا؟ » كانت عيناه مائلتين للأحمرار وشعره مبعثراً ، ولم يكن يبدو عليه سياء الرهبة .

فقال لولو يجفاف : « افتح لي الباب » .

وما هي إلا ربع ساعة حتى طرقت باب هنري . فسأل هنري من

وراء الباب :

- من هنا ؟

- أنا .

لم يجب بشيء ، فهو لا يريد ان يسمح لي بالدخول الى بيتي . لكنني سأضرب على الباب حتى يفتحه ، سيعود عن اصراره بسبب الجيران . وما هي إلا لحظة حتى فتح الباب قليلا وبدا فيه هنري ، شاحب اللون على أنفه نقطة احمرار بسيط ، كان بلباس النوم .

وفكرت لولو بجنو : « انه لم ينم » .

« لم اكن أريد الذهاب على هذا الشكل ، أردت أن أقابلك » .

لم يقل هنري شيئا . فدخلت لولو بعد أن دفعته قليلا . ونظر الى بعينين مدورتين وذراعين خائرتين وهو لا يدري ما عليه أن يفعل بجسمه . اسكت ، اذهب ، اسكت ، أرى تماما انك متأثر وبأنك لا تستطيع الكلام . وأجهد نفسه ليلعب ، واقفلت لولو الباب . وقالت :

- أريد ان نهجر بعضنا ونظل اصدقاء .

وفتح فمه وكأنه يريد الكلام ، ودار فجأة حول نفسه وهرب . ماذا يصنع ؟ لم تجرؤ على اللحاق به . هل انه يبكي ؟ سمعته فجأة يسعل : انه في المرحاض . وحين عاد ، تعلقت بعنقه وألصقت فمها بفمه : كانت تفوح منه رائحة القيء . وأجهشت لولو بالبكاء . وقال هنري :

- اني اشعر بالبرد .

فاقترحت عليه باكية :

- فلنم ، بإمكانني ان ابقى الى صبيحة الغد .

وناما ، وهزّت لولو الدموع المنهمرة لأنها عادت الى غرفتها والى سريرها

الجميل النظيف والضوء الأحمر في الزجاج . وفكرت بأن هنري سيأخذها بين ذراعيه . لكنه لم يفعل شيئاً من هذا ، كان ينام على طول السرير وكان فيه وتداً . كما انه جامد وكأنه يتحدث الى سويسري . أمسكته برأسه بكلتا يديها ونظرت إليه بامعان . « انت طاهر انت ، انت طاهر » . فأخذ يبكي . وقال :

– كم انا بائس ، لم اكن قط بائساً الى هذا الحد .

فقلت لولو :

– وأنا كذلك .

وبكيا طويلاً . وما هي إلا هنيهة حتى اطفأت النور ووضعت رأسها على كتفه . لو كان باستطاعتنا البقاء على هذه الحال الى الأبد طاهرين كئيبين كالآيتام . لكن هذا مستحيل ، لأنه لا يجري في الحياة . كانت الحياة ، كانت الحياة كموجة ضخمة تذوب فوق لولو وتنتزعها من بين ذراعي هنري . يدك . يدك الكبيرة . انه فخور بيديه لانها كبيرتان ، يقول ان المتحدرين من الاسر العريقة لهم دائماً أطراف كبيرة . لم يأخذ قامتي بين يديه – كان يدغدغني قليلاً لكنني فخورة لانه أصبح بإمكانه ان يضم أصابعه الى بعضها . وليس صحيحاً انه عاجز ، انه طاهر ، طاهر – وخامل نوعاً ما . وابتسمت من خلال دموعها وقبلته على ذقنه . وقال هنري :

– ما ينبغي ان اقوله لأهلي . ستموت والدتي من هول الخبر .

لن تموت مدام كرسبان من الخبر ، بل بالعكس ستنتصر . سيتحدثان عني عندما يجلسان الى المائدة في الخامسة ، وعليها سياء الملامة ، كالناس الذين يريدون ان يقولوا اشياء كثيرة لكنهم لا يستطيعون ذلك ، بسبب وجود تلك الفتاة الصغيرة ، وهي في السادسة عشرة ، وليس بالامكان أن يتحدثوا أمامها عن بعض الأمور . ستضحك لأنها ستعرف كل شيء ، وهي تعرف

دائماً كل شيء وتمقتني . كل هذا الوحل ! والظواهر ليست الى جانبي .
ورجته لولو :

- لا تخبرهم في الحال ، تدلهم انني ذهبت الى نيس من أجل صحتي .
- لن يصدقوني .

وقبلت هنري قبلات صغيرة على طول وجهه .

- هنري لم تكن لطيفاً ما فيه الكفاية معي .. فقال هنري :
- هذا صحيح ، لم اكن لطيفاً ما فيه الكفاية .
وأضاف معلقاً :

- ولا انت ، كنت لطيفة بما فيه الكفاية .

فقال لولو :

-- وأنا كذلك ! هوه ؟ يا لنا من تعيسين !

وبكت بقوة الى حد انها كادت تحتنق : سويغات ويطلع النهار ، وستذهب ،
ليس بالامكان ان يفعل المرء ما يريد ، بل انه مساق .

وقال هنري :

- لم يكن ينبغي ان تذهبي على هذه الصورة .

وتنهدت لولو :

- كنت أحبك كثيراً يا هنري .

- والآن ، اقلعت عن حبك لي ؟

- ليس كما في السابق .

- وبصحبة من ستذهبين .

- مع اشخاص لا تعرفهم .

فقال هنري بغضب :

- كيف انك تعرفين أشخاصاً لا أعرفهم ، فأين قابلتهم ؟
- دع عنك هذا يا عزيزي ، يا جلفر الصغير ، فما عليك ان تقوم بدور
الزوج في هذه اللحظة !

فقال هنري باكياً :

- تذهبين مع رجل !

- اصغ يا هنري ، اقسم لك ، انني لا أذهب ، اقسم لك على رأس امي ،
فالرجال يثيرون اشمئزازي كثيراً هذه الايام . فانا أذهب مع اصدقاء ريرات ،
وهم متقدمون في السن . اريد ان اعيش وحيدة ، سيجدون لي عملاً . أوه
يا هنري ؟ لو تدري كم انا بحاجة للعيش بمفردي ، ولكم يثير اشمئزازي
بكل هذا .

فقال هنري :

- ماذا ؟ ما هو الذي يثير اشمئزازك ؟

- كل شيء !

وقبلته :

- انت وحدك الذي لا تثير اشمئزازي يا عزيزي .

وأنزلت يدها تحت بيجاما هنري وداعبت جسمه بجميع انحاءه . فارتعش
تحت يديها الباردتين لكنه قبل بذلك ، إلا انه قال :

- ساصاب باذى .

- كان فيك ولا شك شيء منكر .

في الساعة السابعة ، نهضت لولو ، وقد تورمت عيناها من شدة البكاء ،
وقالت باعياء :

— عليّ أن اعود الى هناك .

— اين هناك ؟

— انا في فندق المسرح في شارع فاندام . انه فندق قذر .

— ابقني معي .

— كلا يا هنري ارجوك ، لا تلح عليّ ، قلت لك ان هذا مستحيل .

— ان الامواج هي التي تحملك ، انها الحياة . وليس بإمكاننا ان نطلق الاحكام ، ولا ان نفهم الامور ، وما علينا الا ان ندع الامور تجري . وغداً سأذهب الى نيس .

ودخلت الى المفصلة لتغسل عينيها بالماء الساخن . وارتدت معطفها وهي ترتجف . « لكأنه مصير محتوم . شريطة ان اتمكن من النوم في القطار هذه الليلة ، والا فستخور قواي حال وصولي الى نيس . آمل ان يكون قد حجز في الدرجة الاولى . انها المرة الاولى التي اسافر فيها بالدرجة الاولى . هكذا دائماً تكون الامور : ما قد مرت سنوات وانا ارغب في القيام برحلة طويلة بالدرجة الاولى وما ان تحقق هذا الحلم حتى لم أعد اجد لذة فيه . »

كانت تستعجل ذهابها ، في الوقت الحاضر ، لان هذه اللحظات الاخيرة كانت من الامور التي لا تطاق . وسألته :

— ماذا ستفعله مع غالوا ؟

كان غالوا قد طلب اعلاناً من هنري ، ولما قام هنري بتنفيذ الطلب في الوقت الحاضر ، رفضه غالوا .

وقال هنري :

— لا أدري .

كان قد انطوى على نفسه تحت الاغطية ، ولم يعد يرى سوى شعره وطرف اذنه . وقال بصوت بطيء رخو :

- أريد ان انام طيلة ثمانية ايام .

فقلت لولو :

- وداعاً يا عزيزي .

- وداعاً .

وانحنت قليلا فوقه ، وازاحت الاغطية عنه وقبلته في جبينه . مكثت طويلاً على الدرج ، بدون ان تصمم على اغلاق باب الشقة . وما هي إلا لحظة ، حتى أدارت عينيها وجرت القبضة بقوة . وسمعت ضجة جافة وكاد ان يغمى عليها : لقد اعترأها نفس الانطباع الذي احست به عندما ألقوا برفش من التراب فوق نعش أبيها .

« لم يكن هنري لطيفاً . كان ينبغي ان يقف ويرافقني حتى الباب . يبدو لي ان حزني كان اقل لو انه اغلق الباب بنفسه »

- ٤ -

قالت ريرات وهي تنظر الى البعيد .

- لقد أقدمت على هذا العمل ! اقدمت على هذا !

الوقت مساء . نحو الساعة السادسة كان بيار قد اتصل هاتفياً بريرات
فجاءت لمقابلته في مقهى القبة .

وقال بيار :

- ولكن أنت ، أما كان ينبغي ألا تذهبي لمقابلتها في الساعة التاسعة ؟

- لقد قابلتها .

- لم تكن هيئتها غريبة ؟

فقالت ريرات :

- كلا . لم ألاحظ شيئاً . كانت متعبة نوعاً ما ، لكنها قالت لي انها

نامت نوماً سيئاً بعد ذهابك لأنها كانت شديدة التأثر أمام فكرة السفر الى

نيس ولأنها كانت تخشى الصبي الجزائري .. كما أنها سألتني اذا كنت أعرفه

هل انك اخترت المكان في الدرجة الأولى ، اذ ان هذا حلم حياتها .

وأضفت ريرات بتصميم :

- كلا أنا متأكدة من ان شيئاً من هذا القبيل لم يبد على وجهها ، طيلة وجودي معها على الأقل . لقد مكثت ساعتين معها ، وانني شديدة الملاحظة لأشياء كهذه ، ويدهشني ان يفوتني منها أمر ما . ستقول لي انها كتومة جداً ، لكنني أعرفها منذ أربع سنوات ورأيتها في زحمة المناسبات ، انني أضع لولو على طرف اصبعي .

- اذا ان هناك من دفعها الى ذلك .

- فيا له من أمر مضحك ...

وحلم لبضع ثوان وأضاف فجأة :

- أود ان أعرف من الذي أعطاهم عنوان لولو : فأنا الذي اخترت الفندق ولم تكن قد سمعت به مسبقاً .

كان يعبث برسالة لولو ، وريرات يبدو عليها الانزعاج لأنها تريد قراءة الرسالة ، لكن بيار لم يقترح عليها ذلك . وسألت أخيراً :

- متى تلقيتها ؟

- الرسالة ؟

فأعطاهما ايها ببساطة :

- خذي ، بإمكانك قراءتها . لعلمهم وضعوها عند الحاجب نحو الساعة الواحدة .

كانت ورقة بنفسجية رقيقة ، كالأوراق التي تباع في مخازن التبغ :

« عزيزي الكبير .

« جاء آل تكزبي (لست ادري من أرشدهم الى العنوان) . سأسبب

لك متعبة ، لن أذهب يا حبيبي ، يا عزيزي بيار . سأظل مع هنري لأنه تعيس جداً . جاؤوا لزيارته هذا الصباح ، لم يكن يريد أن يفتح ، وقالت السيدة تكزني ان صورته لم تعد كصورة الانسان . كانوا لطفاء جداً وفهموا جميع مبرراتي ، وقالت انه مصدر الاخطاء كلها ، وانه دب، ولكنه ليس شريراً في جوهره . وقالت انه يستحق هذا التصرف ليدرك الى اي حد يتمسك بي . لا أدري من الذي سلمهم عنواني ، لم يقولوا ذلك لي ، لعلمهم شاهدوني صدفة حين خرجت من الفندق بصحبة ريرات . وقالت لي السيدة تكزني انها تدرك تماماً قيمة التضحية التي تطلب الي القيام بها ، لكنها تدرك انني لن اتخلف عن القيام بالتضحية . انني آسف كثيراً على رحلتنا الجميلة الى نيس ، يا حبيبي . أنا لك من كل قلبي وبكل جسمي ، وسنتقابل أكثر مما كنا نتقابل في الماضي . لكن هنري سينتحر بدوني ، فأنا بالنسبة اليه لا يمكن الاستغناء عني وأؤكد لك بأنني لا أجد متعة في تحمل مسؤولية كهذه . وآمل ألا تغضب كثيراً كمعادتك فتخيفني فأنت لا تريد ان يعتريني عذاب الضمير . سأعود الى بيت هنري في الحال . ولا بد وان أكون مزعوجة حين ألقيه على هذه الحال لكنه ستكون لدي الشجاعة حتى أفرض شروطي . أولاً أريد مزيداً من الحرية لانني أحبك ، وأريد ان يترك روبر وشأنه والا يتفوه بكلمة بحق والدتي . عزيزي ، أنا حزينة جداً ، أريدك ان تبقى هنا ، فأنا راغبة بك ، وأضمّ صدري اليك وأشعر بدغدغتك في جميع أنحاء جسمي . سأكون غداً في الخامسة في مقهى القبة -

لولو »

- يا لك من مسكين يا بيار .

أخذه ريرات بيده . فقال بيار :

- أقول لك انني اندم من أجلها هي فقط ! كانت بحاجة للهواء وللشمس .

لكنها إذ تقدم على هذا القرار ...

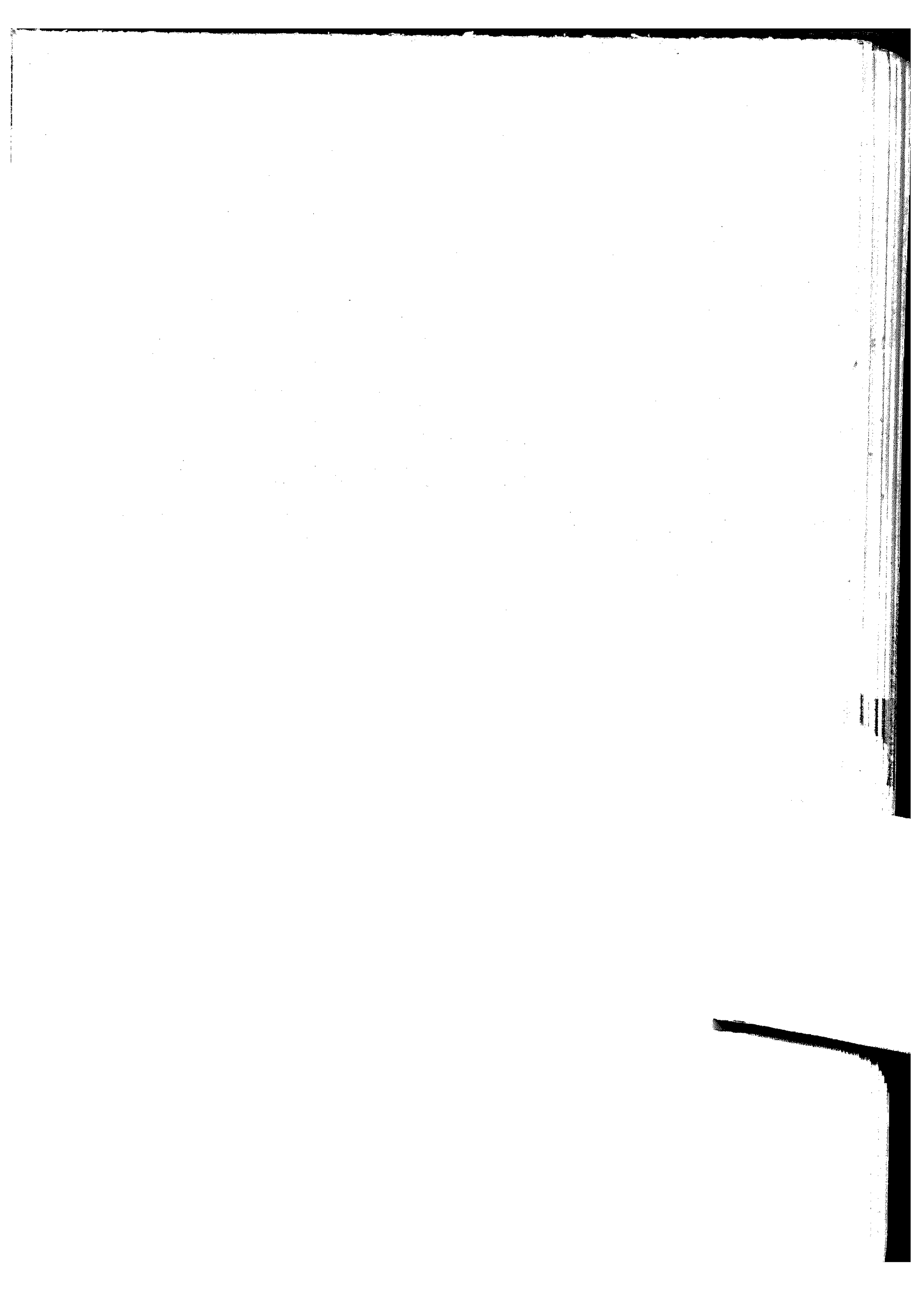
وأضاف :

— كانت أمي تسبب ليّ متاعب شديدة . فالدارة هي ملكها ، ولم تكن تريد ان أقود اليها أية امرأة .

فقلت ريرات بصوت شبه مقطوع :

— آه ! آه ! حسناً جداً ، فان الجميع مسرورون !

وتركت يد بيسار وأحست بدون ان تعرف السبب ، بالأسف المرير
يحتاجها .



طفره فاند

« أنا رائع في بذلة الملاك هذه » . قالت السيدة بوتيه لأمي :

— ولدك الصغير يلذ أكله . فهو رائع في بذلة الملاك . وجذب السيد بونارديه لوسيان الى ما بين ساقيه وداعب ذراعه وقال مبتسماً :

— حقاً إن هذه الفتاة صغيرة .

— ما اسمك ؟ جا كلين أولوسيانه أو مارغو ؟

ولم يكن متأكداً من انه ليس فتاة صغيرة : فكثير من الناس قبلوه وهم يدعونه بالآنسة ، ووجدته الجميع جذاباً بجناحيه الملائكيين ، وبثوبه الأبيض الطويل ، وبذراعيه المكشوفتين وبجدائله الشقراء . كان يخشى ان يقرر الناس فجأة انه لم يعد صبياً . ولطالما احتج ، ولكن أحداً لم يصغ اليه ، ولم يسمح له بخلع فستانه إلا حين يريد ان ينام ، وفي الصباح عندما يستيقظ يجد الفستان على طرف السرير ، وعندما يريد ان يبول أثناء النهار ، كان عليه أن يشمر فستانه مثل نانيت ، وأن يجلس القرفصاء على رجليه . كان الجميع ينادونه : يا عزيزتي الصغيرة ، لعل الامر قد انتهى و« اصبحت » فتاة صغيرة . كان يحس بأنه شديد الرقة من الداخل ، كما ان فمه يخرج من بين شفتيه بمقدار ، وهو يقدم الزهور لجميع الناس بحركات دائرية . وفكر . ليس هذا حسناً . كان بوده ألا يكون هذا حسناً ، لكنه تسلى كثيراً يوم الثلاثاء من ايام الفصح ، ارتدى ثياباً على طريقة بيارو ، وركض وقفز وهو يضحك مع ريري ، كما اختبأ تحت الطاولة . وضربته أمه ضربة خفيفة

وقالت : « أنا فخورة بولدي الصغير ». كانت قوية الشخصية جميلة ، وهي أكثر النساء سمينة . وعندما مر أمام الطاولة الكبيرة المغطاة بغطاء أبيض رفعه أبوه وكان يحتسي قدح الشمبانيا وقال له : « يا رجلي الطيب ! » وأراد لوسيان أن يبكي وان يقول « نا ! » وطلب عصير البرتقال المثلج وكان قد منع عنه . لكنهم صبوا له قدر إصبعين في كأس صغير . كان طعمه كريهاً وليس شديد البرودة : أخذ لوسيان يفكر بالعصير المعزج بالخروج ، وكان قد شربه أثناء مرضه . وأجهش بالبكاء ووجد تعزية لنفسه في الجلوس بين أمه وأبيه في السيارة . كانت الوالدة تضم لوسيان إليها ، وهي معطرة دافئة ، ترتدي لباساً حريرياً . وكان داخل السيارة يتحول من وقت لآخر الى لون أبيض كالطبشور ، فيحرك لوسيان عينيه ، إن الزهور التي كانت موجودة على صدرية أمه ، كانت تخرج من الظل فيتنشق لوسيان رائحتها . وبكى قليلاً بعد ذلك لكنه أحس بأنه مبلل ، وكريه نوعاً ما كذاك العصير . إنه يفضل ان يتخبط في المغطس وتغسله أمه بالاسفنج . وسمح له بأن ينام في غرفة أبيه وأمّه كما لو كان صغيراً . فصار يضحك ويحرك حديد السرير فيقول والده « هذا الولد شديد الهيجان » . وشرب قليلاً من ماء الورد ورأى أباه بالقميص .

وفي صبيحة الغد كان لوسيان متأكداً من أنه نسي شيئاً ما . انه يتذكر تماماً الحلم الذي رآه : أبوه وأمّه يرتدي كلاهما ثوب الملائكة ، ولوسيان جالس بدون ثياب فوق مبولته ، يضرب على الطبل ، وأبوه وأمّه يدوران حوله . كان ذلك كابوساً . ولكن هناك شيئاً ما حدث قبل الحلم ولما حاول التذكر ، رأى نفقاً طويلاً مضاء بمصباح أزرق شبيه بالمصباح الذي يضيئونه مساءً في غرفة أبويه . وفي قعر هذا الليل المعتم الأزرق ، قد حصل شيء ما - شيء ما أبيض اللون . وجلس على الأرض عند قدمي أمه وأمسك طبله . فقالت له أمه : « لماذا تنظر بهاتين العينين يا جوهرتي ؟ » فأخفض عينيه وضرب على طبله وهو يصيح : « بوم ، بوم ، ترا را بوم » . لكنها لما اشاحت بوجهها

بدأ ينظر اليها بامعان وكأنه يراها للمرة الأولى . الفستان الأزرق كان يعرفه ،
والوجه أيضاً . إلا أنه بات مختلفاً . وظن فجأة بأن الأمر قد تم . فلو فكر
قليلاً لتوصل الى ما يريد . وأضيء النفق بنور داكن ، كان شيء ما يتحرك .
وخاف لوسيان وأطلق صيحة : لقد اختفى النفق . وقالت أمه : « ما بك
يا عزيزي الصغير ؟ » لقد ركعت على مقربة منه وعليها سياء القلق . فقال
لوسيان : « انني اتسلى » . كانت رائحة والدته لذيذة ، لكنه خشي ان
تم يدها اليه . كانت تبدو مضحكة وكذلك أبوه . وقرر الا ينام بعد اليوم
في غرفتها .

في الأيام التالية ، لم تلاحظ الوالدة شيئاً فهو دائماً في حضنها يحدثها كالرجل
الكبير . وطلب اليها ان تقص عليه قصة الفتاة والذئب ، ووضعت والدته
على ساقيها . وأخبرته عن الذئب وعن جدة الفتاة . ولوسيان ينظر اليها
ويقول : « وبعدها ؟ » وكان يداعب في بعض الأحيان الأقران التي في
عنقها ، لكنه لم يكن يصغي اليها بل يتساءل اذا كانت هي أمه الحقيقية .
وعندما تفرغ من قصتها يقول لها : « أمي ، أخبريني عندما كنت فتاة
صغيرة » . وأخبرته أمه : ولعلها تكذب عليه . لعلها كانت في الماضي
صبياً صغيراً ألبسوها فساتين - كما فعلوا مع لوسيان في تلك الأمسية - وأنها
لا تزال ترتديها للتظاهر بأنها فتاة . وجسّ برفق ذراعيها الجميلتين اللتين كانتا
ناعمتين كالزبدة تحت الحرير . ماذا يحدث لو خلعت أمه فستانها وارتدت
سروال ابيه ؟ لعل شاربين اسودين ينبتان في وجهها . وشد على ذراع أمه
بكل قواه . وتهيأ له انها ستتحوّل امام عينيه الى وحش رهيب أو ان تصبح
أمرأة ذات لحية كأمرأة المعرض . وضحكت فاتحة فمها الواسع ، فأبصر
لوسيان بلسانها الوردي وبآخر بلعومها : كان قدراً ، واعتزته رغبة في ان
يبصق فيه . وتقول امه ، « هاهاها ! كم انك تشدني يا رجلي الصغير !
شدني بقوة . بقدر ما تحبني » . وتناول لوسيان إحدى اليدين الجميلتين ذات
الخواتم الفضية وأمعن فيها تقبيلاً . ولكن ، في صبيحة اليوم التالي ، وبينما كانت

تجلس بجواره تمسك بيديه بينما هو قاعد فوق المبولة ، تقول له : « اضغط يا لوسيان ، اضغط ، يا جوهرتي الصغيرة » . وتوقف فجأة عن الضغط وسألها لاهثاً : « هل أنك امي الحقيقية على الأقل ؟ » وقالت له « أيها المغفل الصغير » . وسألته اذا كان سيتم الشيء بسرعة . منذ ذلك اليوم بات لوسيان مقتنعاً من انها تقوم بالتمثيل أمام عينيه ، ولن يقول لها انه سيتزوجها عندما يصبح كبيراً . لكنه لم يكن يعرف كثيراً ما هي تلك المهزلة : إذ من الممكن ان يكون اللصوص قد جاؤوا في الليل فسرقوا أمي وأبي ووضعوا هذين في مكانها . او انها ابوي الطيبان ، لكنها يلعبان دوراً في النهار ، بينما هما مختلفان في الليل . لم يندهش لوسيان كثيراً عشية الميلاد حين استفاق مذعوراً ورآهما يضعان الألعاب في المدخنة . وفي الصباح تحدثا الى البابا نويل ، وتظاهر لوسيان بأنه يصدقها . فظن ان ذلك من ضمن أدوارهما . ولعلها سرقا الألعاب . في شهر شباط اصيب بالحمى الحصبية وتسلى كثيراً .

ولما شفي ، اعتاد على تمثيل دور اليتيم . كان يجلس وسط المرج ، تحت شجرة الكستناء ، يملأ يديه بالتراب ويفكر : « سأصبح يتيماً وسأدعى لويس . ولن أتناول طعاماً قبل ستة أيام » . ونادته الخادمة جرمين ليتناول طعام الغداء ، جلس الى المائدة وتابع اللعبة . ولم يلاحظ أمه وأبوه شيئاً . لقد التقطه لصوص يريدون ان يجعلوا منه نشالاً . وحين ينتهي من تناول الطعام ، سيهرب ليشكروهم . أكل وشرب قليلاً جداً . كان قد قرأ كتاب فندق الملاك الحارس ، ان الوجبة الأولى التي يتناولها الرجل الجائع تكون خفيفة . كان شيئاً ممتعاً لأن الجميع يلعبون . فأمه وأبوه يلعبان دور الأب والأم . والأم تلعب دور المعذبة لأن جوهرتها لا تأكل كفايسة ، وأبوه يلعب دور قارئ الجريدة ويهز من وقت لآخر اصبعه في وجه لوسيان قائلاً : «بدا بوم ، أيها الرجل الطيب » . ولوسيان كان يلعب ايضاً ، ولكنه خلس في النهاية الى عدم تمييز الشيء الذي كان يلعب به . أهو يلعب دور اليتيم ؟ أو دور لوسيان ؟ ونظر الى القنينة . كان هناك ضوء احمر خافت يتراقص في قعر

المياه ، ولعله بالإمكان ان نقسم بأن يد أبيه كانت في القنينة ، وهي كبيرة مشعة ، على أصابعها شعيرات سوداء . وتهاى للوسيان ان القنينة تلعب دور القنينة . واخيراً ، لم يكن يمد يده الى الأطباق وقت الطعام ، وبعد الظهر جاع كثيراً مما اضطره الى سرقة اثنتي عشرة خوخة وكاد أن يصاب بعسر الهضم . وفكر بأنه اكتفى من لعب دور لوسيان .

ولكنه لم يستطع أن يمنع نفسه عن ذلك وبدا له طيلة الوقت انه يلعب . كان بوده أن يكون مثل السيد بوناردييه الدميم الخلفة والرصين معاً . كان السيد بوناردييه حين يريد ان يأكل ، ينحني على يد الوالدة قائلاً لها : « تحياتي ، يا سيدتي العزيزة » . ويقف لوسيان وسط قاعة الاستقبال متطلعاً باعجاب . ولكن لم يكن يحصل للوسيان اي امر هام . فحين يقع ويتورم ، يتوقف عن البكاء ويتساءل : « هل صحيح أنني تورمت ؟ » عندها يشعر بأنه أكثر كآبة وتنهمر الدموع من عينيه . ولما قبل يدي الوالدة وهو يقول لها : « تحياتي يا سيدتي العزيزة » . وبعثرت الوالدة شعره قائلة له :

« ليس هذا مناسباً ، يا فأرتي الصغيرة ، فلا ينبغي ان تهزأ من الاشخاص الكبار » . وأحس بأن همته قد ثببت . ولم يكن يتوصل لايجاد بعض الأهمية لنفسه الا اول جمعة وثالث جمعة من الشهر . ففي هذين اليومين ، كان كثير من النساء يأتين لزيارة أمه ، من بينهن اثنتان أو ثلاثة في ثياب الحداد . كان لوسيان يحب النساء المتشحة بالسواد خصوصاً إذا كانت أرجلهن كبيرة . كان يستمتع بوجود الأشخاص الكبار بصورة عامة ، لأنهم شديدي الوقار ، ولا يمكن ان يغفلوا أنفسهم فوق الأسرة عابثين كالأولاد ، ولا يمكن ان نتصور ما يوجد تحت ثيابهم لكثرة تلك الثياب وتنوعها . وعندما يكونون معاً ، فهم يأكلون من كل شيء ويتحدثون ، حتى ضحكاتهم فهي رزينة ، وجميلة كوقت القداس . كانوا يعاملون لوسيان وكأنه إحدى الشخصيات . كانت مدام كوفان تأخذ لوسيان في حضنها وتجس مؤخرته قائلة : « انه اجمل

ظريف رأيته « . عندها ، تسأله عن أذواقه ، وتقبله وتستفسر عما يريد ان يفعل في المستقبل . وثارة ما كان يجب بأنه سيصبح قائداً كبيراً على غرار جان دارك وبأنه سيستعيد الألزاس واللورين من الألمان ، وطوراً يفكر بأن يكون بشراً . كان يصدق نفسه ، طيلة الوقت الذي يتكلم فيه . كانت السيدة بيس امرأة طويلة قوية ذات شاربين صغيرين . تقلب لوسيان وتدغدغه قائلة : « يا لعبتي الصغيرة » . ولوسيان يشعر بلذة ويرتعش تحت يديها اللتين تداعبانه . وفكر بأنه لعبة صغيرة ، لعبة صغيرة جذابة للأشخاص الكبار وتمنى لو ان السيدة بيس تنزع ثيابه ، وتغسله وتضعه في سرير صغير لينام كجسم من المطاط . وكانت مدام بيس تقول أحياناً : « هل تنطق لعبتي ؟ » وتضغط على معدته فجأة . عندها ، يتظاهر لوسيان بأنه لعبة آلية ويقول : « كويك » بصوت مخنوق ، مما يضحك الأثنين معاً .

كان يسأله الكاهن الذي يأتي لزيارتهم نهار السبت إذا كان يحب والدته . ولوسيان يحب والدته الجميلة حتى العبادة وكذلك أباه القوي الطيب . فيجيب : « نعم » وهو ينظر الى الكاهن في عينيه ، بهيئة تضحك الجميع . كان رأس الكاهن كثرة التوت . وقال للوسيان ان هذا حسن ، وان على المرء ان يحب امه دائماً . ثم سأله إذا كان يفضل والدته على الله او بالعكس . ولم يستطع لوسيان ان يعثر على الاجابة بسهولة فراح يضرب الأرض صائحاً : « بوم ، ترا را بوم » . وتابع الأشخاص الكبار حديثهم وكأنه ليس موجوداً . وركض الى الحديقة وتسلسل الى الخارج من البوابة الخلفية . وحمل عصاه الصغيرة المصنوعة من الخيزران . لم يكن لوسيان بالطبع يريد الخروج من الحديقة ، فهذا ممنوع . ومن عادة لوسيان ان يكون مطيعاً لكنه قرر هذه المرة ان يعتمد الى العصيان ونظر الى العوسجة نظرة ملؤها التحدي . من الواضح انه مكان ممنوع . كان الجدار محمراً ، والعوسجات نباتات خبيثة ضارة ، وقد قضى كلب من الكلاب حاجته على جذع العوسجة . كانت تفوح رائحة العوسجة ، وبعرة الكلب والنبيذ الساخن . وضرب لوسيان العوسجة بعصاه صائحاً : « أنا أحب أمي »

أنا أحب أمي » . ورأى أغصان العوسج تنكسر وتنزاح عنها قشورها .
وسمع صوتاً صغيراً منفرداً يصيح : « أحب امي . أحب امي » . كانت هناك
ذبابة كبيرة تثر : كانت ذبابة من تلك التي تحوم على الأقدار ، فزع لوسيان
منها وملأت منخريه رائحة عفنة . وكرر بقوله : « أحب امي » . لكن
صوته بدا غريباً ، فاعتراه خوف شديد ففرّ لتوه الى قاعة الاستقبال . منذ
ذلك اليوم ، فهم لوسيان انه لا يجب أمه . ولم يكن يشعر بالذنب بسبب ذلك ،
لكنه ضاعف من دماثته لأنه فكر بأن من الواجب ان يتظاهر الانسان طيلة
حياته بأنه يحب أهله وإلا فيكون ولدأ شريراً . كانت السيدة فلورييه تجد
لوسيان شديد الرقة . واندلعت الحرب في هذا الصيف ، وذهب الأب الى
القتال ، ورأت الأم نفسها سعيدة ، وسط أحزانها ، باهتمام لوسيان بها . ففي
كل مرة تذهب فيها الى الحديقة ، يعتمد لوسيان الى حمل نخدة يضعها تحت
رأسها او أنه يحمل غطاء ويضعه فوق ساقها فتقول له : « لكن هذا سيجعلني
أشعر بشدة الحر ، كم انت لطيف يا رجلي الصغير » . وكان بدوره يقبلها بعنف
قائلاً لها :

« يا أمي أنا ! » . ويذهب ليجلس في ظل شجرة الكستناء .

ويقول « شجرة الكستناء » وينتظر . لكن أي شيء لم يحصل . كانت
الوالدة مستلقية تحت الشرفة ، وسط سكون خافت . وكانت تفوح رائحة
العشب الساخن ، والجو ملائم لتقليد المغامرين في الغابة العذراء . لكن لوسيان
لم يعد يرغب باللعب . والهواء يرتجف فوق الجدار ، والشمس تصنع بقعاً
محرقة على الأرض وعلى يدي لوسيان . « شجرة الكستناء ! » كان أمراً
مثيراً ، حين يقول لوسيان لأمه « يا امي الجميلة ، يا امي أنا » . تضحك أمه ،
وحين ينادي جرمان بالبندقية القديمة ، تبكي جرمين وتشكوه الى الوالدة .
ولكنهم حين يلفظون كلمة شجرة الكستناء ، لم يكن يحصل شيء . وتمتم من
بين أسنانه « يا لها من شجرة قدرة » . ولم يكن مطمئناً ، ولكن بما أن

الشجرة لا تتحرك ، لذا يضيف بصوت أكثر ارتفاعاً : « يا للشجرة القذرة ،
يا لشجرة الكستناء القذرة ! انتظري وسترين ، انتظري قليلاً ! » وكان
يرفسها برجله مرات عديدة . وتظل الشجرة هادئة ، هادئة - كما لو انها من
خشب . وفي المساء ساعة العشاء يتول لوسيان لأمه : « هل تدرين يا أمي ،
الأشجار هي من الخشب » . يقول ذلك بوجه المدهوش الذي تحبه الأم كثيراً . غير
ان السيدة فلورييه لم تتلق رسالة في بريد الظهر . فقالت بحفاف : « لا تكن
سمجاً » . صار لوسيان يكسر كل شيء . كسر جميع لعبه ليرى كيف
صنعت ، وقطع ذراع الكنبة بسكين أبيه القديم . وعندما يتنزه كان يقطع
النباتات والأزهار بعصاه : كما كان في كل مرة يصاب بخيبة امل ، فالأشياء ليست
مصنوعة صنفاً حسناً . وغالباً ما تسأله أمه وهي تدله على الأزهار أو الاشجار :
« ما اسم هذه ؟ » لكن لوسيان يهز رأسه ويقول : « ليس هذا شيئاً ،
واسمها لا شيء » . كل هذا ليس جديراً بأن يسترعي الانتباه ، إذ كان من
الأسهل قطع رجل جرادة ، لأنها تهتز بين الأصابع كالدوامة وإذا ضغطنا
على بطنها ، خرج منه سائل اصفر . لكن الجرادات لم تكن لتصرخ مع
ذلك . كان بود لوسيان أن يؤذي الحيوانات التي تصرخ عند ايدائها ، كالدجاجة
مثلاً ، لكنه لم يجرؤ على الاقتراب من تلك الحيوانات وعاد السيد فلورييه في
شهر آذار لأنه كان ربّ عمل ، وقال له القائد بأن من الأفضل ان يظل في مصنعه
على أن يمضي وقته في الحنادق كأي كان . ووجد لوسيان قد تغير كثيراً ولم
يعد يرى فيه رجله الطيب . وقع لوسيان في نوع من الروبصية : كان يجيب
برخاوة ، ويحشو اصبعه في انفه أو ينفخ في يديه ثم يشمها ، وكان عليهم أن
يرجوه ليقضي حاجته . وهو يذهب الآن تلقائياً الى المكان الصغير ، كان من
الضروري فقط أن يظل الباب مفتوحاً نصف فتحة وان تأتي لتشجيعه أمه
أو جرمين . كان يبقى ساعات عديدة على العرش كما كان ينام في بعض
الأحيان . قال الطبيب انه ينمو بسرعة ووصف له دواء يساعد على بناء
الجسم . وأرادت الوالدة أن تعلم لوسيان ألعاباً جديدة ، لكن لوسيان وجد

أن ما يعرفه من ألعاب يكفيه وأن جميع الألعاب سواء . كان يبدي استياءه أكثر الاحيان ، وهذا ايضاً نوع من انواع اللعب ولكنه أكثر تسلية . إن الوالدة تتعذب ، اصبح الجميع حزينين حاقدين ، كما اصبحوا مكرومي الافواه متجهمي الوجوه ، والطقس حار في الداخل كما لو كان المرء في فراشه تحت الغطاء يشم رائحة نفسه ، ولم يعد لوسيان يستطيع تجنب الاستياء ، وعندما يقول له ابوه « انت تقلد معي الخنزير » يرتمي لوسيان على الأرض ويبكي كثيراً . لا يزال يذهب كثيراً الى قاعة الاستقبال حين تستقبل والدته الزائرين ، ولكن اهتمام الناس به قد تضاعف منذ أن قصوا له جدائله . أو إذا ما التفتوا اليه ، فلكي يشرحوا له درساً في الأخلاق أو يقصوا عليه قصة لإرشاده . عندما أتى ابن خالته ريري الى فيرول ، بسبب القاء القنابل ، برفقة خالته برت الجميلة ، سرّ لوسيان كثيراً وحاول ان يعلمه اللعب . لكن ريري كان يهتم أكثر بكره الألمان ، ثم إنه لا يزال يشعر بأنه طفل رغم انه أسن من لوسيان بستة أشهر . وكانت على وجهه بقع صفراء ، كما انه لا يفهم الامور في جميع الاوقات . لكنّ لوسيان أفضى اليه بالسّر ، انه مر وبص . بعض الاشخاص يفيقون في الليل ، فيتكلمون ويتنقلون وهم نيام : قرأ لوسيان هذا في كتاب المغامر الصغير وفكر بأنه من الواجب أن يوجد شخص حقيقي اسمه لوسيان يمشي ويتحدث ويحب ابويه حباً صادقاً في الليل . لكنه بمجيء النهار ، كان ينسى كل شيء ويعود الى التظاهر بأنه لوسيان . في البدء لم يكن لوسيان يؤمن كثيراً بهذه القصة ، لكنه ذهب في احد الايام مع ابن خالته الى العوسجات ، واظهر ريري عضوه للوسيان وقال له : « كم هو كبير ، أنا صبي كبير . وعندما يصبح كبيراً جداً ، عندما أصير رجلاً وأذهب لاقاتل الالمان في الخنادق » . وجد لوسيان ريري مضحكاً جداً واخذ يقهقه بقوة . وقال ريري : « أرني الذي لك » . واجريا المقاتلة فكان عضو لوسيان أصغر ، لكن ريري غشه : اذ شد على عضوه ليزيد في طوله . وقال ريري : أنا الذي أملك عضواً اكبر . فقال لوسيان بهدوء :

- نعم ، ولكنني أنا المروبعص . لم يكن ريري يعرف ما هو المروبعص ،
وشرح له لوسيان ذلك . وعندما انتهى فكر في نفسه : « إذا فصحيح أني
مروبعص » . واعتزته رغبة شديدة في البكاء . وبما انها كانا ينامان في فراش
واحد ، اتفقا على ان يبقى ريري مستيقظاً طيلة الليل ويراقب لوسيان عندما
ينهض ، ويحفظ كل ما يتفوه به لوسيان .

وقال لوسيان :

- ستوقظني بعد هنيهة ، لأرى اذا كنت أتذكر ما فعلته ؟ . وفي المساء
سمع لوسيان الذي عجز عن النوم الشخير الحاد وأيقظ ريري . وقال ريري :
« زنجبار » .

- استيقظ يا ريري فعليك ان تراقبني حين استيقظ .

فقال ريري بصوت رخو :

- دعني أنم .

فهزه لوسيان وقرصه تحت قميصه ، فأخذ ريري يلبط برجليه وظل
مستيقظاً ، مفتوح العينين ، وعلى شفثيه ابتسامة طريفة . وفكر لوسيان
بدراجة كان على أبيه ان يشتريها له ، وسمع صفير القطار ، وفجأة دخلت
الخادمة وأزاحت الستار ، كانت الساعة قد بلغت الثامنة صباحاً . لم يدر
لوسيان قط ما اقدم عليه طيلة الليل . أما الله فكان يعرف ، هو ، لأن الله
يرى كل شيء . كان لوسيان يركع في مكان العبادة ويجهد نفسه لكي يكون
عاقلاً ، حتى تهنته والدته عند انتهاء القداس ، لكنه كان يمقت الله : لأن الله
يعرف عن لوسيان اكثر مما يعرف لوسيان عن نفسه . يعرف الله ان لوسيان
لا يحب أمه ولا أباه ، وأنه يتظاهر بأنه عاقل ، وأنه يلامس عضوه عند
المساء في السرير . ولحسن الحظ ، ليس بإمكان الله ان يتذكر كل شيء ، لأن
في العالم كثيراً من الصبيان الصغار . فحين يضرب لوسيان على جبينه قائلًا :

« بيكوتان » كان الله ينسى لتوّه ما يراه . وألقى لوسيان على عاتقه مهمة اقناع الله بحبه لأمه . « لكم أحب أمي العزيزة » لكن فيه زاوية صغيرة لم تكن مقتنعة ، والله بالطبع يرى هذه الزاوية الصغيرة . وفي هذه الحال يكون « هو » الرابع . لكن بإمكان المرء أحياناً ان يؤخذ تماماً بكل ما يقوله . إذ يقول : « أوه ! كم احب والدتي » ، بلفظ جميل ، فيحس بأنه يرق ، ويفكر تفكيراً مبهماً ، بأن الله ينظر اليه ثم لا يعود يفكر ، اذ يصبح مأخوذاً بالحنو . ثم ان هناك كلمات تتراقص في الأذن : « أمي . أمي . أمي » ولا يستمر هذا سوى لحظة بلاريب ، وكان لوسيان يريد أن يوقف الكرسي على رجلين اثنين . وفي هذه اللحظة يقول : « باكوتا » فيصنع الله من جديد : فهو لم ير سوى الخير ، وما رآه يعلق في ذاكرته نهائياً . بيد ان لوسيان قد سئم هذه اللعبة لأنها تستوجب جهوداً عنيفة ، ولا ندري في النهاية إذا كان الله قد ربح أم خسر . ولم يعد لوسيان يهتم بالله . ولما تناول للمرة الاولى ، قال عنه الكاهن إنه أعقل وأتقى صبي في التعليم المسيحي . كان لوسيان يفهم بسرعة كما ان ذاكرته قوية ، لكن رأسه مليء بالضباب .

يوم الأحد انقشع الضباب ، وتمزق عندما كان لوسيان يتنزّه برفقة والده على طريق باريس . كان يرتدي بذلته الصغيرة الزرقاء ويصادف عمال أبيه الذين كانوا يقدمون التحية له ولأبيه . كان الأب يقترب منهم فيقولون : مرحباً أيها السيد فلورييه . ولوسيان يحب العمال كثيراً فهم أشخاص كبار ، لكنهم ليسوا كسائر الناس . في البدء كانوا ينادونه يا سيد . ثم انهم كانوا يعتمرون القبعات وأيديهم الضخمة ذات الأظافر القصيرة يبدو عليها الألم . انهم مسؤولون ووقورون . لا ينبغي ان يشد شاربي الأب بوليفو : لأن والد لوسيان يزجره . لكن الأب بوليفو عندما يحدث أباه : يخلع خوذته ، بينما يبقي كل من لوسيان وأبيه قبعتيهما على رأسهما ، وكان ابوه يتحدث بصوت ياسم غليظ :

— حسناً أيها الاب بوليفو ، اننا ننتظر ولده ، حتى يحين موعد فرصته ؟

- في آخر الشهر ايها السيد فلورييه ، شكراً يا سيد فلورييه .

الاب بوليفو كان سعيداً ولم يكن يسمح لنفسه بأن يضرب على مؤخرة لوسيان ملقباً إياه بالضفدع ، كما يفعل السيد بوناردييه ، لانه كان دميماً جداً . لكنه حين يرى الاب بوليفو ، يشعر بأنه رقيق وتعتريه رغبة بأن يكون صالحاً . ومرة ، بعد العودة من النزهة ، اخذ الاب لوسيان على ركبتيه وشرح له ما هو الرئيس . أراد لوسيان ان يعرف كيف كان أبوه يتحدث الى العمال عندما يكون في المصنع ، وبين له الوالد الطريقة وقد تبدل صوته تماماً . فسأله لوسيان : « هل سأصبح رئيساً بدوري ؟ »

- بكل تأكيد ، يا رجلي الطيب ، فلماذا صنعتك .

- ولما سأعطي الاوامر ؟

- حسناً ، عندما أموت ، ستصبح رب العمل في المصنع وستأمر على عمالي .

- لكنهم سيموتون هم أيضاً .

- حسناً ، ستأمر على ابنائهم ، وينبغي أن تعرف كيف يطيعونك ويحبونك .

- وما ينبغي ان اعمل ليحبوني يا أبي ؟

وفكر الاب قليلاً ثم قال :

- اولاً ، عليك أن تتعرف عليهم كل باسمه .

لقد تأثر لوسيان كثيراً ، ولما اتى ابن المعلم موريل الى البيت ليعلن ان اباه فقد اصبعين ، تحدث اليه لوسيان بهدوء ورفق ، ناظراً اليه في وجهه وهو يناديه باسمه ، موريل . وقالت الام انها فخورة بأن يكون لها ولد صغير طيب وحساس الى هذا الحد . وبعد ذلك ، جاءت الهدنة ، وصار الاب يقرأ

الجريدة بصوت عال كل مساء . والجميع يتحدثون عن الروس ، وعن الحكومة الألمانية والإصلاحات ، وأخذ الأب يدل لوسيان على البلدان الواقعة على الخريطة ؛ أمضى لوسيان أكثر سنواته ضجراً ، كان يفضل زمن الحرب . أما الآن فيبدو أن الجميع ليس لهم عمل ، كما انطفأ البريق الذي كان يرى في عيني السيدة كوفان . وفي تشرين اول ١٩١٩ ، وضعت السيدة فلورييه في مدرسة القديس يوسف كتلميذ في القسم الخارجي .

كان الطقس حاراً في مكتب الأب جروميه . ووقف لوسيان قرب مقعد الأب واضعاً يديه خلف ظهره ، متضجراً أكثر ما يكون عليه الضجر . « ألا تريد أمي أن تذهب في الحال ؟ » . لكن السيدة فلورييه لم تكن تفكر بالذهاب . بل انها جلست على طرف الكنبه الخضراء مائة صدرها الواسع نحو الأب . كانت تتكلم بسرعة فائقة ، بصوت ذي جرس موسيقي ، مثلما كانت عليه عندما غضبت وأرادت الا تظهر غضبها . اما الأب فكان يتكلم على مهل ، وبدأت الكلمات في فمه أطول مما كانت عليه عند سائر الاشخاص ، حتى وكأنه يمتص الكلمات كالسكر قبل ان يدعها تمر . كان يشرح للوالدة أن لوسيان صبي صغير مهذب نشيط لكنه عديم المبالاة بشكل فظيع ، فتقول السيدة فلورييه إنها اصببت بخيبة أمل لانها ظنت ان تغيير المحيط سيكون له اثره الحسن . وسألت ما اذا كان يلعب اثناء الفرص على الاقل . فاجاب الأب :

- للأسف يا سيدتي ، فحتى الألعاب يبدو أنها لا تهتم . انه طائش في بعض الاحيان الى حد العنف لكنه يتعب بسرعة . أظن ان المثابرة تنقصه .

وفكر لوسيان :

- انها يتحدثان عني .

هما شخصان كبيران ، يصنعان موضوع حديثها ، تماماً وكأنها يتحدثان عن

الحرب أو عن الحكومة الألمانية أو السيد بونكاريه . كانت تبدو عليها مظاهر الرصانة وهما يفكران بحالته . لكن هذا التفكير لم يكن ليروق له . وقد امتلأت أذناه بكلمات أمه ذات الجرس ، وبكلمات الأب اللزجة الذائبة ، واعتزته رغبة بالبكاء . ولحسن الحظ ، دق الجرس ، فأعيدت إليه حرته . ولكن في درس الجغرافيا ، ظل منفعلًا وطلب إلى الأب جاكين أن يسمح له بالذهاب إلى الزاوية لأنه يريد أن يتحرك .

في البدء ، هدأت من روعه برودة الزاوية والرائحة العطرة فضلاً عن العزلة . ورفع رأسه وأخذ يقرأ ما كتب على الباب . لقد كتب بالقلم الأزرق : « باراتو هو بقعة » . فابتسم لوسيان : كان هذا صحيحاً ، فباراتو هو بقعة ، إذ إنه صغير الحجم ، ولعله سيكبر قليلاً ، ولكن لا ، لأن أباه شديد القصر فهو أقرب إلى القزم . وتساءل لوسيان إذا كان باراتو قد قرأ هذه الكتابة وظن بأنه لم يقرأها : وإلا لكانوا أزالوها . إذ أن باراتو لا بد وأن يضع يده في فمه ويفرك الحروف حتى تختفي . وسر لوسيان بعض الشيء عندما تصور أن باراتو سيذهب في الساعة الرابعة إلى الزاوية الصغيرة وسينزل سرواله الخمي الصغير ويقرأ : « باراتو هو بقعة » لعله لم يفكر قط بأنه شديد القصر . ووعده لوسيان نفسه بأن يدعوهُ بالبقعة ابتداءً من صباح الغد عند الفرصة . ثم نهض وقرأ على جدار اليمين خطأً مكتوباً بالقلم الأزرق أيضاً : « لوسيان فلورييه هو هليوننة كبيرة » . فمحا الخط بعناية وعاد إلى الصف . وفكر في نفسه وهو ينظر إلى رفاقه :

— حقاً انهم جميعاً أقصر مني .

وأحس بأنه غير مرتاح . « هليوننة كبيرة » . وجلس إلى مكتبه الصغير . كانت جرمين في المطبخ ، ووالدته لم تعد بعد . وكتب « هليوننة كبيرة » على ورقة بيضاء لكي يصحح خطأ الاملاء لأن رفاقه أخطأوا في كتابة الكلمة . لكن الكلمات لم تبد جديدة أمامه ولم تحدث فيه أي أثر .

ونادى : جرمين ، يا جرمين !

فسألته جرمين :

— ماذا تريد ايضاً ؟

— جرمين ، أريد ان تكتبي على هذه الورقة « لوسيان فلورييه هو هليونة كبيرة » .

وأحاط عنقها بذراعيه :

— جرمين ، يا جرمين الصغيرة كوني لطيفة .

— انت مجنون يا سيد لوسيان !

أخذت جرمين تضحك ومسحت يديها بمريولها . وبينما كانت تكتب ، لم يكن لا ينظر اليها ، لكنه أخذ الورقة الى غرفته ونظر اليها طويلاً . كان خط جرمين دقيقاً ، وخيل الى لوسيان انه يسمع صوتاً جاقاً يرن في اذنيه : « ايتها الهليونة الكبيرة » . وفكر في نفسه : « أنا كبير » . لقد سحقه الخجل : كبير مثلما أن بارا تو صغير - وكان الآخرون يضحكون من خلف ظهره . وبدا وكأنه قد رمي بمصيره رمياً :

إن رؤية رفاقه من فوق تبدو له طبيعية الى هذا الحد . ولكن في الوقت الحاضر ، يبدو انه حكم عليه بالبقاء كبيراً طيلة حياته . وفي المساء سأل اياه اذا كان بالامكان تصغيره اذا شاء . وقال السيد فلورييه أن لا : ان جميع افراد عائلة فلورييه كانوا طوالاً أقوياء ، وسيكبر لوسيان ايضاً . فيئس لوسيان . ولما لامسته امه نهض وذهب ليرى نفسه في المرآة . « أنا طويل » . لكنه مهما تطلع ، فلن يرى شيئاً ، فلم يكن يبدو عليه انه طويل او قصير . وشمر قميصه قليلاً ونظر الى ساقيه . عندها تصور أن كوستيل يقول لهبرار : — انظر ، انظر ساقى الهليونة الطويلتين ، وكان هذا يضحكه . الطقس

بارد . ارتجف لوسيان وقال احدهم : « إقشعر بدن الهليوننة » . وشمر قميصه
أيضاً ورأى سرّته ، وكلّ دكانه ثم ركض الى سريره وانزلق فيه . وعندما
وضع يده تحت قميصه ، فكر بأن كوستيل يراه ويقول :

— انظروا قليلاً ما تفعله « الهليوننة الكبيرة ! » وارتعش ودار في سريره .
وهو يلهث : « الهليوننة الكبيرة ! الهليوننة الكبيرة ! » حتى وجد تحت
اصابعه مكاناً يتأكله .

في الأيام التالية ، رغب في ان يطلب الى الاب ان يسمح له بالجلوس في آخر
الصف . كان ذلك بسبب بواسيه وونكلمات وكوستيل الذين كانوا وراءه .
وبامكانهم ان ينظروا الى رقبتهم ، كان لوسيان يحس برقبته ، ولكن بدون ان
يراهم وغالباً ما كان ينساها . لكنه عندما كان يحسن الاجابة على سؤال الأب ،
ويجيد إلقاء كلام دون دياغ ، كان الآخرون وراءه ينظرون الى رقبتهم وبامكانهم
ان يسخروا منه قائلين : « يا لها من نحيلة ، ففي عنقه حبلان » . ويجهد
لوسيان نفسه لكي يضحخ صوته ويعبر عن إهانة دون دياغ . كان يستطيع ان
يفعل بصوته ما يشاء . لكن رقبتهم لا تزال في مكانها ، هادئة غير معتبرة وكأنها
شخص يرتاح ، فيراها باسيه . ولم يجرؤ على تغيير مكانه ، لأن المقعد الأخير
كان مخصصاً للكسالى ، لكن رقبتهم وكتفيه كانتا تتأكلانه طيلة الوقت وكان
مرغماً على حكاها بلا انقطاع . واخترع لوسيان لعبة جديدة : أن يغتسل
عند الصباح بمفرده كالأشخاص الكبار ، كان يتصور أن أحداً يتطلع اليه
من ثقب الباب . تارة ما يكون هذا الشخص كوستيل ، وطوراً الأب
بوليفو ، وطوراً آخر جرمين . وعندها دار في جميع الجهات حتى يراه الجميع
من جميع وجوهه ، وكان يدير قفاه أحياناً نحو الباب ويقف على أربع حتى
يقع فيضحك الناس . في أحد الأيام ، وكان في المكان الصغير ، سمع بعض
القرقعة ، انه جرمين تريد أن تمسح طاولة الممر . وتوقف قلبه عن الحركة ، وفتح
الباب بتؤدة وخرج ، ولا يزال سرواله عند قدميه ، وقميصه مشمرة عند

خاصرتيه . كان مرغماً على القيام بقفزات صغيرة لكي يتقدم بدون ان يضع توازنه . ونظرت جرمين اليه وتساءلت في نفسها هل هو في حلبة السباق . ورفع بنطلونه بغضب وراح يرتمي فوق سريره . كانت السيدة فلورييه متأثرة ، وغالباً ما كانت تقول لزوجها : « هو الذي كان رائعاً في طفولته ، انظر كيف اصبح الآن ؛ ويا للأسف » . وينظر السيد فلورييه نظرة ضائعة نحو لوسيان ويقول :

« انه عامل السن ! » لم يكن لوسيان يدري ما يجب ان يفعله بجسمه ، وتهياً له ان هذا الجسم يفرض وجوده من جميع النواحي بدون ان يستشير ، وتصور لوسيان انه غير منظور ، ثم اتخذ لنفسه عادة النظر الى الآخرين من خلال ثقب الأبواب ليعرف كيف يكون وجود الآخرين حين لا يشعرون به . رأى أمه عندما تستحم . كانت جالسة على مقعد الحمام ، يبدو عليها النعاس ، ولا شك انها نسيت جسمها ، وحتى وجهها لأنها لاتظن بأن أحداً يراها . والأسفنجة تروح وتجيء تلقائياً على هذا اللحم المهجور . وتقوم بحركات خاملة ، الأمر الذي يبعث على الظن بأنها ستتوقف في منتصف الطريق . وفركت الأم شيئاً بالصابون ثم اختفت يدها بين ساقها . كان وجهها مرتاحاً ، حزيناً بعض الحزن ، لا شك انها تفكر في أمر آخر ، بتربية لوسيان أو بالسيد بوانكاريه . لكنها ليست ، في هذا الوقت سوى هذا الجسم الوردى الضخم الجالس على مقعد الحمام . ثم راح لوسيان ينظر من خلال ثقب آخر . فرأى جرمين بقميص أخضر طويل ، تسرح شعرها أمام مرآة صغيرة مستديرة وتبتسم لصورتها برخاوة . واعترت لوسيان ضحكة مجنونة ومالبت ان ابتعد بسرعة . بعد ذلك أخذ يبتسم ويكشر ايضاً في قاعة الاستقبال ، وما هي إلا لحظة حتى اعتراه خوف شديد .

وما لبث لوسيان أن استسلم للنوم ؛ ولكن ، لم يقع عليه نظر أحد ، سوى السيدة كوفان . إن كتلة من الهواء كبيرة كانت تقف في حلقه فلا يستطيع

أن يتلعبها أو ان يبصقها: تلك كانت طريقته في التثاؤب. وعندما يكون وحده
تكبر الكتلة كثيراً حتى تصل الى اسفل حلقه . فيفتح فمه على أشده ،
وتتدحرج الدموع من عينيه : انها لحظات عذبة . لم يكن يتسلى قدر تلك
التسلية حينما يكون في غرف الغسيل ، لكنه كان يحب أن يعطس ، وهذا
ما يوقظه ، فيتطلع حوله بنظرة تائهة . وتعرف على النوم بجميع أنواعه .
في الشتاء كان يجلس أمام الموقد ويمد رأسه نحو النار . حين تكون النار
شديدة الاحمرار ، تحترق بسرعة . وهذا ما كان يسميه « النوم عن طريق
الرأس » . صباح الأحد كان على العكس ينام عن طريق القدمين : كان يدخل
الحمام ، وينحني قليلا فيصعد النعاس على طول ساقيه وخاصرتيه . ومن فوق
جسمه النائم كان يظهر رأسه الأشقر زاخراً بالأفكار . وفي الصف كان
النعاس أبيض ، تتخلله البروق : « ماذا تريد أن يفعل تجاه ثلاثة ؟ » الأول:
لوسيان فلورييه . الثاني: وينكلمان . أما بليرو فكان الأول في مادة الجبر . لم
يكن لديه سوى خصية واحدة أما الثانية فلم تنزل . كان يفرض قرشين اثنين
على النظر ، وعشرة قروش على اللمس . ونقده لوسيان القروش العشرة ، وتردد ،
ومدّ يده بدون أن يلامس ، لكنه ندم على عمله هذا الى حدّ انه ظل مستيقظاً
بعد موعده بساعة . لم يكن ماهراً في علم الجيولوجيا بقدر ما كان عليه في
التاريخ . إنه الأول ، وونكلمان ثاني فلورييه . يوم الأحد كان يذهب للنزهة
على الدراجة ، برفقة كوستيل وونكلمان . والدراجة تجوب الحقول فوق
الغبار الناعم في طقس شديد الحرارة . كانت ساقا لوسيان مفعمتين بالحويوة ،
مليئتين بالعضلات لكن رائحة الطرقات كانت تصعد الى رأسه فينحني فوق
مقوده ، وتحمّر عيناه ، ويغمضها شبه اغماضة . حاز ثلاث مرات على درجة
الشرف . وقدموا له « فابيولا أو كنيسة الدياميس » ، و« عبقرية المسيحية »
وحياة « الكاردينال لافييجري » . وكوستيل علمهم جميعاً بعد العطلة على
« الذي بروغونديس موريونيديوس » . وعلى نشيد المدفع في متر . وقرر
لوسيان أن يبحث في قاموس أبيه الطبي عن الفصل المتعلق « بالرحم » . وبعدها

شرح لهم كيف تكون النساء. حتى انه رسم لهم صورة على اللوح، وصرح كوستيل بأن ذلك مؤسف، وبعد ذلك لم يعد بإمكانه ان يتحدث عن الاقنية بدون أن ينفجر بالضحك. وفكر لوسيان بأنه ما من طالب في الصف الثاني أو حتى في صف البكالوريا يتقن معرفة أعضاء المرأة كما يتقنها هو.

ولما أقامت عائلة فلورييه في باريس، كان ذلك بمثابة بريق من المانييزيوم. لم يعد بوسع لوسيان أن ينام بسبب صالات السينما والسيارات والشوارع. وتعلم كيف يميز بين سيارة الفوازين والبكار، وبين الاسبانو سوزا والرولز. منذ أكثر من سنة بات يرتدي السروال الطويل. وأرسله ابوه الى انكلترا مكافأة له على فوزه بشهادة البكالوريا. ورأى لوسيان مروجاً تزخر بالمياه، ومنحدرات بيضاء، وتعلم الملاكمة عند جون لايمر، ولكنه في احدى الليالي استيقظ في نومه، لقد عاوده الروباص فعاد مروبصاً الى باريس: كان صف الرياضيات في الليسيه كوندورسيه يعد سبعة وثلاثين طالباً، بعضهم يحقر لوسيان، وظلوا يحقرونه حتى أول تشرين الثاني، وهو عيد جميع القديسين، وذهب لوسيان للنزهة مع صديقه غاري، وأبدى له معلوماته في التشريح الأمر الذي بهر الرفيق. ولم ينضم لوسيان لتلك الجماعة من الطلاب لأن أهله منعه من الخروج صباحاً.

يوم الخميس جاءت العمه برت، لتتناول طعام الغداء مع ريري. في شارع رنواه. لقد اصبحت ضخمة الجثة حزينة، أمضت وقتها في التنهد. ولكن بما أن جسمها ظل طريئاً ناعماً، فقد تمنى لوسيان أن يراها عارية. كان يفكر فيها مساء في سريره: سيعثر عليها في يوم من ايام الشتاء، عارية في غابة بولونيا، تضع يديها فوق صدرها وقد اقشعر جسدها. وتصور أن احد المارة، وهو قصير النظر، لامسها بعصاه قائلاً:

« ولكن ما هذا؟ »

لم يكن لوسيان يتفق كثيراً مع ابن خالته: أصبح ريري شاباً جميلاً شديد

الاناقة ، يدرس صف الفلسفة في لا كانال ولا يفقه شيئاً عن الرياضيات . ولم يكن لوسيان ليستطيع ان يمنع نفسه عن التفكير بريري . قبل سبع سنوات فقط كان يوسخ في سرواله ، فيمشي بعدها منفرج الساقين كالبطة ، وينظر الى امه قائلاً :

- كلا يا أمي ، لم أفعل هذا . وأعدك بذلك . كان يشعر ببعض الاشمئزاز عندما يلامس ريري . لكنه ، رغم ذلك ، كان لطيفاً جداً معه وهو يشرح له دروس الرياضيات . وكان عليه ان يبذل مجهوداً قوياً لأن ريري لم يكن ذكياً . غير أنه لم يثر قط ، بل انه حافظ على صوته الهادىء . ووجدت السيدة فلورييه ان لوسيان كان على جانب كبير من الدماثة ، لكن العمه برت لم تجد له أية حسنة . ولما كان لوسيان يقترح على ريري ان يعطيه الدرس ، تحمر السيدة برت وتهتز فوق كرسيها وتقول :

- كلا ، انت لطيف جداً يا لوسيان الصغير ، لكن ريري كبير جداً . فبإمكانه ان يتعلم لو أراد ، فلا ينبغي ان تعود الاعتماد على الآخرين . وذات مساء قالت السيدة فلورييه فجأة للوسيان :

« أو تظن ان ريري شاكر لك صنيعك معه ؟ كلا عد عن خطئك يا ولدي العزيز . »

تكلمت بصوتها ذي الجرس وبسياء حسنة . وفهم لوسيان أنها تستشيط غيظاً . واحس بانزعاجه ولم يجد شيئاً للإجابة . وفي الغد وبعده ، حدثت له مشاغل كثيرة فخرجت هذه القصة من ذهنه .

ويوم الأحد صباحاً ، ألقى ريشته فجأة وقال : « اصحيح اني لا أميز . كانت الساعة الحادية عشرة . ولوسيان جالس الى مكتبه ينظر الى صور الأشخاص المعلقة على الجدار . وأحس خده بحرارة نيسان الجافة الغبراء .

- اصحيح اني لا أميز ؟

كانت الاجابة عسيرة . وحاول لوسيان ان يتذكر محادثته الأولى مع ريري وان يحكم على موقفه بلا تحيز . كان قد انحنى فوق ريري وسأله باسم :

– انت تفعل ذلك ؟ ان كنت لا تفعل يا عزيزي فاعترف بذلك ؟

وبعدها بقليل ارتكب خطأ في الحلّ فردد تعبيراً اخذه عن أبيه . ولكن هل كنت اهذر عندما قلت هذا ؟ ولشدة ما بحث توصل الى معرفة شيء غامض في ذهنه يشبه قطعة الغمام : إنها فكرته في ذلك اليوم ؛ قال : انت تفعل هذا ؟ لقد حصل هذا في رأسه ، لكنه لم يكن يوصف . وبذل لوسيان جهوداً « يائسة » لينظر الى هذه الغمامة ، وأحس فجأة بأنه وقع فيها ، ابتداء من الرأس . وقد تحول هو نفسه الى غبار ، ولم يعد بعد الآن سوى حرارة بيضاء رطبة ، تفوح منها رائحة الغسيل . وأراد أن يتجنب هذا الغبار بتراجعه قليلاً ، لكن الغبار كان يأتي معه . وفكر في نفسه : « أنا لوسيان فلورييه ، أجلس في غرفتي ، أحل مسألة في الطبيعيات ، واليوم يوم أحد » . لكن افكاره تحولت الى ضباب ، بياض على بياض . وارتعش قليلاً وجعل يحلل شخصيات اللوحات الموجودة على الجدار ، راعيان وراعيتان و« الحب » ثم قال في نفسه فجأة : « أنا ، اني ... »

وحدثت ضجة خفيفة : فاستيقظ من روبا صه الطويل .

لم يكن هذا شيئاً اذ قفز الرعيان الى الورا ، وبدا للوسيان انه ينظر اليه من خلف نظارة . وحل مكان الدهشة التي استبدت به ، نوع من الحيرة اليقظة وتساءل :

« من أنا ؟ »

« من أنا ؟ » أنا أنظر الى المكتب ، الى الدفتر . اسمي لوسيان فلورييه وليس هذا سوى اسم . انني اهذر ، أو لا أهذر . لست أدري . فليس لهذا

أي معنى .

« أنا تلميذ نشيط : ولكن التلميذ النشط يجب العمل - وأنا لا أحب العمل . كما أنني لا أكره العمل ، غير انه لا يهمني . لا شيء يهمني . لن أصبح قط رئيساً » . وفكر بنفسه قلقاً : « ولكن ماذا سأصبح يوماً ما » ومرت هنيهة . وحك خده وغمز بعينه اليسرى لأن الشمس بهرتته : « من أكون أنا ؟ » . إنها غمامة غامضة : « الأنا » . ونظر الى البعيد . فرنت الكلمة في رأسه ، وأحس بشيء يشبه الهرم يغرق في الضباب . وارتعش لوسيان وارتجفت يدها وفكر في نفسه :

- ها قد توصلت . اجل توصلت . وأنا متأكد : « أنا لست موجوداً » .

طيلة الأشهر التالية ، حاول لوسيان ان ينام ولكنه لم يستطع الى ذلك سبيلاً . كان ينام تسع ساعات في اليوم اما الباقي فكان يمضيه في الحيرة التي تزداد يوماً عن يوم ! كان أبواه يقولان بأنه على أحسن حال . وعندما فكر بأنه لن يكون له رداء الرئيس ، أحس بأنه رومنطريقي . واعترقته رغبة بالمسير ساعات في ضوء القمر . لكن أبويه لا يسمحان له بالخروج مساء . في أغلب الأحيان كان يتمدد فوق سريره ويقيس حرارته : فيسجل الميزان ٣٧,٥ أو ٣٧,٦ ، ويفكر لوسيان بلذة مريرة كيف ان أبويه يجدانه بصحة جيدة . « أنا لست موجوداً ! » واغمض عينيه وترك الأمور وشأنها .

الوجود ما هو إلا وهم ؛ وبما أنني اعرف أنني لست موجوداً ، فعلياً إذاً أن اسد اذني ولا افكر بشيء ، اريد ان انعدم . لكن الوهم قاس . لعلة يعرف على الأقل سراً لا يدركه الآخرون وهو نوع من التفوق : غاري ، مثلاً ، ليس موجوداً ومثله مثل لوسيان . ولكن ما أن يرى بين المعجبين حتى يقال بأنه يؤمن إيماناً راسخاً بوجوده . والسيد فلورييه هو ايضاً غير موجود - وكذلك ريري وأي انسان آخر - والعالم مهزلة بلا ممثلين . ولوسيان الذي حاز على علامة ١٥ في موضوع « الاخلاق والعلم » . فكر بأن يكتب

« موضوعاً عن العدم » وتصور أن الناس عند قراءته سيختفون الواحد تلو الآخر، كالأفاعي عند صياح الديك . وقبل أن يبدأ بكتابة موضوعه ، أراد ان يأخذ رأي بابوان استاذ الفلسفة . قال له عند ختام الدرس :

— ارجوك يا استاذ ، هل بإمكاننا أن ندافع عن فكرة عدم وجودنا؟

فأجاب بادوان بالنفي وقال :

« أنت موجود لأنك تشك بوجودك » . ولم يقتنع لوسيان لكنه عدل عن كتابة موضوعه . في تموز، نجح بغيرضجة في امتحان البكالوريا، فرع الرياضيات، وذهب الى فيرول برفقة أبويه . ولم تتبدد الحيرة فيه ، كان ذلك كالرغبة في العطس .

ومات الأب بوليفو ، وتغير أسلوب العمال ، عمال السيد فلورييه . فهم يقبضون الآن مرتبات ضخمة ، وصارت زوجاتهم يشترين جوارب الحرير . وسردت السيدة بوفارديه وقائع رهيبة على مسمع السيدة فلورييه :

« أخبرتني الخادمة بأنها رأت عند بائع الشواء أمس ، أوزيوم الصغيرة ، وهي ابنة أحد عمال زوجك ، تلك التي أوليناها عنايتنا بعد وفاة أمها . لقد تزوجت من عامل فني من بوبرتوي . طلبت فزوجاً سعره عشرون فرنكاً، بوجه ملؤه التعجرف ! لم تعدتعتبر أي شيء لذيذ الطعم تحت أسنانها؛ إنهن يردن ان يكون هن ما لنا » .

في الوقت الحاضر ، عندما يذهب لوسيان برفقة أبيه للتنزه ، لم يعد العمال يكتنون لهما نفس الاحترام الذي كان في السابق ، فهم لا يكادون يلامسون قبعاتهم لتحية الرئيس . ذات يوم ، التقى لوسيان بابن بوليفو فتظاهر بأنه لم يره . وتأثر لوسيان من ذلك ؛ كانت فرصة ليثبت انه رئيس . فحدج جول بوليفو بنظرة كاسرة وتقدم منه واضعاً يديه وراء ظهره . لكن بوليفو لم

يشعر بأي خوف : إذ نظر الى لوسيان بعينين فارغتين وراح يصفر . وقال لوسيان في نفسه : « لم يعرفني » . لكنه شعر في قرارة نفسه بخيبة الأمل ، وبات يفكر اكثر من اي وقت مضى بأن العالم ليس موجوداً .

كان مسدس السيدة فلورييه الصغير موضوعاً في درج الخزانة . وكان زوجها قد قدمه لها في ايلول سنة ١٩١٤ قبل ان يذهب الى الجبهة . فأخذه لوسيان وقلبه بين يديه : انه جوهرة صغيرة ، ذات فوهة مذهبة ، وقبضة مطعمة . ليس بالامكان الاعتماد على موضوع فلسفي لاقتناع الناس بأنهم ليسوا موجودين . فان للاقدام على فعل ما ضروري جداً . فعمل يائس ، يبدد الظواهر ويبين العدم في العالم . كالانفجار ، والجسد الدامي فوق السجادة والكلمات المكتوبة على الورق :

— سأقتل نفسي لانني لست موجوداً :

« وانتم يا اخوتي كذلك ، انكم عدم ! »

ويطالع الناس جريدة الصباح ويرون : « مراهق تجراً » ويحس كل واحد منهم بالاضطراب فيسأل نفسه :

« وأنا ؟ هل أنا موجود ؟ »

عرف في التاريخ ، لا سيما عند نشر فرثير ، أوبئة مشابهة من عمليات الانتحار . وفكر لوسيان بأن كلمة « شهيد » تعني باليونانية « الشاهد » ، كان شديد الاحساس كي يصبح رئيساً وليس شاهداً . وبعدها كان يكرر الدخول الى مخدع أمه ، وينظر الى المسدس ، ويدخل في النزاع الأخير وكان يحدث له أحياناً أن يعض الفوهة المذهبة ويشد أصابعه بقوة على القبضة . ثم يعزیه شعور بالفرح إذ يفكر بأن جميع القادة الكبار حاولوا الانتحار . كنبليون مثلاً . ولم يخف لوسيان على نفسه ما كان يشعر به من يأس . وقرأ باهتمام مذكرات السانت هيلين . كان عليه مع ذلك أن يتخذ قراراً : وحدد لوسيان يوم ٣٠ أيلول كحد أخير لتردده . واصبحت أيامه الأخيرة صعبة

جداً : كانت الأزمة تدفع بلوسيان الى التوتر الشديد ، الى حد انه بات يخشى ان يتحطم ذات يوم كالزجاج . ولم يعد يتجرأ على ملامسة المسدس . بل بات يكتفي بفتح الدرج ، ثم إنه يرفع قليلا غللات أمه ويتمتع بمرأى الوحش الصغير البارد الذي يرقد في ثوب الحرير الوردي . غير انه حين قرر أن يعيش ، أحس بفراغ شديد ، وبأنه عاطل عن العمل . ولحسن الحظ أن هموم المدرسة قد عاودته : إذ أرسله أبواه الى الليسه سان - لويس ليتابع الدروس الإعدادية لدخول المدرسة المركزية . وارتدى مئزره الأحمر الجميل الذي يحمل الشارة وراح يغني :

« انه المخروط الذي يدير الآلات

انه المخروط الذي يدير القاطرات .. »

إن مقدرة « المخروط » الجديدة كانت تبعث الفخار في نفس لوسيان . ثم إن صفته لا يشبه صف الآخرين : إذ كانت له تقاليد واحتفالاته الخاصة . كان نوعاً من القوة . فقد أضحى من المؤلف ان يقوم الطلاب قبل انتهاء درس اللغة الفرنسية ويصيح أحدهم : « ما هو السيار ، فيجيب الجميع : « إنه الفرغ ! » فيردد الصوت من جديد : « وما هو الآغرو ؟ » فيجيبون بقوة أكثر : « انه الفرغ » . عندها يقول المعلم باتون الذي كان كفيف البصر نوعاً ما ويضع نظارتين سوداوين ، يقول باعياً :

— أرجوكم ايها السادة . ومرت لحظات من الصمت المطبق ، كان التلامذة خلالها ينظرون الى بعضهم البعض بنظرات تتم عن الذكاء ، ثم يصيح أحدهم : « ما هو المخروط ! » فيزأرون معاً : « انه شخص ضخم ! » في هذه اللحظة يشعر لوسيان بأنه قد احترق . في المساء ، كان يقص على أبويه بدقة ما جرى له في النهار وعندما يقول : « والصف بأ كمله أخذ يهذر ... » أو « الصف بأ كمله قرر ان يعزل ميرينه » . كانت الكلمات عند مرورها تسخن فمه كجرعة من الكحول . كانت الأشهر الأولى مع ذلك ، قاسية جداً : كان لوسيان

يتخلف عن تقديم مسابقات الرياضيات والفيزياء، ثم ان رفاقه لم يكونوا حسني العشرة : كل على حدة : كانوا في غالبيتهم يقبضون المنح الدراسية كما ان لهم عادات سيئة . ويقول لوسيان لأبيه : « ما من احد منهم يمكن ان يكون لي صديقاً - ويقول السيد فلورييه ! أصحاب المنح الدراسية هم عادة من المثقفين لكنهم لا يصبحون في المستقبل قادة من ذوي الكفاءة : أذ انهم أسرعوا في تدرجهم » .

وعندما سمع لوسيان عن « القادة الفاسدين » . أحس بأن شيئاً ما يؤلمه في قلبه ، وفكر من جديد بالانتحار ، طيلة الأسابيع التي تلت . لكنه لم يعد ينطوي على نفس الحماس الذي كان عليه أثناء العطلة . في شهر كانون الثاني فضح احد الطلبة واسمه برلياك الصف بأسره : كان يرتدي سترة خضراء او بنفسجية على آخر طراز ، ذات قبة مستديرة فوق سروال كالسراويل التي في كتب الخياطين، ضيق جداً الى حد يثير التساؤل : إذ كيف استطاع ان يرتدي هذا السروال . وحل برلياك اخيراً في الرياضيات وصرح بقوله :

- لا يهمني الأمر ، فأنا من الفرع الأدبي، وأدرس الرياضيات للتقوية ليس إلا . وما هو إلا شهر حتى سحر الجميع : كان يوزع لفائف مهربة ، يقول لرفاقه بأن لديه نساء ، ويبيدي لهم الرسائل التي بعثن بها اليه . وقرر جميع من في الصف اعتباره شاباً أنيقاً ، وبأن عليهم ان يريحوا أنفسهم منه . كان لوسيان معجباً باناقته وبأساليبه ، لكن برلياك كان يلقيه « بصبي الأغنياء » وقال لوسيان في أحد الأيام : « بعد هذا ، وددت لو كنت ابن فقير . » وابتسم برلياك وقال له : « انت كليّ ساخر » . وفي اليوم التالي اطلعه على قصيدة : « كان كاريزو يهذر بعينيه النيئتين كل مساء ، انه صبور كالجمل . صنعت امرأة باقة من أعين عائلتها وألقت بها على المسرح . والكل انحنوا أمام هذا العمل النموذجي . ولكن لا تنسوا أن ساعة المجد دامت سبعة وثلاثين دقيقة : تماماً منذ الهتاف الأول وحتى انطفاء أضواء الأوبرا (وبعدها كان ينبغي ان تجر

زوجها، وهو الحائز على عدة جوائز ، وكان يسد بصليبين اثنين المحجرتين اللذين تقع فيهما عيناه). وانتبه الى هذا، ان جميع الذين يفرطون في أكل اللحم البشري المحفوظ . يموتون من نقص في الفيتامين « .

فقال لوسيان وقد خرج عن طوره :

– حسناً حسناً .

وقال برلياك برخاوة :

– سأحوز عليها ، بطريقة فنية جديدة ، فهذا ما يسمى بالكتابة الآلية . ولم يمض وقت طويل حتى شعر لوسيان برغبة عنيفة في الانتحار وصمم على استشارة برلياك وسأله بعد أن عرض قضيته :

– ماذا ينبغي أن أفعل ؟

واصغى اليه برلياك باهتمام . وكان قد تعود على ان يمص اصابعه وان يطلي بريقه البثور الموجودة على وجهه ، بحيث ان جلده كان يلمع في هذا المكان أو ذاك، وكأنه طريق تبللت بالمياه في أمكنة مختلفة . وخلص الى القول :

– اصنع ما شئت فليس لهذا أية أهمية .

وفكر قليلاً ثم اضاف وهو يشد على الكلمات :

– ما من شيء له أهمية .

واصيب لوسيان بخيبة أمل ، لكنه فهم أن برلياك قد تأثر كثيراً حين دعاه للعشاء في بيت والدته . كانت السيدة برلياك محببة جداً . وعلى وجهها آثار بقع ، تجاه خدها الأيسر . وقال برلياك للوسيان :

– هل ترى ؛ انما نحن ضحايا الحرب الحقيقيين .

كان هذا رأي لوسيان ايضاً وقرر أي الاثنين على انها ينتميان معاً للعجيل

الضحية . وطلع النهار ، وبرلياك لا يزال ممدداً فوق سريره ، وقد اشتبكت يدها تحت رقبته . كانا يدخنان اللغائف الانكليزية . ويصغيان الى الاسطوانات ، وأصغى لوسيان لصوت صوفيا توكر وآل جونسون . واعتراه نوع من الكآبة ، وفكر لوسيان بأن برلياك هو خير اصدقائه . وسأله برلياك ما اذا كان يعرف التحليل النفسي . كان صوته مجداً ، وينظر الى لوسيان باتزان . وأسر اليه قائلاً :

— لقد اشتيت أمني حتى سن الخامسة عشرة . وشعر لوسيان بالانزعاج . وخشي ان يحمر وجهه وتذكر وجه السيدة برلياك المشوه ، وتسائل كيف يمكن له ان يشتهيها . لكنها حين دخلت لتقدم لها الشراب ، بدا عليه الاضطراب وحاول ان يتعرف على صدرها من خلال الثوب الذي كانت ترتديه ، وما ان خرجت حتى قال برلياك بصوت ايجابي :

— انت ايضاً بالطبع ، ترغب في ان تضاجع امك .

لم يكن يسأل بل إنه يؤكد .

فهز لوسيان كتفيه وقال :

— بالطبع .

في صبيحة اليوم التالي كان شديد الاضطراب وخشي ان يعمد برلياك الى تكرار الحديث . لكنه اطمأن بسرعة وقال :

— على كل حال ، لقد تناول نفسه اكثر مما تناولني .

كما دهش كثيراً للطابع الشخصي الذي اتخذته محادثتهم ، وفي يوم الخميس التالي ، قرأ كتاباً من كتب فرويد في مكتبة سانت جنيفيف . كان بمثابة وحي . وكرر لوسيان وهو يجوب الشوارع :

— انه هذا إذا ، إنه هذا .

ثم اشترى بعد ذلك « مقدمة التحليل النفسي » و« الامراض النفسية في الحياة اليومية » ، واصبح كل شيء واضحاً لديه . ذلك الشعور الغريب باللاوجود ، وذاك الفراغ الذي عاناه في وعيه ، وتلك الروبصة ، وهاتيك الحيرة ، وتلك الجهود الخائبة في سبيل التعرف على الذات ، تلك الاشياء التي لم تصادف سوى ستار من الضباب .

وفكر في نفسه :

لا بد وان لدي عقدة نفسية . وشرح لبرلياك كيف انه ، حين كان صغيراً ، تصور نفسه مروبصاً ، وكيف ان الاشياء لم تبد له وكأنها واقعية ، وخلص الى القول : « لا بد وان اكون مصاباً بعقدة نفسية » . فقال برلياك : « تماماً كما أنا » . واعتادا معاً على تفسير احلامها وأقل حركة من حركاتها . وكازت لدى برلياك قصص كثيرة ، ظن لوسيان لوفرتها بأن صديقه يخترعها او انه يحسنها . لكنها كانا متفقين تمام الاتفاق ، يتناولان اشد المواضيع تعقيداً بطريقة موضوعية . واعترف كلاهما بأن مسحة السرور التي تكتنفها ان هي إلا قناع لخداع الآخرين . بينا هما في الواقع معذبان . وتخلص لوسيان من هواجسه . وانكب بشغف على دراسة التحليل النفسي لانه وجده ملائماً له ، وأحس انه اكثر اطمئناناً ، وليس عليه بعد الآن إلا ان يجد جميع الظواهر الملموسة من طبيعته ، في نطاق الوعي . بل ان لوسيان الحقيقي انما هو غارق في اللاوعي . وينبغي ان يحلم به دون ان يراه كمن يحلم بعزير غائب . وصار لوسيان يفكر طيلة اليوم بعقده النفسية ويتصور بنوع من الفخار ، العالم المظلم ، العالم القاسي العنيف الذي يختبئ في البحرة وعيه . وقال لبرلياك :

— هل تدري ! لقد كنت في الظاهر صبياً ناثماً غير آبه لشيء ، كنت شخصاً لا أهمية له . وكنت شديد التأثر بهذا الاعتقاد حتى كدت ان اتمسك به . لكنني كنت أعرف بان هناك شيئاً آخر .

فأجاب برلياك :

— هناك دائماً شيء آخر .

وتبادلا الابتسام بكل فخار . ونظم لوسيان قصيدة بعنوان « عندما يتمزق الغمام » فوجدها برلياك رائعة ، لكنه أخذ على لوسيان طريقته في نظمها حسب الأوزان المعروفة . وحفظاها مع ذلك غيباً ، وكانا يقولان بكل طيبة خاطر عندما يريدان الكلام عن نوازعها الجنسية :

« السرطانات الكبيرة المكدسة تحت معطف الغمام » . أو يختصران بقولهما : « السرطانات » وهما يغمزان بأعينها . ولم يمض بعض الوقت حتى بات لوسيان يجد هذا رهيباً ، عندما يخلو لنفسه . ولم يعد يتجرأ على النظر الى امه في وجهها ، وكان يخشى ، حين يقبلها قبل النوم ، أن تحول القوة غير المنظورة قبلته نحو فم السيدة فلورييه ، إن نفسه تنطوي على بركان . وتعهد لوسيان نفسه بعناية فائقة حتى لا يهد تلك النفس المتعاضمة المشؤومة التي وجدها فيه . إنه بات يعرف ثمنها حق المعرفة ويخشى هباتها العنيفة . ويقول في نفسه : « أنا اخاف من نفسي » . لقد انقطع منذ ستة اشهر عن ممارسة العادة السرية لانها كانت تقلقه وكان لديه الكثير من المشاغل ، لكنه عاد اليها : على المرء ان يتابع خطته ، وكتب فرويد مليئة بقصص الكثيرين من الشباب التاسعين ممن اصابوا بالعصاب لأنهم انقطعوا فجأة عن ممارسة عاداتهم . كان يسأل برلياك :

— أفلمن نصبح مجانين ؟ لذا كانا يحسان بغرابتهما . وتسلسل الظل الى غرفة برلياك وكان قد أحرق عدة علب من السكائر كما كانت يدها ترتجفان . عندها قام احدهما بصمت ، ومشى بخطى الذئب نحو الباب وأدار الزر . وعمّ النور في الغرفة ، ونظر واحدهما للآخر نظرة ملؤها التحدي .

ولم يتأخر لوسيان في ان يلاحظ بأن صداقته مع برلياك انما هي قائمة على

سوء تفاهم : ما من أحد بلا ريب ، كان اكثر تحسناً منه لعقدة أوديب ، لكنه كان يرى فيها دلالة على قوة العاطفة التي كان يأمل ان يحولها فيما بعد نحو غايات أخرى . اما برلياك ، فكان على العكس سعيداً بحالته ولم يكن يريد الخروج منها . وكان يقول : « نحن اشخاص مارقون ، فاشلون » . فيجيبه لوسيان وكأنه صدهاء : « لن نفعل أي شيء ابداً ، لن نفعل اي شيء » . لكنه كان غاضباً . بعودتهم من عطلة عيد الفصح أخبره برلياك بانه اقتسم مع أمه غرفة واحدة في احد فنادق ديجون . واستيقظ في الصباح الباكر ، واقترب من السرير حيث كانت أمه لا تزال نائمة ورفع الغطاء برفق . وقال ضاحكاً : « كان قميصها مشعراً » . ولم يسع لوسيان حين سمع تلك الكلمات إلا ان يحتقر برلياك بعض الشيء ويحس بعزلته الشديدة . جميل ان يكون لدى المرء عقد نفسية شريطة ان يحسن تصريفها في الوقت المناسب : إذ كيف يمكن للرجل ان يتحمل مسؤولياته ويتولى زمام الامور ، إذا احتفظ بنوازع الطفولة الجنسية ؟ وبدأ لوسيان يقلق كثيراً : كان بوده ان يستشير أحداً ولكنه لم يكن يعرف الى من يوجه سؤاله . غالباً ما كان برلياك يحدثه عن رجل سرّيالي يدعى برجير ، غائص في التحليل النفسي وهو يفوقه معرفة . لكنه لم يقترح قط على لوسيان التعرف عليه . كما شعر لوسيان بالخبية الشديدة لانه اعتمد على برلياك في تدبير النساء له .

وفكر بان وجود صاحبة جميلة من شأنه ان يغير بالطبع مجرى افكاره . لكن برلياك انقطع عن الحديث عن عشيقاته الجميلات . كانا يذهبان في بعض الاحيان تاحية الشوارع العريضة يلاحقان الفتيات بدون ان يتجرآ على محادثتهن . ويقول برلياك :

— ماذا تريد ايها المسكين ، لسنا من الجنس الذي يعجب النساء . فالنساء تحس فينا شيئاً يرعبهن . ولم يجبه لوسيان ؛ إذ أن برلياك بات يزعجه . غالباً ما كان يبدي ملاحظات عديدة اللياقة بشأن أبوي لوسيان ، اذ كان يسميها السيد

دي مولليه وزوجته . كان لوسيان يدرك بان الشخص السريالي يكره البورجوازية على العموم ، لكن برلياك قد تلقى مراراً دعوة السيدة فلورييه ، وقد عاملته على صعيد الصداقة والثقة . فليس من اللياقة إذاً ان يتناولها بهذه اللهجة . ثم ان برلياك كان رهيباً بعادته المستحكمة : ألا وهي استدانة الدراهم بدون ارجاعها : في الأوتوبيس لم يكن لديه دراهم ، وعلى رفيقه ان يدفع عنه الاجرة . وفي المقاهي لم يكن ليقترح سوى مرة واحدة من خمس دفع حسابيه . وقال له لوسيان في احدي المرات ، إنه لا يفهم تصرفه هذا وان على الاصدقاء ان يقتسموا تكاليف نزواتهم . فنظر اليه برلياك بعمق وقال : « كنت أشك في ذلك فأنت ذو نزعة شرجية » وشرح له الصلة التي اعطاها فرويد بين التبرز والبخل . وقال له : « أود ان اعرف كم من الوقت ظلت أمك تنظف قذارتك ؟ »

وكادا ان يتخاصما .

منذ بداية شهر أيار ، أخذ برلياك يتغيب عن الكلية : وكان لوسيان يذهب للالتحاق به بعد انتهاء الدرس في أحد البارات في شارع البقي شان حيث كانا يشربان الفرموث ماركة المصلوب . وفي يوم الثلاثاء بعد الظهر وجد لوسيان صديقه برلياك أمام كأس فارغ . فقال برلياك : « ها أنك اتيت . اصغ انا ذاهب الى عيادة طبيب الأسنان فموعدني في الساعة الخامسة ، انتظرنى نصف ساعة لأن الطبيب يقيم في المكان المجاور » .

وأجابه لوسيان وهو يجلس متهاكاً على الكرسي :

— حسناً . يا فرانسوا اعطني كأساً من الفرموث .

وفي تلك اللحظة دخل البار أحد الرجال وابتسم بدهشة حين وقع نظره عليها . وتساءل لوسيان في نفسه : « من تراه يكون ؟ » أما برلياك فقد وقف حين مد يده للغريب بطريقة تحول دون رؤية لوسيان . وكان

يتكلم بصوت خافت سريع ، بينما يجيبه الآخر بصوت واضح : « لا . لا
يا صديقي . لن تكون سوى مهرج » ، وراح في نفس الوقت ، يقف على رؤوس
أصابعه ليرى لوسيان من فوق رأس برلياك ، باطمئنان هادئ . لعله في
الخامسة والثلاثين من عمره . له وجه شاحب وشعر أبيض بديع . وفكر
لوسيان وقلبه يخفق : « انه برجير بكل تأكيد ، كم هو جميل ! » .
أخذ برلياك الرجل ذا الشعر الأبيض بمرفقه بحركة متسلطة الى حد ما .
وقال له :

– تعال معي أنا ذاهب الى عيادة طبيب الأسنان ، على بعد خطوتين
من هنا .

فأجاب بدون أن يزيح نظره عن لوسيان :

– لكنك كنت مع صديقك . وعليك أن تجري التعارف بيننا .

ونفض لوسيان باسماً . وفكر في نفسه : « خدعة ! » وتورد خداه .
وغار عنق برلياك بين كتفيه ، وظن لوسيان للحظة بأنه سيرفض . وقال
بصوت ملؤه السرور « حسناً ، قدمني له » . لكنه ما كاد يتكلم حتى بان الدم
في صدغيه . وتمنى لو أنه يسقط الى باطن الأرض . وغير برلياك رأيه وتمتم
بدون أن ينظر الى احد :

– لوسيان فلورييه ، رفيقي في الكلية ، السيد أشيل برجير .

فقال لوسيان بصوت ضعيف :

– انني معجب بكتاباتك ايها السيد .

وأمسك برجير يده بين أنامله الطويلة وحمله على الجلوس . ومرّت هنيهة
من الصمت . كان برجير يغمر لوسيان بنظرة ملؤها الحنو ، وهو لا يزال يمسك
بيده ، وسأله بعدوبة :

– هل أنت قلق ؟

فقال لوسيان بصوت أوضح بعد ان رمق برجير بنظرة جادة : « انني قلق ! » وبدا له وكأنه يسمع احد دروسه ، وتردد برجير لحظة ثم عاد على عجل ليأخذ مكانه بعد أن ألقى قبعته على الطاولة . كان لوسيان يحترق لشدة رغبته في أن يحدث برجير عن محاولة الانتحار . انه شخص بالامكان أن نحدثه بلا مقدمات ولا تحضير . ولم يجرؤ على أن يقول شيئاً بسبب برلياك . كان يكره برلياك . وسأل برجير الخادم :

– هل عندكم عرق ؟

فقال برلياك متضجراً :

– كلا ، ليس عندهم عرق ؛ انها حانة جميلة ولكن ليس فيها سوى الفرموث .

فسأل برجير بسهولة تبلغ درجة الرخاوة :

– ما هذا الشيء الأصفر المعبأ في القنينة ؟

فأجابه الصبي :

– إنها ماركة المصلوب الأبيض .

– حسناً ، اعطني منه .

وتأمل برلياك على كرسيه . وحوار بين رغبته في امتداح اصدقائه وخشيته من ابراز لوسيان على حسابه . وانتهى الى القول بصوت متجههم فخور :

– أراد ان ينتحر .

فيقول برجير :

– اقسم بأني أفكر بذلك .

وتمر هنيئة صمت .

كان لوسيان قد اخفض عينيه بهيئة متواضعة ولكنه تساءل ما اذا كان برلياك سيذهب . ونظر برجير فجأة الى ساعته . وسأل :

— وطبيب الأسنان ؟

ونفض برلياك بالرغم منه ورجاه :

— رافقني يا برجير ، انه على بعد خطوتين .

— لا أرافقك لأنك ستعود . سأبقى برفقة صديقك .

ومكث برلياك لحظة وراح ينط ، فقال برجير بصوت جليل :

— هيا اذهب ، ستعود للقائنا هنا .

وما ان ذهب برلياك حتى قام برجير وجلس بغير تكلف الى جانب لوسيان وسرد له لوسيان قصة انتحاره بالتفصيل . وشرح له بأنه اشتمى امه ، وبأنه سادي شرجي ، وبأنه لا يحب شيئاً في جوهره ، وبأن كل شيء عنده مهزلة . كان برجير يصغي اليه بدون أن يتكلم ، بينما لوسيان مسرور جداً لأنه وجد من يفهمه . وما ان انتهى ، حتى احاطه برجير بذراعه فشم لوسيان رائحة الكولونيا والتبغ الانكليزي .

— أتدري يا لوسيان ماذا اسمي حالتك ؟

فنظر اليه لوسيان بأمل وبغير خيبة .

قال برجير :

— اسميه التشوش .

التشوش : بدأت الكلمة عذبة بيضاء لكن آخرها رنّ كصوت النفير .

وقال لوسيان : « التشوش ... »

وأحس بأنه مجدّ قلق مثلما كان عليه حين قال لريري إنه مروبص . كان

البار معتمداً ، لكن بابه فتح على مصراعيه لجهة الشارع ، تحت غمام الربيع الساطع . وكان لوسيان يشم ، عبر رائحة برجير العطرة ، رائحة الحانسة الثقيلة ، وهي رائحة النبيذ الأحمر والخشب الرطب . وفكر في نفسه : « التشوش ... إلام سيقودني هذا ! » فلم يعرف ما اذا كان قد اكتشف فيه جدارة أم مرضاً جديداً . وأبصر قرب عينيه بشفتي برجير الرشيقتين ، اللتين كانتا تبديان بريق سن ذهبية ثم تحجبانه . وقال برجير :

- احب الأشخاص الذين عانوا التشوش ، وأرى أن لك حظاً خارقاً للعادة . لأن هذا إنما هو هبة . هل ترى كل هذه الحنازير ؟ إنهم قوم قاعدون . ينبغي أن نقدمهم طعمة للنمل الأحمر ليعبث بهم قليلاً . أو تدري ما تفعل هذه الحيوانات الواعية ؟

فقال لوسيان :

- انها تأكل البشر .

- نعم ، انها تريح الهياكل العظمية من اللحم الانساني الذي يكسوها .

فقال لوسيان :

- انني ألاحظ ذلك .

وأضاف :

- وأنا ؟ ما ينبغي أن أفعل ؟

فقال برجير بنوع من الذعر الهزلي :

- لا شيء بحق الله . وعليك خاصة ألا تقعد مثلهم ، وعلى وتد . هل

قرأت رانبو ؟

فقال لوسيان :

- ك - ل - ل - لا .

- سأعيرك ديوان « الالهام » . إصنع ، ينبغي أن نجتمع في وقت آخر .
فإذا كان لديك بعض الفراغ يوم الخميس ، مرّ ببيتي في الساعة الثالثة فأنا اقيم في
مونبارناس ٩ ، شارع الكامبانيه برميير .

يوم الخميس التالي ، ذهب لوسيان الى بيت برجير ، وصار يتردد عليه طيلة
شهر أيار . واتفقا على ان يقولوا لبرلياك انها يلتقيان مرة في الأسبوع ، لأنها
يريدان ان يكونا صريحين معه بدون ان يسببا له أي عناء . وأبدى برلياك
امتعاضه . وقال للوسيان ساخراً : « انه الغرام العابر ؟ شرح لك القلق ،
وشرحت له الانتحار : يا للعبة الكبرى ، أليس كذلك ! » واحتج لوسيان
وقال له بعد ان احمر وجهه :

- سأبرهن لك بأنك انت الذي تكلمت أولاً عن عملية انتحاري .

فقال برلياك :

- أوه ! حدث ذلك ، لأجنبك الخجل من عملية سرده بنفسك . وأبعدا
أوقات لقاءهما . ذات يوم قال لوسيان لبرجير :

- إن كل ما كان يعجبني فيه ، أخذه عنك ، لقد أدركت هذا في الوقت
الحاضر .

فقال برجير ضاحكاً :

- برلياك هو قرد ، وهذا ما جعلني أوجه اهتمامي اليه . أتدري بأن
جدته لأمه يهودية ؟ وهذا ما يفسر أشياء كثيرة .

فأجاب لوسيان : « في الواقع » وأضاف بعد لحظة : « إنه شخص جذاب
على كل حال » . كانت شقة برجير مليئة بالأغراض الغريبة المضحكة : كنبات
ترتكز مقاعدها الخمالية على سيقان نساء صنعت من الخشب المدهون ، وتمائيل
سوداء ، وحزام للعفاف صنع من حديد ذي أشواك ، وأثناء من الجفصين

غرست فيها ملاعق صغيرة . وعلى المنضدة ، قملة هائلة من البرونز وجمجمة
كاهن مسروقة من مجموعة عظام ميسترا ، تستعملان لتثبيت الأوراق . أما
الجدران فكانت مرصوفة ببطاقات الدعوة التي تعلن عن موت برجير السريالي .
الشقة رغم كل شيء توحى بنوع من الترف الذكي ، وكان لوسيان يجب
ان يستلقي على ديوان غرفة التدخين . وان ما أثار دهشته بصورة خاصة ،
تلك الأشياء التي رصفها برجير على الرف : من مسحوق العطس ، الى وسخ
الشیطان الى رباط الساق الخاص بالعروس ... كان برجير وهو يتكلم يتناول
قليلاً من وسخ الشيطان بين أصابعه وينظر اليه باهتمام قائلاً :

— إن لهذه الأشياء قيمة ثورية ، انها تثير القلق . ان فيها قوة مدمرة.
تفوق القوة التي تضمها جميع مؤلفات لينين . وكان لوسيان ، وقد دهش
وانبهر ، يتطلع تارة الى هذا الوجه المعذب ذي العينين الغائرتين ، وطوراً الى
تلك الأصابع الدقيقة التي تحمل برفق تلك القذارة . كان برجير يحدثه اكثر
الأحيان عن رامبو وعن الخلل القياسي في جميع الحواس . « حين يصبح
بإمكانك وانت تمر في ساحة الكونكوردي ، ان ترى بوضوح عندما تشاء ،
زنجية راكعة تلحس المسلة ، عندها تستطيع ان تقول إنك خرقت النظام
وأنقذت نفسك » . وأعاره ديوان « الإلهام » و« أناشيد المالدورو » ، ومؤلفات
الماركيز دي سال . وكان لوسيان يسعى الى الفهم باخلاص ، لكن كثيراً من
الأمور كانت تفوته ، كما تعجب لأن رامبو كان لواطياً . وسأل عن ذلك
برجير الذي راح يضحك : « ولكن ، لماذا يا صغيري ؟ » وبدا لوسيان
شديد الانزعاج . واحمر وجهه وكره برجير لمدة دقيقة من كل قلبه ؛ غير انه
سيطر على نفسه ورفع رأسه وقال بصراحة بسيطة : « قلت انها قذارة » .
فداعب برجير شعره : وبدا انه قد رق كثيراً وقال : « هاتان العينان
المفعمتان بالاضطراب ، عينا الغزالة ... أجل يا لوسيان . قلت انها قذارة .
إن لواط رامبو هي الخلل الأول والنابغ في حساسيته . وانما نحن مدينون لها
بقصائده . فالاعتقاد بأن هناك أغراضاً مميزة خاصة بالرغبة الجنسية ، وبأن

هذه الأغراض هي النساء لان لهن ثقباً بين الساقين ، ان هو إلا اعتقاد بغيض خاطيء لدى «القاعدين» . انظر ! » واخرج من مكتبه حوالي اثنتي عشرة صورة مصفرة وراها على ركبتى لوسيان . ورأى لوسيان صوراً مذهلة للبغايا العاريات ، ضاحكات بأفواههن الخالية من الاسنان ، وقد باعدن ما بين سيقانهن كما تتباعد الشفاد ، وغرسن بين أفخذهن شيئاً كاللسان المكسو بالريق . وقال برجير : « اشتريت المجموعة بثلاثة فرنكات في أبو سعدة ، انك إن قبلت مؤخرة هؤلاء النسوة ، تكن ابن عائلة ، وكل الناس يقولون إنك تعيش حياة رجل . لأنهن نساء ، هل تفهم ؟ وأنا أقول لك بأن أول ما يجب أن تفعله هو أن تقتنع بأن « كل شيء » يمكن أن يشكل غرضاً للرغبة الجنسية ، من آلة الخياطة الى الانبوب الزجاجي ، وكذلك الحصان أو الخذاء . » وقال ضاحكاً :

– أنا نكحت الذباب ، واعرف جندياً بحرياً ينكح البط . كان يضع رؤوسها في درج الطاولة ، ويمسكها بقوة من ساقها ، ويبدأ ! وقرص برجير اذن لوسيان وختم حديثه : « كانت البطة تموت على الأثر ، فياً كلمها الجندي » .

كان لوسيان يخرج من تلك الحوادث ملتهب الرأس ، يفكر بأن برجير عبقرى ، لكنه في بعض الأحيان كان يستفيق من نومه وقد تبلل جسمه بالعرق ، وتتكدس في رأسه من جديد رؤى رهيبه بنديئة ، ويتساءل ما اذا كان برجير يؤثر عليه تأثيراً حسناً . وتنهده وهو يلوي يديه : « أن اكون وحيداً ! ما من احد ينصحنى ، ويقول لي اذا كنت على « الصراط المستقيم ! » فلو ذهب الى آخر الشوط ، ومارس جميع انواع الخلل في حواسه ، افلن تزل قدمه ويغرق ؟ وذات يوم ، بينما كان برجير يتحدث مطولاً عن اندريه بريتون ، تتم لوسيان وكأنه في حلم : « نعم ، ولكن اذا كنت ، بعد هذا ، لا اودّ الرجوع الى الورا ، » فارتجف برجير وقال : « تعود الى الورا ؟ من يتحدث عن الرجوع الى الورا ؟ لو تصبح مجنوناً يكن هذا افضل . وبعدها ، على

حد قول رامبو : سيأتي عمال بغيضون آخرون » . فقال لوسيان بأسى :
« هذا ما فكرت به » . ولاحظ ان محادثاته الطويلة كانت تصل الى نتيجة
معاكسة لتلك التي يبغيتها برجير ! ما ان يباغت لوسيان نفسه وهو يعاني
حساً دقيقاً نوعاً ما ، او انطباعاً خصباً ، حتى يبدأ بالارتجاف وفكر في نفسه :
« ها ان الأمر قد بدأ . وتمنى لو انه لا يشعر بعد الآن بسوى تلك الأنواع
السخيفة والكثيفة من الادراك الحسي . ولم يعد يشعر بالطمأنينة إلا عند
المساء ، حين يكون مع ابويه : هناك كان ملاذه . كانا يتحدثان عن بريان ،
وعن سوء نية الألمان ، وعن ولادة نسيبتها جان ، وعن غلاء المعيشة . وكان
لوسيان يبادلهم تلك الآراء بلذة ، وبنوع غليظ من انواع الحس السليم . ذات
يوم وكان عائداً من بيت برجير ، اغلق الباب بالمفتاح آلياً وضغط على الزليج .
ولما ادرك حركته تلك ، اجهد نفسه بالضحك ، لكنه لم يستطع النوم طيلة
الليل : وفهم بأنه خائف .

غير انه لن يتخلى بأي ثمن عن صداقة برجير . كان يقول لنفسه :
« انه يسحرني » . ثم انه كان يقدر هذا النوع المميز من انواع الصداقة الذي
أحسن برجير اقامته بينهما . فبدون ان تفارقه نبرة الرجولة ، كان بإمكان
برجير ان يجعل لوسيان يشعر بحنوه : اذ كان مثلاً يعيد ربط ياقته ، ويزجره
لانه لا يحسن هندامه ، ويسرح له شعره بمشط ذهبي من صنع كمبوديا .
وكشف للوسيان عن خفايا جسده وشرح له حلاوة الشباب القاسية المفعممة
بالعاطفة . كان يقول له : « انك انت رامبو ، كانت له يداك الكبيرتان حين
قدم الى باريس لمقابلة فرلين ، كان له هذا الوجه الوردى ، وجه الفلاح الشاب
الرافل بالصحة ، وهذا الجسد الطويل الناحل كجسد فتاة شقراء » . كان يرغب
لوسيان على فك قبته وفتح قميصه ، ثم يقوده شارداً ، الى المرأة ، يتمتع
بهذا الانسجام الجذاب بين خديه الأحمرين وعنقه الأبيض ؛ وعندها يلامس
برفق ردف لوسيان ويضيف بحزن : « على المرء أن ينتحر في سن العشرين » .
في الوقت الحاضر ، اصبح لوسيان كثير التطلع في المرأة ، لقد تعلم كيف

يستمتع بشبابه الغض . وفكر وهو يخلع ثيابه بحركات ملؤها العذوبة بأنه رامبو . وبات يعتقد بأن حياته ستكون قصيرة مؤلمة كحياة زهرة رائعة الجمال . في تلك اللحظات ، يتبادر الى ذهنه بأنه رأى في السابق انطباعات وصوراً كهذه : ويرى نفسه من جديد ، بفستانه الطويل الأزرق وجناحي الملك ، يوزع الزهور في عملية بيع ، قصد الاحسان . ويتطلع الى ساقبيه الطويلتين . ويقول في نفسه بارتياح : « هل صحيح ان جلدي ناعم الى هذا الحد ؟ » ومرة راح يمر بشفتيه فوق ذراعه ، من القبضة حتى المرفق ، على طول وريد أزرق جميل .

ذات يوم وهو يدخل بيت برجير ، حصلت له مفاجأة لا يرغب فيها : برلياك كان هناك يقطع بالسكين أقساماً من مادة مائلة للسواد تشبه قطعة من التراب . لم يكن الشابان قد التقيا منذ عشرة أيام : وتصافحا بهرود . وقال برلياك : « هل ترى هذه ، انها قطعة حشيش ، سنضع قليلاً منها في الغليون بين طبقتين من التبغ الاشقر ، وستحدث مفعولاً مدهشاً » . وأضاف : « ولك فيها حصة » وقال لوسيان : « شكراً ، أنا لا أتمسك بهذه الحصة » وراح الآخران يضحكان بينما كان برلياك يلح عليه بعين غاضبة : « انما انت مغفل ، ستأخذ قليلاً منها : فليس بإمكانك ان تتصور كم هذا لذيذ » . فقال لوسيان : « قلت لك لا » . ولم يجب برلياك بشيء ، وأخذ يبتسم أبتسامة متفوقة ، ورأى ان لوسيان يبتسم هو الآخر . فضرب برجله وقال : « لا أريد تلك القطعة ، لا أريد ان ارهق نفسي ، فمن البلاهة ان يتعاطى المرء هذه القضايا التي تجعله مخبولاً » . قال هذا بالرغم منه ، ولما أدرك مآل كلامه وتصور ما يمكن لبرجير ان يعتقد فيه ، اعترته رغبة في قتل برلياك ، وتصاعدت الدموع الى عينيه . وقال برلياك وهو يهز كتفيه : « انت بورجوازي ، تتظاهر بأنك تعوم ، لكنك تخاف ان تزل قدمك » . فقال لوسيان بصوت اكثر هدوءاً : « لا أريد أن أدمن على المخدرات ، انها عبودية كسائر أنواع العبودية وأريد ان أظل جاهزاً في كل وقت » . فأجاب برلياك بجدة : « قل

بأنك لا تريد ان تنتمي » . وهم لوسيان بصفعه ضربتين لما سمع صوت برجير الجليل يقول لبرلياك : « دعه يا شارل ، فالحق الى جانبه . وخوفه الانتماء نوع من التشوش أيضاً » ، ودخنا وهما مستلقيان على الديوان ، وتصاعدت في الحجرة رائحة ورق ارمينيا . أما لوسيان فقد جلس على كنبه من المخمل الأحمر ناظراً اليهما بصمت . وما هي إلا لحظة حتى أرخى برلياك رأسه الى الورا . وخفق حاجباه بنوع من الابتسامة المبللة . وأخيراً نهض برلياك وغادر الحجرة بخطى مترددة : لقد حافظ حتى النهاية على تلك الابتسامة الناعسة اللذيذة فوق شفثيه . وقال لوسيان بصوت مبجوح : « اعطني غليوناً » . فأخذ برجير يضحك وقال : « لا داعي لذلك . ولا تهتم لبرلياك . فأنت لا تعرف ما هو يفعل في هذه اللحظة؟ » . فقال لوسيان : « هذا لا يهمني » . فقال برجير بهدوء : « حسناً ، أعلم مع ذلك انه يقىء . هذا هو المفعول الوحيد الذي يحدثه الحشيش فيه . اما الباقي فليس سوى مهزلة ، لكنني أعطيه ليدخن في بعض الأحيان فهو يريد ان يلفت نظري اليه . وهذا ما يسلمني » وفي صبيحة اليوم التالي جاء برلياك الى الكلية وأراد ان يعامل لوسيان من فوق . وقال له : « انت تصعد في الحافلات ، لكنك تحسن اختيار الذين يظنون في المحطة » . فأجابه لوسيان : « أنت كثير الادعاء لعلك لا تدري أنني اعرف ما كنت تفعله امس في الحمام ؟ كنت تقىء ، يا صاحبي ! » فاصفر وجه برلياك : « هل أن برجير هو الذي اخبرك بذلك ؟ »

— من تريد ان يكون ؟

فتمتم برلياك :

— حسناً ، ولكنني لم أكن لأظن أن برجير يهزأ من اصحابه القدامى مع اصحابه الجدد . كان لوسيان مضطرباً نوعاً ما فقد وعد برجير بأنه لن يتكلم عن شيء . وقال : « حسناً إنه لم يسخر منك ، بل أراد ان يبرهن على ان قصصك

لا تنظلي عليه». لكن برلياك أدار ظهره وخرج بدون ان يشد على يد لوسيان. ولم يكن لوسيان فخوراً جداً حين صادف برجير في المرة الثانية . سأله برجير بهيئة لا تتم عن شيء :

— ماذا قلت لبرلياك ؟

وأخفض لوسيان رأسه بدون أن يجيب. كان متضايقاً جداً . وفجأة احس بيد برجير فوق رقبته : « لا بأس عليك يا صغيري . على كل حال يجب ان ينتهي الأمر : فالممثلون لا أرغب بهم دائماً » . واستعاد لوسيان بعض قوته ، ورفع رأسه وابتسم وقال : « لكنني أنا ممثل ايضاً » .

فأجابه برجير وهو يضمه اليه :

— نعم ، ولكن انت ، انت جميل .

وسمح لوسيان بذلك . واحس بأنه عذب كالفتاة وتصاعدت الدموع الى عينيه . وعانقه برجير على خده ، وعض له شفتيه برفق وهو يناديه تارة « بالأبله الصغير » . وطوراً « بأخي الصغير » . وفكر لوسيان بأن من حسن الحظ ان يكون للمرء اخ كهذا الأخ .

وأراد السيد فلورييه وزوجته أن يتعرفا على برجير الذي كان لوسيان يتحدث عنه ودعياه ، لتناول طعام العشاء . لقد وجدته الجميع جذاباً ، حتى جرمين ، التي لم تر في حياتها رجلاً جميلاً الى هذا الحد . وكان السيد فلورييه قد تعرف في السابق على عمه الجنرال نيزان وتحدث عنه مطولاً . لذا كانت السيدة فلورييه سعيدة بأن تولي برجير امر مرافقة ولدها في عطلة عيد العنصرة . وقصدا روان ، بالسيارة . كان لوسيان يريد زيارة الكاتدرائية ودار البلدية ، لكن برجير رفض تمام الرفض . وسأله بوقاحة : « تريد زيارة هذه القاذورات ؟ » واخيراً ذهباً ليقضيا ساعتين في شارع الكوردلييه ، وكان برجير مضحكاً : إنه ينادي جميع الأشخاص « آنستي » وهو يرفس

لوسيان برجله من تحت الطاولة ، ثم رضي بالصعود مع احداهن لكنه ما لبث ان عاد بعد خمس دقائق وقال : « فلنذهب من هنا ، وإلا سيكون الأمر خطيراً » . ودفع الثمن على عجل وذهبا في الشارع اخبره برجير عما حصل له . اغتتم الفرصة عندما ادارت الفتاة ظهرها ليرمي على السرير قبضة من الشعر ، ثم اعلن لها انه عاجز واسرع بالنزول . كان لوسيان قد احتسى كأسين من الوسكي وقد داخ قليلا : فغنى نشيد المدفع والذي بروفونديس موربيونيديوس . ورأى أنه من الأمور الرائعة أن يكون برجير يجمع عمق التفكير الى الصبانية .

وما إن وصلا الى الفندق حتى قال برجير : « لم احجز سوى غرفة واحدة لكن فيها حماما كبيرا » . ولم يندهش لوسيان إذ كان يتوقع بصورة مبهمه انه سيقسم مع برجير غرفة واحدة ، ولكن بدون ان يتوقف كثيرا عند هذه الفكرة . أما الآن ولم يعد بوسعه ان يتراجع فقد بدت له الفكرة مزعجة بعض الازعاج ، لا سيما وان قدميه لم تكونا نظيفتين . وتصور ، بينما كان الخدم يصعدون الحوائب ، بأن برجير سيقول له : « كم انت قذر ، ستوسخ الغطاء » . وسيجيبه لوسيان بوقاحة : « لديك أفكار بورجوازية عن النظافة » . لكن برجير دفعه الى غرفة الحمام مع حقيبته قائلا له :

— تدبر امرك في الداخل ، وأنا سأخلع ثيابي في الغرفة . وغسل لوسيان قدميه وبعض جسمه . وكان يشعر بحاجة الذهاب الى المرحاض لكنه لم يجرؤ على ذلك واكتفى بأن يبول في المغسلة ؛ ثم ارتدى قميص النوم ، وانتعل الخف الذي أعارته أمه إياه (فخفه هو ، كان مثقوبا) وضرب على الباب سائلا :

— هل انت مستعد ؟

— نعم ، نعم أدخل .

كان برجير قد ارتدى روب النوم الأسود فوق بيجاما زرقاء فاتحة .
وكانت رائحة العطر تفوح في الغرفة . وسأل لوسيان : « ألا يوجد سوى
سرير واحد ؟ » ولم يجب برجير : بل كان ينظر الى لوسيان مشدوهاً وانتهت
دهشته بضحكة قوية وقال له : « انك بشباب الزينة . ماذا فعلت بقبعة
النوم ؟ آه ! كلا انت مضحك جداً أريدك ان ترى نفسك » .

فقال لوسيان بانزعاج :

— ها قد مرت سنتان وأنا أطلب الى أمي ان تشتري لي بيجاما .

واقرب منه برجير وقال له بلهجة لا تحتمل جواباً :

— هيا ، اخلع هذا ، سأعطيك احدي بيجاماتي . ستكون واسعة بعض

الشيء ، لكنها ستوافقك أكثر من هذا الثوب .

وظل لوسيان مسمراً في وسط الغرفة ، عيناه تنظران الى المربعات الحمراء
والخضراء المرسومة على السجادة . كان بوده ان يعود الى الحمام لكنه خشي من ان
يعتبر مغفلاً ، وبجراحة عاجلة شمر قميصه الى ما فوق رأسه . ومرت هنيهة صمت . كان
برجير يتطلع الى لوسيان مبتسماً ، وأدرك لوسيان انه عار وسط الغرفة
ينتعل في رجله خفي أمه . ونظر الى يديه — يدي رامبو الكبيرتين — واراد
ان يضعها فوق بطنه ليخبثها على الأقل ، لكنه تنبه ووضع يديه خلف
ظهره . على الجدران ، وبين صفيين من المربعات ، كان يبدو من بعيد مربع
بنفسجي اللون . وقال برجير : « اقسام بأنه لأطهر من فتاة : لوسيان ، انظر
الى نفسك في المرآة فقد احمر لونك حتى الصدر . غير أنك افضل على هذا
الشكل ، مما كنت عليه بتلك الثياب » . فقال لوسيان يجهد : « نعم ولكن لا
يمكن للإنسان ان يكون ظريفاً حين يكون عارياً . اعطني البيجاما بسرعة » .
فرمى له برجير بيجاما من الحرير تفوح منها رائحة العطر ، وذهب الى
السرير . ومر وقت من الصمت ثقيل فقال لوسيان : « صحتي سيئة . أريد
أن أقيء » . ولم يجب برجير وتجشأ الوسكي . وقال في نفسه : « سينام » .

معني « ، وراحت مربعات السجادة تدور بينا كانت رائحة العطر الخانقة عالقة في حلقه .

« لم يكن ينبغي ان اقوم بهذه الرحلة » . ليس له حظ . لعشرين مرة خلال هذه الايام الاخيرة ، أصبح على قاب قوسين أو ادنى من معرفة الشيء الذي يريد برجير ، ولكن في كل مرة ، كانت تمر حادثة فتحوله عن تفكيره . والآن ، انه هنا موجود ، في سرير الرجل ، ينتظر متعته اللذيذة . « سأخذ وسادتي وأذهب الى الحمام لأنام فيه » . لكنه لم يتجرأ ، اذ فكر بنظرات برجير الساخرة . وراح يضحك وقال : « افكر بتلك البغي ، لا بد وأنها تفرك نفسها الآن » . ولم يجب برجير . فنظر اليه لوسيان بطرف عينيه : كان مستلقياً على ظهره ، عليه سياء البراءة ، ويداه تحت عنقه . عندها اعترى لوسيان غيظ شديد ، فانتصب على احد مرفقيه وقال له : « حسناً ، ماذا تنظر ؟ هل اصطحبتني الى هذا المكان لأزدان بالجواهر ؟ » .

كان الوقت قد فات حتى يندم على عبارته : واتجه برجير اليه ونظر اليه نظرة ملؤها السرور : « يا لك من آلة ذات وجه ملائكي . وأخيراً يا طفلي الصغير ، أنا لم أدفعك لتقول هذا : ستعتمد علي لكي يدب الخلل في حواسك الصغيرة » ونظر اليه لحظة أخرى ، وكاد وجهها ان يتلامسا ، ثم أخذ لوسيان بين ذراعيه وداعب صدره من تحت سترة البيجاما . لم يكن هذا كريهاً ، بل هو عذب إلى حد ما ، إلا ان برجير كان مخيفاً : ذبذبت عليه سياء البلاهة ، وراح يردد بقوة : « ألا تخجل ايها الخنزير الصغير . ألا تخجل ! » وكأنه اسطوانة الفونوغراف تعلن عن مواعيد القطارات . اما يد برجير فكانت بالعكس حية رشيقة وكانها إنسان . كانت تلامس برفق طرف ثدي لوسيان ، وكانها دغدغة الماء الساخن عندما يدخل المرء الى الحمام . وودّ لوسيان لو انه يمسك تلك اليد ، ويزيحها عنه ويلويها ، لكن برجير سيسخر منه ولا شك . وتزحلت اليد على طول بطنه وتوقفت قليلاً لتفك عقدة الحزام الذي يشد

السروال . وترك اليد تتزحلق : كان ثقيلاً مائعاً كالاسفنجة المبللة وهو في ذروة الفزع . وازاح برجير الغطاء ، ووضع رأسه على صدر لوسيان وكأنه يحسه . وتجشأ لوسيان مرتين وخشي ان يقيء على شعر برجير الفضي الجميل . وقال له : « انك تضغط على معدتي » . فارتفع برجير قليلا ووضع احدى يديه تحت كليتي لوسيان ، اما اليد الاخرى فلم تعد تدغدغه بل راحت تشد عليه . وقال برجير فجأة : « لك فخذان جميلان » وظن لوسيان انه يرى كابوساً : فسأل بغنج : « هل يعجبانك ؟ » لكن برجير تركه فجأة ورفع رأسه على عجل وقال بغضب : « يا لك من مغفل لعين ، ها قد مضت ساعة ، وهو يريد أن يلعب دور رامبو ، ولم استطع حتى الآن ان اهتجه » وتصاعدت الى عيني لوسيان دموع الغيظ ودفع برجير عنه بكل قواه وقال بصوت دقيق : « انها ليست غلطتي ، فقد قدمت لي كثيراً من الشراب وأريد الآن أن أقيء . » فقال برجير : « حسناً اذهب . اذهب . واملأ وقتك » واضاف من بين أسنانه : « يا لها من امسية عذبة » . ورفع لوسيان سرواله ، وارتدى روب النوم الأسود وخرج . ولما أقفل باب المرحاض من جديد أحس بالوحشة والفراغ الذين يعانينهما ، الى حد ان الدموع انهمرت من عينيه . لم يكن في جيب روب النوم منديل فمسح عينيه وأنفه بالورق الصحي . وأدخل اصبعيه مراراً في حلقومه ولكن عبثاً ، لم يستطع أن يقيء . عندها أنزل سرواله آلياً وجلس على المقعد وهو يرتجف . وفكر في نفسه : « يا له من قدر ! يا له من قدر ! » احس بأنه مهان الى حد بعيد ، لكنه لا يعرف إذا كان خجلاً من مداعبات برجير أو من عدم اضطرابه . كانت تأتيه من المعر قرقرة ترتعد فرائصه عند سماعها ، لكنه لم يكن بوسعه أن يقرر دخول الغرفة . وفكر في نفسه : « ينبغي على كل حال أن اعود اليها والا فسيسخر مني - مع برلياك ! » وهم بالوقوف ، لكنه رأى فجأة برجير بوجهه الحيواني وكان يسمعه يقول : « ألا تخجل ايها الخنزير الصغير ألا تخجل » . فعاد الى الجاوس يائساً كل اليأس ! وما هي إلا لحظة حتى اصيب باسهال قوي فارتاح

قليلاً وفكر في نفسه : « ها ان الأمر ينتهي من تحت ، وأنا افضل هذا » .
في الواقع ، انه لم يعد يرغب في التقيؤ . وفكر في نفسه فجأة : « سيؤذيني »
وظن بانه سيغمى عليه . واخيراً شعر لوسيان بالبرد الشديد واخذت اسنانه
تصطك ؛ وفكر بانه سيصاب بالمرض في الحال . ولما عاد ، نظر اليه برجير
متضايقاً ؛ كان يدخن سيكارة ، وبيجامته مفتوحة ، يبدو من تحتها صدره
الضعيف . وخلع لوسيان بتؤدة ، خفته وروب النوم ، وانزلق تحت اللحاف
بدون أن ينبس بكلمة . فسأله برجير : « كيف انت ؟ » فهز لوسيان كتفيه :
« أشعر بالبرد ! »

— هل تريد ان أدفئك ؟

فقال لوسيان :

— حاول دائماً .

في هذه اللحظة أحس بأنه ينسحق تحت عبء ثقيل . والتصق بفمه فم
ساخن رخو ، وكأنه البفتاك النيء . لم يعد لوسيان يفقه شيئاً ، ولم يعد يدري
اين هو وكاد ان يخنق ، لكنه سر لانه شعر بالدفء . وفكر بمدام بيس التي
كانت تضع يدها على بطنه وهي تناديه « يا لعبتي الصغيرة » . وفكر ايضاً
بهبّار الذي كان يسميه « الهليوننة الكبيرة » . ويقول في نفسه : « أنا لعبته
الصغيرة ! » في تلك اللحظة أرسل برجير صيحة الانتصار وقال : « وأخيراً
ها انك تصمم » . وأضاف وهو يلهث : « هيا ، سنصنع منك شيئاً » .
وحرص لوسيان على ان يخلع بيجامته بنفسه .

في اليوم التالي ، استيقظا عند الظهر . وأتى الخادم بطعامهما الى السرير ،
ووجد لوسيان انه غريب الهيئة . وفكر في نفسه بارتعاشة تم عن الاشمئزاز :
« انه يعتبرني مغفلاً » ، أما برجير فكان في منتهى الدمائه ؛ ارتدى ثيابه قبل
لوسيان وراح يدخن سيكارتته في محلة الفيور مارشيه بينما كان لوسيان يستحم

وفكر لوسيان وهو يفرك جسمه بعناية : « كل ما هنالك ، ان العملية مقلقة » . ما ان مضت لحظة الذعر ، وأحس بأنها ليست أليمة بقدر ما توقع ، اجتاحه قلق قاتم . كان يأمل دائماً ان ينتهي ذلك وان يستطيع ان ينام ، لكن برجير لم يتركه وشأنه قبل الرابعة صباحاً وقال في نفسه : « ينبغي ان أنهي مسألة التريفونومي تري مها يكن من أمر » . وحاول ان يمحصر تفكيره بعمله . كان النهار طويلاً . سرد له برجير قصة لوتريامون ، لكن لوسيان لم يصغ اليها بانتباه . اذ ان برجير بات يزعجه قليلاً . وفي المساء ، ناما في كودبيك ، وبالطبع أزعج برجير لوسيان لوقت لا بأس به ، ولكن نحو الساعة الواحدة ، قال له لوسيان بصراحة إنه يشعر بالنعاس ، فتركه برجير وشأنه بدون ان يغضب . وعاد الى باريس في نهاية بعد الظهر . ولم يكن لوسيان راضياً عن نفسه .

واستقبله أبواه استقبالاً حسناً . وسألت أمه : « هل شكرت السيد برجير على الأقل » . وتحدث معها قليلاً عن الريف النورماندي وآوى الى فراشه في ساعة مبكرة . ونام كالملاك ، لكنه في صبيحة اليوم التالي ، شعر عندما استيقظ بأنه يرتجف في داخله . فنهض ونظر الى نفسه ملياً في المرآة . وقال في نفسه : « أنا لواطى » . وخارت قواه . وصاحت أمه من خلف الباب : « انهض يا لوسيان عليك ان تذهب الى الكلية هذا الصباح » فأجابها لوسيان بليوننة : « نعم يا أمي » . لكنه استلقى على سريره وراح ينظر الى اصابع قدميه . « ليس هذا صواباً ، لم اكن أعني ذلك ؛ أنا ؛ ليست لدي أية تجربة » . تلك الأصابع ، قد مصها احد الرجال الواحدة تلو الاخرى . واشاح لوسيان بوجهه بعنف : « كان هو يعرف ذلك إن الفعل الذي جعلني أقدم عليه يحمل اسماً ، انه يسمى مضاجعة رجل لرجل ، وهو يعرف ذلك » . انه امر مضحك - وابتسم لوسيان بمرارة - بوسع الجميع ان يتساءلوا أياماً طوالاً : هل انا ذكي ، هل أنا ساذج ، وليس بالامكان التوصل الى نتيجة . الى جانب هذا ، هناك أمور تتعلق بك يوماً من الأيام ، وينبغي تحملها طيلة الحياة . كان لوسيان ، على سبيل المثال ، طويلاً اشقر ، يشبه أباه ،

وهو ابن وحيد ، وهو لواطىي ابتداء من يوم أمس . سيقال عنه : « فلورييه . أنت تعرف حق المعرفة ، هذا الطويل الأشقر الذي يحب الرجال ! » وسيجيب الناس : « آه ! نعم . الرجل الطويل ؟ حسناً ، أعرف من هو » .

وارتدى ثيابه وخرج ، لكنه لم ينو الذهاب الى الكلية . ونزل الى جادة لامبال حتى وصل الى السين . وسار بمحاذاة الأرصفة . كانت السماء صافية ، والشوارع تفوح برائحة الورق الأخضر والقطران والتبغ الأنكليزي . وقت يحلم المرء به ليرتدي أحلى ثيابه على جسده النظيف وبروح جديدة . كان الجميع يتمتعون بمعنوياتهم ؛ أما لوسيان فظل وحده محتاراً وغريباً في هذا الربيع . وفكر في نفسه : « انه الأنحدار الحتمي : بدأت بعقدة أوديب ، ثم أصبحت سادياً شرجياً ، والآن جمعت كل شيء اذ أصبحت لواطياً . فأين ينبغي ان اقف ؟ » لا شك ان حالته لم تكن شديدة الخطورة . فلم يستمتع كثيراً بمداعبات برجير . ولكنه فكر بقلق : « ولكن اذا اعتدت على ذلك ؟ لا يعود بإمكانى الاستغناء عنه ، اذ يصبح كالمورفين ! » سيصبح رجلاً ذا عاهة ، ما من أحد يقبل ان يستقبله ، وسيسخر منه عمال أبيه عندما يصدر اليهم أمره . وتصور لوسيان مصيره الرهيب . ورأى نفسه في الخامسة والثلاثين رقيقاً متبرجماً ، ورجلاً له شاربان يحمل وسام جوقة الشرف ، يرفع عصاه بهيئة تبعث على الرهبة . « ان وجودك هنا ايها السيد إهانة لبناتي » وفجأة تأرجح ذات اليمين وذات اليسار فقد تذكر عبارة من عبارات برجير كان ذلك في كودبيك اثناء الليل . قال له برجير : « حسناً قل لي . هل أصبحت تستسيغ ذلك ! » ما كان يعنيه ! بالطبع ، لم يكن لوسيان من خشب . وقال في نفسه قلقاً : « هذا لا يدل على شيء » . لكن هناك من يعتقد بأن هؤلاء الأشخاص كانوا مدهشين في التعرف على اشباههم ، كانت لديهم حاسة سادسة . نظر لوسيان مطولاً الى رقيب المدينة الذي كان ينظم السير أمام جسر الايانا . « هل بإمكان هذا الشرطي ان يهيجني ؟ » وثبت نظره على سراول الشرطي الأزرق ، وتصور فخذيهِ الزاخرين بالعضلات ، المكسوين

بالشعر : « هل يصنع لي شيئاً ؟ » وذهب بعد ان وجد لنفسه تعزية . وفكر في نفسه : « ليس الأمر خطيراً جداً ، إذ أن بإمكانني ان انقذ نفسي . لقد افراط في استغلال تشوشي لكنني لست لواطياً حقيقياً ، وعاود ، التجربة مع جميع الرجال الذين صادفهم ، وفي كل مرة كانت النتيجة سلبية . وفكر في نفسه : « أف ، انني أشعر بشدة الحر . » ان هذا تحذير ، ذلك كل شيء . ليس عليه ان يعيد الكرة ، لأن العادة السيئة يمكن تلقتها بسرعة ثم ان عليه ان يشفى من عقده بسرعة ، وقرر ان يذهب ليجري لنفسه تحليلاً عند محلل نفسي بدون ان يعلم أبويه بذلك . وبعدها ، يتخذ لنفسه عشيقه ويصبح رجلاً كسائر الرجال .

وبدأ لوسيان يطمئن حين يفكر ببرجير : في نفس اللحظة ، كان برجير في باريس شديد الرضى عن نفسه يعيش مع ذكرياته الجميلة : « انه يعرف كيف تكويني ، ويعرف فمي ، لقد قال لي : « لك رائحة لن أنساها قط » . سيذهب الى اصدقائه ليفتخر أمامهم ويقول : « لقد نلتها » . في هذه اللحظة يمكن ان يكون منهمكاً بسرد اخبار لياليه الى ... - وتوقف قلب لوسيان عن الخفقان - الى برلياك ! لو فعل هذا ، لقتلته . ان برلياك يكرهني ، وسيخبر بذلك جميع من في الصف ، فأصبح رفيقاً مارقاً ، ويرفض رفاقي أن يمدوا ايديهم لمصافحتي . وقال لوسيان في نفسه ايضاً : « سأقول إن ذلك غير صحيح ، وسأقيم دعوى ، وأقول انه اغتصبني ! » ، كان لوسيان يكره برجير بكل ما أوتي من قوة : فبدونه ، بدون هذا الضمير الفاضح الذي ليس له دواء ، كان بالامكان تسوية كل شيء ، إذ لا أحد يدري بذلك ثم إن لوسيان نفسه سينسى الأمر . « لو كان بالإمكان أن يموت بسرعة ! يا رب ، أتوسل اليك ، اجعله يموت هذه الليلة قبل أن يخبر أحداً بذلك . رب ، اجعل هذه القصة منسية ، فأنت لا تقبل بأن أكون لواطياً ! » وفكر لوسيان بغيظ : « انه يسكنني على كل حال . سينبغي أن أعود الى بيته وافعل كل ما يريد مني وأن أقول له بأنني احب تلك العادة ، وإلا لفقدت نفسي ! » ومشى

خطوات اخرى وأضاف كأنه يقدم على تدبير احترازي : « ربّ ، واجعل برلياك يموت أيضاً » .

لم يعد بوسع لوسيان ان يعود الى بيت برجير . وفي الأسابيع التي تلت ، كان يظن بأنه يلاقيه عند كل خطوة ، وعندما يعمل في غرفته ، ترتعد فرائصه لدى سماعه الجرس . في الليل رأى كوابيس رهيبه : برجير يأخذه بالقوة في باحة كلية سان لويس ، أمام أنظار جميع الرفاق الذين ينظرون ساخرين . لكن برجير لم يقم بأية حركة لمقابلته ولم تصدر عنه أية إشارة تدل على أنه حيّ . وفكر لوسيان مزعوجاً : « ما كان ينبغي سوى جلدي » . واختفى برلياك برفقته ايضاً . وغيفار ، الذي كان يذهب احياناً الى ميدان السباق يوم الأحد ، أكد بأنه غادر باريس على اثر انهيار عصبي . وهدأت اعصاب لوسيان شيئاً فشيئاً : إن رحلته الى روان أحدثت في نفسه أثر حلم غامض فظ لا يرتبط بشيء . لقد نسي جميع تفاصيله ، ولم يعد يتذكر سوى رائحة اللحم البشري الكئيبة ، ورائحة العطر وكذلك القلق الذي لا يرحم . وسأل السيد فلورييه مراراً عما حدث للصديق برجير : « ينبغي أن ندعوه الى فيرول لنشكره » . فأجاب لوسيان :

— لقد ذهب الى نيويورك .

وذهب لوسيان مرّات عديدة وتمرن على شاطئ المارن على قيادة القوارب برفقة غيفار وشقيقته ، وعلمه غيفار الرقص . وفكر في نفسه : « ها انني أستيقظ ، وأحيا من جديد » . لكنه لا يزال يحس في بعض الاحيان بعبء يزرخ على كاهله : تلك هي عقده النفسية ؛ وتساءل اذا كان يجب أن يذهب لمقابلة فرويد في فينا : « سأذهب بدون نقود ، مشياً على الأقدام اذا اقتضى الأمر ، سأقول له : أنا مفلس لكنني امثل قضية معينة » . وفي اصيل يوم حار من أيار حزيران التقى في جادة سان - ميشال إلبدوان ، استاذة السابق في الفلسفة . فسأله البدوان : « ماذا يا فلورييه ، هل تعد المدرسة المركزية ؟ »

فقال لوسيان : « نعم يا استاذ » . فقال إلبدوان : « كان بإمكانك أن تتجه نحو الدراسات الأدبية . فقد كنت من الطلبة الماهرين في مادة الفلسفة » . فقال لوسيان : « لم اتخلّ عن الفلسفة . وقد طالعت كثيراً هذه السنة . طالعت فرويد مثلاً » . وأضاف وكأن وحيًا قد أتاه : « كان بودي أن أسألك يا استاذ : ما رأيك بالتحليل النفسي ؟ » فأجابه إلبدوان ضاحكًا : « انها تقليعة وتمرّ . وإن ما تجده حسنًا عند فرويد ، تجده ايضاً عند افلاطون » . وأضاف ببلهجة لا تحتمل المناقشة : « على اني لا أحسم في مثل هذه الأمور ، ولكن عليك ان تقرأ سبينوزا » . واحس لوسيان بأنه يرتاح من عبء ثقيل ، وعاد الى بيته وهو يصفر وفكر في نفسه :

« كان كابوساً ، ولم يبق منه شيء ! » كانت الشمس محرقة في ذلك النهار ، لكن بوسع لوسيان أن يواجه هذا النهار ؛ انه تخلص ! وفكر في نفسه ؛ « انه هراء . انه هراء . لقد حاولوا ان يجعلوني مجنوناً لكنهم لم يفلحوا » . في الواقع انه لا زال يقاوم : صحيح ان برجير قد اثر عليه في تحليلاته ، لكن لوسيان يحس مثلاً بان لواطه رامبو هي عيب متأصل فيه ، وتذكر حين أراد هذا البرجير أن يدخن له الحشيش فقاومه . وفكر : « كدت أن أفقد نفسي ، لكن الذي انقذني انما هي صحتي المعنوية » . وفي المساء ، نظر الى أبيه والعائلة جالسة الى مائدة الطعام ، نظرة ملؤها الحنو . كان السيد فلورييه مربع الكتفين ، ثقيل الحركات ، أغبر العينين ، نحاسي النظرات كالرؤساء . وفكر لوسيان : « انني اشبهه » . وتذكر بان أفراد عائلة فلورييه ، أباً عن جد ، كانوا من أرباب الأعمال في الصناعة ، منذ أربعة أجيال . « ومهما قيل ، فإن العائلة موجودة ! » ثم فكر باعتزاز بصحة آل فلورييه المعنوية .

لم يتقدم لوسيان هذه السنة لامتحان المدرسة المركزية ، وذهبت عائلة فلورييه الى فيرول في وقت مبكر جداً . وسر لوسيان برؤية بيته من جديد

وكذلك البستان والمصنع ، والمدينة الهادئة المتزنة . انه عالم آخر : وقرر ان ينهض في الصباح الباكر ليقوم بنزهات كثيرة في المنطقة . وقال لأبيه : « أريد ان املأ رثتي بالهواء النقي استعداداً للعام القادم » . ورافق أمه في زيارتها لعائلي بوفاردييه وبيس ، ووجد الجميع انه اصبح شاباً متزناً . كان هبرار وونكلمن اللذان يدرسان الحقوق في باريس قد عادا الى فيرول لقضاء العطلة وخرج لوسيان مرات عديدة برفقتهم ، وتحدثوا عن الألاعيب التي قاموا بها مع الكاهن جاكار ، وعن أغنيتهم فوق الدراجة وأنشدوا نشيد مدفع متز ، بأصواتهم الثلاثة . كان لوسيان يقدر صراحة أصحابه القدامى وصلابتهم وأنحى بالاثحة على نفسه لأنه تخلى عنهم . واعترف لهبرار بأنه لا يحب باريس ولم يكن بوسع هبرار ان يفهمه : سلمه أبواه الى أحد الكهنة ؛ وهو لا يزال مبهوراً بمتحف اللوفر وبالأمسية التي قضاها في الأوبرا . ورق لوسيان لهذه البساطة . وشعر بأنه شقيق هبرار وونكلمن الاكبر ، وبات يشعر بأنه لا يأسف على تلك الحياة المعذبة التي قضاها : فقد اكسبته تجربة . وحدثها عن فرويد وعن التحليل النفسي ، وتسلى قليلاً باغوائهما . لقد انتقدا بعنف نظرية العقد النفسية لكن آراءهما كانت ساذجة كما بين لهما لوسيان ، وأضاف بأنه من الناحية الفلسفية ، بالإمكان دحض نظريات فرويد . وكانا شديدي الإعجاب به ، فيتظاهر لوسيان بأنه لا ينتبه لذلك .

وشرح السيد فلورييه للوسيان كيفية العمل في المصنع . كما اصطحبه لزيارة الأبنية المركزية ، وراقب لوسيان مطولاً شغل العمال . وقال السيد فلورييه : « إذامت ينبغي ان تتمكن بين يوم وآخر من السيطرة على زمام المصنع . وزجره لوسيان قائلاً : « ألا تريد يا أبتاه ، أن تكف عن هذا الحديث ! » لكنه فكر في الأيام التالية بالمسؤولية الكبرى التي ستلقى على عاتقه إن عاجلاً أم آجلاً . وتبادلا الآراء حول واجبات رب العمل ، وشرح له السيد فلورييه بأن الملكية ليست حقاً بل واجباً . وأضاف : « يريدون ان يزعمونا بصراع الطبقات ، كما لو ان مصلحة أرباب العمل ومصلحة العمال متناقضة ! خذ مثلاً

عني يا لوسيان . أنا رب عمل صغير ، وهذا ما يسمونه بالأرغولان بلغة باريس .
العامية . حسناً ، انني ، احبي مئة عامل مع عائلاتهم . فاذا قمت بأشغال
كبيرة ، فهم أول من يستفيد منها . لكنني اذا ارغمت على أقفال المصنع ،
فانهم يتشردون في الشارع . وقال مشدداً على كلامه : « وليس لي الحق » ان
أقوم بأشغال سيئة . وهذا ما أسميه انا تضامن الطبقات » .

وجرى كل شيء على ما يرام طيلة ثلاثة أسابيع . ولم يعد يفكر أبداً ببرجير .
لقد غفر له ، لكنه تأمل على الأقل الا يعود الى رؤيته مدى الحياة . وأحياناً
حين يبدل قميصه ، كان يقف أمام المرأة وينظر الى نفسه بدهشة ، ويفكر :
« رجل اشتهى جسده » . ويمر بيديه على ساقيه مفكراً : « رجل اضطرب من
أثر ساقيه » . ويمد يده الى مكان كليته ويأسف على أنه ليس رجلاً آخر ليداعب
جسده كما يداعب قطعة الحرير . وكان يأسف أحياناً على عقده : فهي
صلبة ، شديدة ، تزرع بعبئها الثقيل على كاهله . والآن ، انتهى كل شيء فلم
يعد لوسيان يؤمن بها ، وأحس بشدة خفته . لم يكن ذلك من الأشياء التي لا
تحتمل ، بل هو نوع من النفوذ المحتمل ، والمؤلم الى حد ما ، يمكن ان يتحول الى
قلق . وفكر في نفسه : « أنا لست اي شيء » ، وذاك لأنني لم أتلطخ بشيء .
أما برلياك فهو ملتزم كل الالتزام . وبإمكانني ان أتحمّل القليل من عدم اليقين :
فهو فدية الطهارة » .

وفكر في احدى رحلاته بعد ان جلس على العشب : « لقد نمت ست
سنوات ، ثم استفتقت ذات يوم » . كان مفعماً بالحياة وهو يتطلع الى المناظر
المحيطة . وقال في نفسه : « لقد خلقت من اجل العمل » . لكن أفكاره
اصبحت باهتة . وقال بصوت خافت : « فلينتظروا قليلاً حتى يروا ما
أساوي » . وتكلم بقوة لكن الكلمات تدحرجت من فمه كالأصداف الفارغة :
« ما بي » . ذلك القلق الغريب الذي لم يرض بالاعتراف به ، سبب له أذى
كبيراً . لقد فكر في الماضي : « انه هذا السكون ... هذه البلاد ... »

ما من كائن حي سوى القبايط تجرّ بطونها وسط الغبار بصعوبة ، كان يكره القبايط لأنها تبدو أقرب الى الموت . وفي الجهة الثانية رأى الشجرة الباسقة زاوية على حافة النهر . ما من أحد يرى لوسيان ، ما من أحد يسمعه . وقفز في الفضاء وتهايا له بان حركاته لا تصادف اية مقاومة ، حتى مقاومة الجاذبية ، وهو واقف وراء ستار من الغمام الأغبر . لكأنه موجود في الفراغ . وفكر في نفسه : « هذا السكون ... » كان شيئاً يفوق السكون ، انه العدم . وحول لوسيان بدا السهل ساكناً رخوياً عديم الحياة بشكل عجيب : وبدا له أن السهل يتقلص كثيراً قاطعاً تنفسه كيلا يزعجه « متى يعود صاحب المدفع في ميتر الى كتيبته ... » وانطفأ الصوت على شفثيه كليب في فراغ : كان لوسيان وحده ، بلا ظل ، ولا صدى ، وسط هذه الطبيعة المتخفية ، التي لا وزن لها . وارتعش قليلا وحاول أن يعيد وصل حبل أفكاره : « لقد خلقت من اجل العمل . قد اضل في البدء : إذ بإمكانني ان ارتكب الحماقات ، لكن هذا لن يبلغ مدى بعيداً لانني سأعود الى رشدي . وفكر : « لدي حجة معنوية » . لكنه توقف بعد ان كشر عن اسنانه مشمئزاً ، كم بدت له غريبة فكرة الكلام عن « الصحة المعنوية » ، على تلك الطريق البيضاء التي تسير عليها حشرات في نزاعها الأخير . ولشدة غيظه داس لوسيان على قبوط ؛ وشعر تحت حدائه بكرة صغيرة من المطاط ، ولما رفع رجله كان القبوط لا يزال على قيد الحياة ، فبصق لوسيان عليه . « أنا محتار ، أنا محتار ، كما في العام الماضي » . وراح يفكر بونكلمن الذي كان يلقبه « ببطل الابطال » ، وبالسيد فلورييه الذي يعامله كرجل ، وبالسيدة بيس التي قالت له : « هذا الصبي الذي كنت أناديه بلعبي الصغيرة » ، لم أعد اجروء على مخاطبته بصيغة المفرد ، انه يرهبني . لكنهم كانوا شديدي البعد ، وبدا له ان لوسيان الحقيقي قد فقد ، وليس سوى يرقة بيضاء محتارة « ما أنا؟ » كيلو مترات و كيلو مترات تمتد على مداها الأراضي البور ، بلا عشب ولا رائحة ، الا الهليوننة التي ، لشدة غرابتها ، ليس لها اي ظل . « من أكون؟ »

لم يتغير السؤال منذ العطلة السابقة ، وكأنه ينتظر لوسيان حيث تركه ليرد عليه؛ او بالأحرى ليس سؤالاً، بل هو حالة من الحالات . وهز لوسيان كتفيه وفكر : « انني شديد الاشتباه ، وأحلل نفسي كثيراً » .

في الأيام التالية ، حاول أن يتغاضى عن تحليل نفسه : شاء ان يجعل الأشياء تسحره ، ونظر مطولاً الى الأشجار والواجهات ، وامتدح أمه كثيراً وهو يرجوها ان تزيه الطقم الفضي . لكنه بينما كان ينظر الى الطقم الفضي ، فكر بأن وراء نظرتة غمامة صغيرة تتراقص . وعبثاً حاول لوسيان أن يركز انتباهه على حديثه مع أبيه ، لكن الغمامة تسالت الى ما وراء الانتباه الذي كان يبديه لكلمات أبيه : تلك الغمامة ، انها هو بذاته . كان لوسيان من وقت لآخر يتغاضى عن الأصفاء، ويستدير الى الورا، يحاول ان يمسك بالغمامة وينظر اليها مواجهة : ولم يصادف سوى الفراغ ، والغمامة لا تزال وراءه .

وجاءت جرمين باكية أمام السيد فلورييه ، تقول ان أخاها اصيب بالتهاب رئوي . فقالت السيدة فلورييه :

- مسكينة يا جرمين ، هذا الذي قلت عنه إنه متين العود !
منحتها عطلة شهر ، واستقدمت ابنة احد عمال المصنع لتحل محلها ، وهي برت موزيل الصغيرة ، وعمرها سبع عشرة سنة . إنها فتاة قصيرة ذات جدائل شقراء تلفها حول رأسها، وهي تعرج بعض الشيء . ولما كانت قادمة من كونسكارنو ، رجتها السيدة فلورييه على ارتداء مئزر موشى بالدنتيل ، « فهذا أكثر لياقة » . ومنذ اليوم الأول ، أخذت عينها الزرقاوان الواسعتان، تشعان بالمحبة العنيفة عند رؤية لوسيان . انها تعبده . وتحدث اليها بلطف وسألها مرات عديدة : « هل أنت مسرورة في بيتنا ؟ » . في المرات كان يلامسها ليرى أثر الملامسة فيها . لكنها كانت تحنو اليه ، فوجد في تلك المحبة تعزية خالصة . كان يفكر اكثر الاحيان بنوع من التأثير بالصورة التي كونتها برت عنه : « في الواقع انني لا أشبه قط أولئك العمال الذين تعاشرهم

برت « . وادخل ونكلمان الى المكتب ، فوجدها جذابة ، وقال له : « انك
محظوظ ، لو كنت في مكانك لأقدمت » لكن لوسيان كان يتردد : إذ ان
رائحة العرق تفوح منها ، كما ان قميصها الأسود اصبح رثاً تحت ذراعيها . في
أصيل يوم ممطر من شهر أيلول ، قصدت السيدة فلورييه باريس بالسيارة ،
وبقي لوسيان وحده في الغرفة . استلقى على سريره وراح يتشاءب . وبداله
أنه غمامة كيفية الطباع ، تبقى على حالها وتتغير في نفس الوقت ، كما تذوب
دائماً في الأهواء والشواطيء . « اسأل نفسي لماذا أنا موجود ؟ » انه هنا ،
يهضم طعامه ، ويتشاءب ، ويسمع المطر يضرب الزجاج ، والغمامة البيضاء
تتهادى في رأسه : وبعدها ؟ ان حياته فضيحة ولا تكاد المسؤوليات التي
سيتحملها فيما بعد تكفي لتبريرها . وقال في نفسه : « على اني ، لم أطلب
أحداً بخلقي » . واعتراه نوع من الشفقة على نفسه . وتذكر قلقه حين كان
طفلاً ، وروبوسته الطويلة ؛ فبدت له على صورة جديدة : في الواقع انه ما
برح ينزعج من حياته ، من تلك الهدية الضخمة غير المجدية ، التي حملها بين
ذراعيه دون ان يعرف ان يضعها . « لقد امضيت وقتي في الأسف على
ولادتي » . لكنه كان شديد الاعياء وليس بإمكانه ان يذهب الى أبعد من
ذلك . ونهض ، ثم أشعل سيكارة ونزل الى المطبخ ليطلب الى برت ان تحضر
له قليلاً من الشاي .

ولم تره برت وهو يدخل . فلمس كتفها فارتعشت بعنف وسألها : « هل
اخفتك ؟ » ونظرت اليه بوجه ملؤه الرهبة وهي تلقي بكلتا يديها على الطاولة ؛
وارتفع صدرها قليلاً . وما هي الا هنيهة حتى ابتسمت ثم قالت : « فوجئت
بوجودك ، اذ لم أكن ادري ان هناك احداً » . فبادلها لوسيان الابتسامة
بتسامح وقال لها : « أرجو ان تعدي لي فنجاناً من الشاي » . فاجابت الصغيرة
وهي تسرع نحو الموقد : « سأعده في الحال يا سيد لوسيان » . بدا لها ان
وجود لوسيان شديد الوطأة عليها . مكث لوسيان في عتبة الباب متردداً وسألها
بلهجة أبوية : « هل انت مسرورة في بيتنا ؟ » كانت برت تدير له ظهرها ،

تملأ الطنجرة من الحنفية . فخيم خرير الماء على اجابتها . وانتظر لوسيان لحظة ، وما ان وضعت الطنجرة على النار حتى تابع كلامه : « هل دخنت في السابق ؟ » فأجابت الفتاة بحذر : « مرات كثيرة » . وفتح علبة ماركة كريفن ، وناولها اياها . لم يكن شديد السرور اذ بدا له انه في مجال التآمر ، فلا ينبغي أن يقدم لها سيكارة . فقالت مدهوشة :

- هل تريد ان ادخن ؟

- ولم لا ؟

- ستعنفني السيدة .

واعترى لوسيان شعور التآمر المقيت . فراح يضحك وقال : « لن نخبرها بذلك » . فاحمر وجه برت ، وتناولت سيكارة بطرف اصابعها ووضعتها في فمها . « هل ينبغي أن اشعلها لها ؟ هذا خطأ » . فقال لها : « ألا تشعلينها ؟ » كانت تزعجه ؛ اذ بقيت في مكانها ، جامدة الذراعين ، محمرة الوجه طائفة ، تزم شفيتها حول السيكارة ، وكأنها تضع في فمها ميزان الحرارة . واخيراً تناولت عود ثقاب من علبة حديدية بيضاء ، وحكت العود ، وأخذت عدة أنفاس وهي تغمز بعينها وقال : « هذا لذيذ » . ثم اخرجت السيكارة من فمها ، وضغطت عليها بأصابعها الخمس . وفكر لوسيان : « هل ولدت ضحية ؟ » ثم شعرت بالأنس ، حين سأها اذا كانت تحب موطنها بريتونيا ، فشرحت له عن الأصناف الموجودة فيها ، حتى انها انشدت بصوت عذب خاطيء الايقاع ، أغنية لروز بوردرن . ومازحها لوسيان بلطف ، لكنها لم تفهم المازحة وراحت تنظر اليه بوجه ملؤه الخوف ، كانت في تلك اللحظات تشبه الأرنب الأليف . وجلس على طاولة واحس بأنه مرتاح جداً وقال لها : « استريح اذاً » . « أوه كلا يا سيد لوسيان . ليس امام السيد لوسيان » . فامسكها من تحت ابطيتها وشدها نحو ركبتيه وسألها : « هكذا ؟ » وسمحت له بذلك بوجه ملؤه الانشراح واللوم ، وتمتت بلهجة غريبة : « على ركبتيك ! » . ففكر

لوسيان بقلق : « انني رحت بعيداً ، لم يكن ينبغي ان ابعث الى هذا الحد » .
وسكت : بينما ظلت هي جالسة على ركبتيه ، شديدة الدفء ، ملؤها الهدوء ؛
لكن لوسيان احس بقلبه يخفق وفكر : « انها شيء لي ، بامكاني ان أفعل
بها ما اريد » . وتركها ، ثم اخذ إبريق الشاي وصعد الى غرفته : ولم تقم
برت بأية حركة لامسائه . وقبل ان يحتسي الشاي ، غسل لوسيان يديه
بصابون أمه المعطر ، اذ ان رائحة الإبط كانت تفوح منها .

« هل سأضاجعها ؟ » شغلت هذه المسألة الصغيرة بال لوسيان في الأيام التي
تلت . كانت برت تقف طيلة الوقت في طريقه وتنظر اليه بعينين كئيبتين .
وانتصرت الأخلاق ، أدرك لوسيان بأنه قد يجعلها حاملاً لأنه ليس ذا خبرة
كافية . (ومن المستحيل ان يشتري « الكبابيت الواقية » من فيرول ، لأنه
معروف فيها) وأنه سيسبب متاعب للسيدة فلورييه . وفكر في نفسه بان
مهابته في المصنع ستقل كثيراً اذا أخذت ابنة احد العمال تفاخر بأنها ضاجعته .
« ليس لي الحق ان ألامسها » . لقد تجنب الانفراد ببرت طيلة الأيام الأخيرة
من شهر ايلول . وقال له ونكلن : « واخيراً ماذا تنتظر ؟ » فأجاب
لوسيان إجابة جافة : « لن أقدم على هذه الخطوة فأنالا أرغب في غرام الخادمت
ولما سمعه وينكلن يتحدث عن غرام الخادمت ، صفر صفرة خفيفة
وسكت .

كان لوسيان شديد الرضى عن نفسه : لقد تصرف كإنسان عصري ، وهذا
ما يعوض له عن الكثير من الأخطاء . ثم يقول ببعض الأسف : « كانت
جديرة بالحيازة » . لكنه يعود ويفكر : « لكأنني نلتها : إذ هي قدمت
نفسها ولم أرض » . واعتبر انه ليس بعد طاهراً . تلك المسرات الخفيفة
شغلته عدة ايام ثم تحولت بدورها الى غمام . وفي بداية تشرين الأول ،
أحس بنفس الضيق الذي كان فيه في العام الدراسي المنصرم .

لم يكن برلياك قد عاد ، ولا أحد يعرف شيئاً عن أخباره . ولاحظ

لوسيان وجود بعض الوجوه التي لا يعرفها : إن جاره الذي كان يجلس الى يمينه واسمه لي موردا درس سنة في فرع الرياضيات في بواتيه . وهو لا يزال اطول من لوسيان ، فقد اصبح رجلاً كبيراً بشاربيه الأسودين . لقد قابل لوسيان رفاقه بغير سرور ، لأنهم بدوا بعينه تافهين كثيري الضجيج : إنهم رهبان . وهو لا يزال يشترك بتظاهراتهم الجماعية ولكن بغير حماس . واجتذبه لي مورداً لأنه أكثر نضوجاً من الآخرين ، لكنه لم يبد عليه أنه أفاد قدر إفادة لوسيان من تجاربه الكثيرة الصعبة : إنه بالغ بالولادة . وغالباً ما كان لوسيان يتمتع بمنظر هذا الرأس الضخم المفكر ، الذي لا عنق له ، وإنما غرس بين الكتفين اعتباراً : وليس بالامكان ادخال اي شيء فيه لا عن طريق الأذنين ، ولا عن طريق العينين الصينيتين المحمرتين . وفكر لوسيان باحترام : « انه شخص له آراؤه الراسخة » . كما كان يتساءل ، وليس بغير حسد ، ما يمكن ان يكون ذلك اليقين الذي يجعل لي مورداً ، يعي نفسه الى هذا الحد . « وهذا ما ينبغي ان أكونه : صخرة » . ودهش كثيراً اذ كيف للي مورداً أن يفقه المنطق الرياضي ؛ وطمأنه الاستاذ هوسون بعد ان رد لهم الفروض الاولى : حل لوسيان سابعاً ، أما لي مورداً فنال العلامة خمسة وحل في الدرجة الثامنة والسبعين . كل شيء كان يسير بانتظام . ولم يتعجب لي مورداً إذ يبدو أنه توقع نتيجة أسوأ ، ولم يكن خداه الاصفهان الناعم ، وفمه الصغير ، لتعبير عن المشاعر . إنه كتمثال بوذا . لم يره أحد وهو غاضب سوى مرة واحدة ، في اليوم الذي دفعه لوفي الى غرفة الثياب . أرسل في البداية بعض الهمهمات الحادة وهو يرفرف بحاجبيه . ثم قال في النهاية « الى بولونيا ! الى بولونيا ! يا يوبان القذر ، ولا تلتطخنا بقذارتك هنا » . وخيم على لوفي بقامته الضخمة وما لبث ان صفعه صفعتين ، فاعتذر لوفي القصير ، ووقف الأمر عند هذا الحد .

يوم الخميس خرج لوسيان بصحبة غيغار وقد دعاه الى الرقص عند صديقات شقيقته . لكن غيغار اعترف في النهاية بأن هذه البلاهات تقلقه .

وأسرّ للوسيان : « لي صديقة موظفة عند بليسنه ، في شارع رويال . ولها صديقة ليس عندها صاحب : فعليك ان تأتي معنا مساء السبت » .
وتنازع لوسيان مع أهله حتى سمحوا له بالخروج أيام السبت ؛ على ان يتركوا له المفتاح تحت المسحة . ولحق بغيغار في الساعة التاسعة الى احدى الحانات في شارع سانت - هونوري . وقال غيغار : « ستري ، ان فاني جذابة ومن ميزاتنا أنها تحسن الاعتناء بهندامها » .

- وصديقتي أنا ؟

- أنا لا أعرفها ، لكنني اعرف انها عاملة خياطة قدمت الى باريس مؤخراً من انغوليم .

وأضاف : « لا تخطيء : أنا بيار دورا . وانت بما انك اشقر ، فقد قلت بأن دمك انكليزي ، فهذا أفضل . واسمك لوسيان بونيار .

فسأل لوسيان مدهوشاً :

- ولكن لماذا ؟

فأجاب غيغار :

- يا صاح - انه مبدأ ، بإمكانك ان تفعل أي شيء مع هؤلاء النسوة ، ولكن ليس بإمكانك أن تعطيهن اسمك الحقيقي .

فقال لوسيان :

- حسناً ، حسناً . وماذا عن مهنتي في الحياة ؟

- بإمكانك ان تقول إنك طالب ، فهذا أفضل ، فعشرة الطلاب تروق لمن ؛ ثم إنك تضطر لدفع ثمن باهظ . أما بالنسبة للتكاليف فسنتقسمها بالطبع . ولكن دعني ادفع هذا المساء لانني ألفت ذلك : وسأعين لك يوم الاثنين المبلغ الذي ينبغي أن تدفعه لي . وفكر لوسيان في الحال بأن غيغار يريد ان يجني

مكسباً من وراء ذلك . وفكر أيضاً في نفسه : « كم أصبحت حذراً ! » في تلك اللحظة بالذات دخلت فاني : كانت فتاة طويلة سمراء اللون نحيلة الجسم ، ذات فخذين مديدين ووجه شديد التبرج . فوجدها لوسيان مهيبه . وقال غيغار : « انه السيد بانيار الذي حدثتكَ عنه » . فقالت فاني بغير اهتمام : « تشرفنا . وهذه مود ، صديقتي » . وأبصر لوسيان بامرأة قصيرة القامة ، لم تتبرج ، كما بدا لونها أغبر الى جانب فاني الرائعة . اصيب لوسيان بخيبة أمل مريرة ، لكنه وجدها جميلة الثغر - ثم انه لن يشعر معها بانزعاج . واتفق غيغار معها على الأجرة وسط الضجة التي سادت عند دخولها واصطحب الفتاتين نحو الباب ، قبل ان يفسح لهما المجال كي تتناولوا شرباً ما . لم يكن السيد فلورييه يعطي لوسيان أكثر من مئة وخمسة وعشرين فرنكاً في الاسبوع من ضمنها اجرة المواصلات . كانت الأمسية جميلة ؛ فقد ذهبوا ليرقصوا في الحى اللاتيني ، في قاعة ساخنة وردية ذات زوايا مظلمة ، حيث سمر كأس الكوكتيل بمئة فلس . كان فيها الكثير من الطلبة مع نسوة من طراز فاني ولكن دونها رونقاً . وكانت فاني رائعة : نظرت الى رجل سمين أرسل لحيته ووضع في فمه غليوناً وصاحت بأعلى صوتها . انني أكره الرجال الذين يضعون الغليون في حلبة الرقص » . فاحمر وجه الرجل ووضع غليونه وهو يشتعل ، في جيبه . كما انها عاملت غيغار ورفيقه باحتقار مرددة على مسامعها : « انتما صبيان قذران » . واحس لوسيان بأنه مرتاح جداً ، وقد سرد لفاني كثيراً من الدعابات المسلية وهو يبتسم عندما يقولها . واخيراً ، لم تعد الابتسامة تفارق وجهه وعرف كيف يتدبر امره بنوع من اللياقة . لكن فاني لا تكلمه كثيراً : بل امسكت ذقن غيغار بيدها وضغطت عليها لتبرز فمه الى الخارج . وما تدفق شفتاه وتنتفخان حتى تروح تلمسها برفق قائلة : « يا طفلي » . وأحس لوسيان بانزعاج شديد ووجد غيغار مضحكاً : اذ تلمطخت شفتاه بأحمر الشفاه وعلى وجهه آثار أصابع . لكن وضع الرفاق الآخر كان اكثر اهمالاً . الجميع يتعاقنون ، كما تأتي من وقت لآخر السيدة

المولجة بغرفة الثياب وترمي بكرات متعددة الألوان صائحة : « هيا يا أبنائي ، استمتعوا ! » . ويبدأ الجميع بالضحك . واخيراً تذكر لوسيان بأن مود موجودة فقال باسم : « انظري الى هذين الشابين » . وهو يعني غيغار وفاني وأضاف : « أما نحن فشيخان وقوران ... » ولم يمهله عبارته ، بل ضحك بصورة غريبة حتى ضحكت مود بدورها . وانتزعت قبعته ، ورأى لوسيان انها كانت افضل من سائر النساء اللاتي كن في الحلبة . عندئذ دعاها للرقص وحدثها عن الألعيب التي قام بها مع الأساتذة ، عندما كان في صف البكالوريا . انها تحسن الرقص ، كما ان عينيها سوداوين رصينتين ، وعليها سماء النباهة . حدثها لوسيان عن برت وقال لها انه يشعر بالندم متأماً وأضاف : « لكن هذا كان افضل لها » . ووجدت مود قصة برت شاعرية وحزينة معاً ، وسألت كم تكسب برت من عملها عند اهل لوسيان . وأضافت : « أليس من المضحك حقاً أن تتخذ الفتاة لنفسها وضعاً معيناً » . لم يعد غيغار وفاني يهتمان بهما ، فهو يداعبها وهي تداعبه ، وكان وجه غيغار مبللاً من العرق . وراح لوسيان يردد من وقت لآخر : « انظري الى الشابين ، انظري اليهما » . وجهز عبارته : « انها يدبان بي الرغبة لأعمل مثلها » . ولكنه لم يضعها في مكانها واكتفى بالابتسام ، ثم تظاهر بأنه رفيق قديم لمود ، قدمل من الحب وسمّاها « بالأخ القديم » . وتظاهر بأنه يربت على كتفها . وفجأة نظرت فاني نحوها مدهوشة وقالت : « إذا ، أيتها الطبقة الصغيرة ، ماذا تفعلان ؟ تعانقا ، فستموتان من شدة الرغبة » . واخذ لوسيان مود بين ذراعيه ، كان مزعوجاً بعض الانزعاج لأن فاني تتطلع اليهما : أراد أن تكون القبلة طويلة ناجحة ، لكنه تساءل ما ينبغي أن يفعله الناس ليستطيعوا التنفس . واخيراً ، وجد ان العناق ليس بمثل الصعوبة التي توقعها ، إذ يكفي ان يقبل المرء اعتباراً حتى يزيح منخريه . وسمع غيغار وهو يعدّ : « واحد ... اثنان ... ثلاثة ... أربعة ... » وترك مود عند رقم اثنين وخمسين . وقال غيغار لا بأس بهذا كبداية ؛ لكنني ساحسن الحال » ونظر لوسيان الى قشاط ساعته وراح يعدّ بدوره : « ترك

غيغار ثغر فاني بعد مئة وخمسين ثانية . وفكر في نفسه . وغضب لوسيان أشد الغضب ووجد انها مسابقة لا معنى لها . وفكر في نفسه : « لقد تركت مود بملء ارادتي ، فليس هذا صعباً ، اذ انه ما ان يتعلم المرء كيف يتنفس حتى يصبح بإمكانه ان يستمر وقتاً لا نهاية له . » وعاودوا الكرة ثانية . وما ان انتهى الجميع ، حتى تطلعت مود الى لوسيان وقالت له برصانة : « انت تحسن التقبيل » . فاحمر وجه لوسيان من السرور . وأضاف هو ينحني : « أنا في خدمتك » لكنه مع ذلك يؤثر تقبيل فاني . وافترقوا في الساعة الثانية عشرة والنصف ، موعد المترو الأخير . كان لوسيان جذلاً : « لقد كسب القضية » . لكن زوايا فمه باتت تؤلمه لأنه ابتسم كثيراً .

اعتاد على مقابلة موديوم الخميس في السادسة وليلة السبت . كانت تسمح له بتقبيلها بدون ان تستسلم له . فشكا لوسيان الأمر لغيغار فطمأنه قائلاً : « لا تقلق بالك ، فاني متأكدة من انها ستضاجع ؛ فهي لا تزال صغيرة ولم تعرف سوى عشيقين حتى الآن ؛ توصيك فاني بأن تكون شديد الرقة معها » . فقال لوسيان : « شديد الرقة » . كان يقبل مود كثيراً ويقول لها انه يحبها ، ولكن مع الوقت اصبح هذا رتيباً ، ثم انه لم يكن فخوراً بالخروج معها : كما ان بوده ان يبدي لها بعض الملاحظات بشأن زينتها لكن لديها الكثير من المزايم الخاطئة فضلاً عن أنها سريعة الغضب . وفي فترة ما بين القبيلتين ، كانا يظلان صامتين ، يمسك واحدهما بيد الآخر مثبتاً نظره فيه . « الله يعلم بم هي تفكر ، بتلك النظرات الصارمة » . أما لوسيان ، فكان يفكر بشيء واحد : بتلك الحياة الكئيبة المبهمة ، حياته هو . فيقول في نفسه : « أود ان أصبح مثل لي موردان ، فهذا شخص عرف كيف يجد طريقه ! » في تلك اللحظات ، يرى نفسه وكأنه انسان آخر : يجلس بجوار امرأة تحبه ، يدها في يده ، وشفتاها لا تزالان مبللتين من قبلاته ، ترفض السعادة التي يعرضها عليها : وحده . عندها يضغط بقوة على أصابع مود

الصغيرة وتصعد الدموع الى عينيه : إنه يريد أن يسعدها .

في يوم من ايام كانون الاول اقترب لي موردان من لوسيان، وكان يحمل ورقة وسأله : « هل تريد ان توقع عليها » .

- ما هذه ؟

- إنها عريضة احتجاج ضد عريضة أخرى تحمل مئتي توقيع ، تعارض التجنيد الاجباري . ونحن يلزمنا جمع الف توقيع . واعترت لوسيان النشوة وسأل : « وهل ستنشره » - في جريدة أكسيون بالطبع . أو في الايكودي باري « وأراد لوسيان ان يوقعها في الحال ، لكنه لم يجد ان توقيعها بسرعة يدل على الرصانة . فأخذ الورقة وقرأها بانتباه كلي . وأضاف لي موردان : « انت لا تهتم بالسياسة ، وهذا شأنك . لكنك فرنسي ، ولك الحق بأن تقول كلمتك » . ولما سمع عبارة « لك الحق بان تقول كلمتك » عمت الفرحة في نفس لوسيان ووقع العريضة . وفي اليوم التالي اشترى جريدة الأكسيون ، لكن العريضة لم تكن موجودة فيها . ولم يتم نشرها إلا يوم الخميس ، لقد عثر عليها لوسيان في الصفحة الثانية بعنوان : « شبيبة فرنسا تسدد ضربة قاصمة الى وجه الحركة اليهودية الدولية » . واسمه كان موجوداً ، في مكان غير بعيد عن اسم لي موردان . انه اسم ملائم . وفكر في نفسه : « لوسيان فلورييه ، اسم فلاح ، اسم فرنسي حقاً » . وقرأ بصوت عال قائمة الأسماء التي تبدأ بحرف ف ، ولما جاء دور اسمه ، لفظه متظاهراً بأنه لم ينتبه اليه . ثم وضع الجريدة في جيبه وعاد الى بيته مسروراً على أشد ما يكون السرور .

وذهب من تلقاء نفسه بعد أيام لمقابلة لي موردان : « هل تقرأ جريدة الأكسيون أحياناً ؟ » فقال لوسيان بصراحة « ليس كثيراً ، فهي لا تهمني كثيراً : حتى الآن ، لكنني أحس بانني أتبدل » . كان لي موردان ينظر اليه بغير اهتمام . واخبره لوسيان بالتفصيل عما سماه برجير « بالتشوش » فسأله

لي موردان : « من أين أنت ؟

- من فيرول ، وأبي يملك مصنعا فيها .

- كم بقيت من الوقت هناك ؟

- حتى الصف الثاني .

فقال لي موردان :

- أرى تماماً بانك غير مركز هل قرأت بارّس ؟

. قرأت كوليت بودوش .

فقال لي موردان بغير صبر :

- ليس هذا .

- سأتي لك بعد الظهر بكتاب « المهاجرين » انها قصتك . ستجد فيها « العلة والدواء » . كان الكتاب مجلداً بغلاف جلدي أخضر . على الصفحة الأولى اسم « اندريه لي موردان . ودهش لوسيان ! لم يخطر قط بباله ان يكون للي موردان اسم شخصي .

وبدأ قراءته ببالح الحذر : فكثيراً ما شرح الناس له الأمور ، وكثيراً ما أعاروه الكتب قائلين له : « اقرأ هذا ، فهو يشبهك تمام الشبه » . وفكر لوسيان ، بضحكة كثيية ، انه ليس الرجل الذي يمكن خداعه ببعض العبارات : عقدة اوديب ، والتشوش : يا لها من صيانيات وكم ان هذا بعيد المنال ! لكنه تأثر منذ الصفحة الأولى : فليس الكتاب في علم النفس . - والشباب الذين تحدث عنهم بارّس ليسوا من الأشخاص المجردين او الخارجين على مجتمعهم مثل رامبو وفرلين ، وليسوا مرضى كنساء فينّا اللواتي لا عمل لهن سوى التردد على عيادة فرويد ، وراح بارّس يضع هؤلاء الشباب

في إطار وسطهم وعائلتهم ؛ لقد احسنوا تربيتهم في المناطق الخارجة عن باريس ضمن التقاليد المتينة . ووجد لوسيان ان ستوديل يشابهه . وقال في نفسه : « هذا صحيح مع ذلك ، فأنا هاجرت من بلدي » . وفكر بصحة آل فلورييه المعنوية ، الصحة التي لا يؤتى بمثلها الا في الريف ، وفكر ايضاً بقوتهم الجسدية (كان جده يلوي قطعة النقود المعدنية بين أصابعه . وتذكر بتأثر طلوع الفجر في فيرول : كان ينهض ، وينزل مسرعاً كيلا يوقظ أبويه ، يأخذ دراجته ، ويخلب لبه منظر الإيل دي فرانس . وفكر في نفسه بقوة : « لقد كرهت باريس على الدوام » . وقرأ « حديقة بيرنيس » ، وكان من وقت لآخر يقطع قراءته ويفكر ، بعينين شاردتين . ها انهم من جديد يقدمون اليه طبيعة ومصيراً ، وسيلة للتخلص من الثمرات التي لا تنتهي ، طريقة ليحدد نفسه بها ويعرف قيمتها . ولكم يؤثره ذلك اللاوعي المفعم برائحة الحقول ، والذي عرفه عند بارّس لكم يؤثر على حيوانات فرويد الشهوانية . وحتى يدرك ذلك ، لم يكن ينبغي على لوسيان إلا ان يتحوّل عن تأمل عقيم وخطر لنفسه : ينبغي له ان يدرس أرض فيرول من الخارج والداخل ، وأن يفسر معنى الهضاب التي تبلغ « سرنيت » ، وان يتجه نحو الجغرافيا البشرية والتاريخ . أو ان عليه بالأحرى ان يعود الى فيرول ليعيش فيها : سيجدها تحت قدميه ، خصبة وديعة ، تمتد على طول الريف الذي يحمل اسمها ، الريف الذي يمتزج بالأعشاب والغابات والسواقي . ومن هناك ستأتيه القوة اللازمة كي يصبح قائداً . وخرج لوسيان شديد التحمس من خيالاته الطويلة ، انه بات يفكر من وقت لآخر ، إنه قد وجد سبيله . والآن عندما يقف واجماً الى جانب مود ، كانت الكلمات ترن في أذنه « إعادة وصل التقاليد » . « الأرض والأموات » كلمات عميقة ليس لها قرار . وفكر في نفسه « كم هذا مشوق » . غير انه ، لم يتجرأ على تصديق ذلك : فكثيراً ما خاب ظنه . وأعرب للي موردان عن مخاوفه . فقال لي موردان : وسيكون الأمر جميلاً . فليس بالامكان ان يؤمن الانسان بسهولة بما يراه . بل ان عليه ان يجرب » . وفكر لحظة ثم

اضاف : عليك ان تأتي معنا . وقبل لوسيان بطيبة خاطر ، لكنه أوضح بأنه يريد حريته وقال : « سأذهب ، غير اني لن التزم . سأرى وافكر » .
وسر لوسيان بصحبة صغار البائعين ، الذين استقبلوه استقبالا قلبيا وبسيطا معا ، ولم يمض وقت طويل حتى شعر بالارتياح بينهم . وتعرف بسرعة على «عصبة» لي موردان ، وهم عشرون طالبا يعتمرون قبعات الخمل . كانوا يداومون على الطابق الأول عند بولدر حيث يلعبون البريدج والبليار . وكان لوسيان يذهب للقائهم ، ويدرك بأنهم تبنوه ، لانهم يستقبلونه دائما هاتفين : « ها هو أجملنا ! » أو « انه فلورييه ذخر الوطن » . لكن حسن عشرتهم هي التي أثرت في نفس لوسيان : فلا ادعاء ولا استبداد ، وقليل من المحادثات السياسية . كان يضحكون وينشدون الأغاني ويهتفون للشبيبة الطلابية ، حتى لي موردان نفسه الذي لم ينكر عليه احد جديته كان يبتسم في بعض الأحيان . أما لوسيان ، فكان يسكت في أكثر الأحيان منصتا الى هؤلاء الشباب الرافلين بالصحة ، الزاخرين بالعضلات . وفكر في نفسه : « انهم يشكلون قوة » .
لقد تعرف في وسطهم على معنى الشباب الحقيقي : اذ ان معناه ليس موجودا في الاغراء المريض الذي يقدره برجير . الشبيبة ، انها امل فرنسا . ولم يكن لأصدقاء لي موردان مظاهر المراهقة المغربية : انهم راشدون نبتت لحاهم ، يبعثون في نفس الناظر اليهم نوعا من الارتياح العائلي : لقد انتهوا من متاهات السن وشكوكه . كانت مباحثاتهم الخفيفة القوية تثير الخجل في نفس لوسيان : لكنه بالامكان اعتبارهم غير واعين لتلك الحال . ولما جاء ريمي ليعلن أن السيدة دوبوس ، زوجة القائد الراديكالي ، قد قطعت الشاحنة ساقها ؛ انتظر لوسيان ان يعمد الرفاق الى الترحم على زوجة الخصم . لكنهم انفجروا بالضحك وراحوا يضربون على أفخاذ بعضهم البعض قائلين : « الجثة العتيقة » .
« سائق الشاحنة ذو التقدير » . وتأثر لوسيان قليلا ، غير انه ادرك أن ذلك لم يكن سوى الرفض : لقد استشفوا الخطر ، ولم يرضوا بنوع من الشفقة . وراح لوسيان يضحك بدوره ، واحرز بعض النجاح . وعندما كان يقول :

« إذا قضى في سريره هذا الرجل ، فليس هناك من إله » وأحس بأن نوعاً من الغضب الشديد يتولد فيه . عندها ضغط على فكيه ، وأحس للحظة بأنه مقتنع اقتناع ريمي ودي بيرو الضيق . وفكر في نفسه : « إن لي موردان محق . إذ ينبغي اجراء الممارسة ، فكل القضية هنا » . وتعلم أيضاً كيف يرفض المناقشة : فغيغار الذي كان جمهورياً ، أرهقه بالملاحظات . واصغى اليه لوسيان بطيبة خاطر ، ولم تمض لحظة حتى أغلق على نفسه . واستمر غيغار بالكلام ، لكن لوسيان لم يعد ينظر اليه ، بل راح ينفخ الدخان من فمه على شكل دوائر وهو يتفحص وجوه النساء . غير انه كان يسمع ، رغم كل شيء ، ملاحظات غيغار التي تصل الى مسامعه وتتحول من ثم الى كلمات خفيفة لا معنى لها . واخيراً سكنت غيغار متأثراً كل التأثر . وحدث لوسيان أبويه عن أصدقائه الجدد وسأله السيد فلورييه إذا كان ينوي أن يصبح بائعاً صغيراً . وتردد لوسيان ثم قال برصانة : « إن هذا يجتذبني . حقاً انه يجتذبني - فقالت أمه : « لوسيان ، أرجوك لا تقدم على هذا العمل ، انهم متقلقلون ، وقد تقودك صحبتهم الى السجن ؟ ثم انك لا زلت صغيراً ولم يأت الوقت لتعمل في السياسة » . ولم يجبه لوسيان بسوى ابتسامة جادة ، فتدخل السيد فلورييه قائلاً بعدوبة : « دعيه يا عزيزتي ، دعيه يقدم على هذا العالم ، إذ ينبغي أن يمر بهذه المرحلة » . وبدا للوسيان منذ ذلك الحين أن اهله باتوا يعاملونه بنوع من الاعتبار . غير انه لم يصمم على شيء . فقد علمته هذه الأسابيع الأخيرة الكثير من الأمور . وتمثل فضول أبيه ، ومخاوف أمه ، واحترام غيغار ، والحاح لي موردان ، ولجاجة ريمي وقال هو يهز رأسه : « ليس ذلك عملاً بسيطاً » . وتحدث مطولاً مع لي موردان ، وتفهم لي موردان جميع الأسباب التي قدّمها ، ونصحه بالألا يستعجل . كان لوسيان لا يزال يشعر بالضيق : وبدا له انه ليس سوى شيء شفاف يرتجف على سطح فنجان القهوة ، ورأى أن تحركات البائعين الصغار لا مبرر لها . غير انه أحس في لحظات أخرى بأنه قاس وثقيل كالحجر ، فسرّ لذلك بعض السرور .

وأخذت أحواله تتحسن مع أولئك الأصحاب . فأنشد لهم أنشودة عرس
ربیکا التي علمه إياها هبرار في العطة الماضية . وصرح الجميع بأن الأنشودة
مسلية جداً . فتحمّس لوسيان وأبدل بعض الملاحظات ضد اليهود وتحدث عن
برلياك البخيل : « كنت أقول في نفسي لماذا هو مقتر إلى هذا الحد ، ليس
بالامكان ان يكون المرء مقترأ إلى هذا الحد . ثم فهمت ذات يوم انه ينتمي
للقبيلة » . وراح الجميع يضحكون فتحمّس لوسيان حماساً كبيراً : أحس بأنه
شديد النعمة على اليهود كما ان ذكرى برلياك كانت كريهة جداً بالنسبة اليه .
ونظر اليه لي موردان ملياً وقال له : « أنت عفيف » . وبعدها سئل لوسيان
مراراً « فلورييه : اخبرنا قصة عن اليهود » . ويبدأ لوسيان بسرد القصص التي
حفظها عن والده ، مستهلاً كلامه بتقليد لهجة اليهود . ليضحك رفاقه . ذات
يوم قال ريمي وباتنوتر إنها اشتبكا مع يهودي جزائري على ضفاف السين وجعله
يخاف خوفاً شديداً وهما يتقدمان اليه وكأنهما يريدان إلقاءه في الماء وختم ريمي
حديثه بقوله : « يا للأسف ، آه لو كان فلورييه معنا » . فقاطعه ديبرو « إن
غيابه افضل ، لأنه لو كان موجوداً لألقى به فعلاً في الماء . ليس لدى لوسيان
من شبيه له حتى يتعرف على اليهودي بمجرد رؤيته . وعندما يخرج مع غيفار ،
كان يدفعه برفق : « لا تستدر إلى الورا في الحال : هذا القصير الضخم الذي
وراءنا هو واحد منهم » . فيقول غيفار : « لديك حاسة قوية في مثل هذه
الأمور » . وقاني بدورها لاتستطيع ان تشم رائحة اليهود . صعد الأربعة
معاً يوم الخميس إلى غرفة مود ، وغنى لوسيان أنشودة عرس ربیکا . ولم تعد
قاني تتمالك ذنسها فقالت له « توقف ، توقف ، سأبول في سروالي » . وما
ان ينتهي حتى ترمقه بنظرة ملؤها السرور والعدوبة . في معمل بولدر ، دبروا
للوسيان مقلباً . فهناك دائماً من يقول : « فلورييه الذي يحب اليهود كثيراً ، أو
« ليون بلوم صديق فلورييه الكبير » . . . بينما ينتظر الآخرون فاغرين أفواههم
ردّ الفعل لديه ويحمر وجه لوسيان ، ويضرب على الطاولة صائحاً : « يا للاسم
اللعين . . . ! » فيضحك الجميع ويقولون :

« ها قد مشى ؟ ها قد مشى ! »

« كلا لم يمش : بل ركض ! »

كان يصحبهم اكثر الأحيان الى الاجتماعات السياسية ويستمع الى الاستاذ كلود والى ماكسيم ريل دل سارت . ولا شك بان هذه الأمور كانت تعيق لوسيان عن دروسه ، ولم يعد يتأمل بالنجاح في تلك السنة في مباراة المدرسة المركزية ، لذا كان السيد فلورييه يقول لزوجته : « لا بأس ، عليه ان يتعلم كيف يكون رجلاً » وعندما يخرجون من الاجتماعات يعمد لوسيان ورفاقه الى ارتكاب الأعمال الصيانية لشدة تحمسهم . ذات يوم وكانوا خمسة عشر شخصاً يسرون في شارع سان أندريه دي آر أبصروا بشخص يقرأ جريدة الأومانيته . فحصروه عند الحائط وأمره ريمي بقوله : « إرم هذه الجريدة » . وأراد الرجل ان يقاوم ، فجاء ديبرو من ورائه وكتف له يديه ، بينما انتزع منه لي موردان الجريدة . انه لأمر ممتع : راح الرجل القصير يلبط في الهواء صائحاً : « اتركوني ! اتركوني ! » بلهجة مضحكة ، بينما كان لي موردان يمزق الجريدة على مهل . ولكن حين أراد ديبرو أن يفلت الرجل ، تأزمت الأمور : كاد الرجل يمسك لي موردان ، لو لم يضربه ريمي على أذنه ضربة قوية . فارتطم الرجل بالجدار ونظر اليهم صائحاً : « يا لكم من فرنسيين قذرين ! » فقال له مارشسو : « كرر ما قلته » . وفهم لوسيان ان القضية سيزداد تدهورها : اذ ان مارشسو لم يكن يستطيع الممازحة حين تتعلق القضية بفرنسا وقال الرجل الغريب . « يا لكم من فرنسيين قذرين » . فتلقى ضربة قوية وارتمى الى الأمام مطأطئ الرأس صائحاً : « يا للفرنسيين القذرين ، يا للبورجوازيين القذرين ، انني اكرهكم ، أريد أن تموتوا جميعاً ، جميعاً ! » وأضاف الكثير من الشتائم الأخرى التي لم يكن لوسيان ليتصورها . عندها ضاقوا به ذرعاً واشتركوا جميعاً في عملية إصلاحه . وما هي الا لحظة حتى تركوه فتهالك الرجل ، وأسند ظهره للجدار ، وتجمعوا حوله بعد ان تعبوا من الضرب ينتظرون

وقوعه على الأرض . ولوى الرجل فمه وبصق : « يا للفرنسيين القذرين ! »
وسأله ديبرو وهو يلهث : « هل تريد ان تعاود الكرة . ولم يبد على الرجل
انه سمع : بل كان ينظر اليهم بعينه اليسرى ، التي لم تصب وراح يكرر :
« يا للفرنسيين القذرين ! يا للفرنسيين القذرين ! »

ومرت فترة تردد ، وفهم لوسيان بأن رفاقه لن يتابعوا الجولة . فانقضَّ
بدوره على الرجل بكل قواه . وسمع شيئاً يقرقع ، فنظر اليه الرجل مبعوثاً
« يا للقذرين ... » وبدأت عينه اليمنى المغمضة تنفتح بعض الشيء . ووقع
على ركبتيه ولم يضيف أي شيء . فقال ريمي : « فلنذهب » . وراحوا
يركضون ولم يتوقفوا إلا عند جادة سان - ميشال : ما من أحد لحق بهم .
وحسنوا وضع ياقاتهم وسرّحوا شعرهم على عجل .

ومضت السهرة بدون ان يأتي الشباب على ذكر مغامرتهم ، وتأنسوا
فيما بينهم : ها انهم يتركون ذلك العمل الوحشي الذي يخفي مشاعرهم
وراه . وراحوا يتحدثون بكل تأدب ، وفكر لوسيان بأنهم بدوا للمرة
الأولى كما ينبغي أن يكونوا عليه في منازل أهلهم . لكنه كان منزعجاً ؛ إذ أنه
لم يألف القتال في الشارع مع أبناء الأزقة ، وفكر بمود وفاني بجنو .

لم يذق طعم النوم . وفكر في نفسه : « ليس بإمكانني ان ألتحق بهم كهاو ،
عليّ أن اعلن انتائي الآن ! » وشعر بأنه رصين جداً حين زفّ النبأ للي
موردان . فقال له : « ها أنك تصمم » ، وأنا معك » . وربت لي موردان على
كتفه ، واحتفلت الجماعة بالحدث وشربوا عدّة زجاجات . وعادوا الى
لهجتهم العنيفة ولم يتناولوا حادث البارحة . ولما هموا بالافتراق قال مارشسو
للوسيان : « ضرباتك قوية ! » فأجاب لوسيان : « لقد كان يهودياً ! »

وفي اليوم الذي تلا الغد ، أتى لوسيان لمقابلة مود وهو يحمل قضيباً
غليظاً من الخيزران اشتراه من جادة السان ميشال . وأدركت مود المغزى في
الحال ، ونظرت الى القضيب قائلة : « إذا فقدت الأمر » . وأجابها باسمها :

« لقد تمّ ». ورأت مود أن هذا يرفع من شأنها شخصياً ؛ وإن كانت أقرب الى اليسار ، فانها واسعة الأفق . وقالت له : « انني أجد جوانب حسنة في جميع الأحزاب » . وفي المساء ؛ حكّت له اذنه عدة مرات وهي تخاطبه بالبائع الصغير . بعد ذلك بوقت قصير ، يوم السبت ، شعرت مود بالتعب وقالت له : « أرى أنه ينبغي أن اعود الى البيت ، ولكن بإمكانك أن تصعد معي ، لو كنت عاقلاً ؛ ستمسكني بيدي وستكون لطيفاً جداً مع مود الصغيرة التي تشعر بالألم ، وستقصّ عليها الحكايات » . ولم يتحمس لوسيان كثيراً للفكرة : إذ أنّ غرفة مود كانت تضايقه بقلة أثاثها ، فهي كغرفة الخادومات . لكنه من الجريمة أن يجعل الفرصة تفوته . وما ان دخلت مود ، حتى ارتمت على السرير قائلة : « أوف ، كم أشعر بالارتياح » . ثم سكتت ونظرت الى لوسيان بامعان بعد أن زمّت شفقتها . وأتى ليستلقي الى جانبها ، ووضعت يديها على وجهها وباعدت بين اصابعها قائلة بصوت كصوت الطفل : « كوكو ، ها أنا أراك ، أنا أراك يا لوسيان » وأحس بأنه ثقيل رخو ، ووضعت أصابعها في فمه فراح يمصها ، وقال لها برقة : « إن صغيرتي مود مريضة ، كم هي بائسة صغيرتي مود » . وداعب كل جسدها ، وكانت قد أغمضت عينيها وهي تبسم ابتسامة غريبة . وما هي إلا لحظة حتى رفع فستان مود ورأى أنه يضاجعها . وفكر لوسيان : « أنا قدير » . وقالت مود بعد ان انتهيا : « آه ، لو كنت انتظر مسبقاً ! » ونظرت الى لوسيان بنوع من العتاب العذب : « يا لك من خبيث ظننت انك ستظل عاقلاً ! » وقال لوسيان بأنه فوجيء أيضاً بذلك وقال : « حدث الأمر تلقائياً » . ففكرت قليلا وقالت له برصانة : « أنا لا آسف على شيء ؛ في السابق كان الامر أكثر طهارة ، ولكن أقلّ كلاً » .

وفكر لوسيان في الميتر : « إن لي عشيقة » . كان فارغ الذهن ، تعباً ، يشم رائحة الافستين والسمك الطازج . وجلس في مكانه جامداً ليتجنب ملامسة قميصه المبلل بالعرق . وتهيأ له أن جسده قد صنع من اللبن . وكرر

لنفسه بقوة : « ان لي عشيقة » . لكنه شعر بالحرمان ، فان الذي جعله يرغب في مود حتى عشية أمس ، كان وجهها الضيق ، وشكلها الرقيق ، وشهرتها كفتاة رصينة ، واحتقارها لجنس الرجال ، وكل ما يجعل منها شخصاً غريباً ، انساناً « آخر » . بأفكارها الخاصة وحشمتها ، وجوربها الحريريين ، وذاب الطلاء حين ضمها اليه ، ولم يبق سوى اللحم ، لقد اقتربت شفتاه من وجهه ليس له عينان ، وجه عار كالبطن ، لقد حاز على زهرة ضخمة من اللحم المبلل . وتذكر الحيوان الأعمى الذي كان يتحرك في السرير وفكر : « انه كلانا معاً » . لم يكونا سوى شخص واحد ، لم يعد بوسعه أن يميز لحمه عن لحم مود . ما من أحد جعله يشعر بتلك الصحبة الخالصة سوى ريري : حين كان ريري يبدي عضوه وراء السياج أو حين كان ينسى نفسه نائماً على بطنه ، يحرك رجليه ويديه ، بقفاه العارية ، بينما هو يحففون سرواله . وشعر لوسيان ببعض العزاء حين فكر بغيغار : سيقول له غداً بأنه ضاجع مود ، « انها امرأة مشيرة يا صاح : والاثارة موجودة في قمها » . لكنه كان متضايقاً : يحس بأنه عار وسط المترو ، عار تحت ستار رقيق من الملابس ، جامد وعار بجوار الكاهن ، مواجهاً امرأتين ناضجتين ، وكأنه هليوننة قدرة .

وهنا غيغار بجرارة . وكأنه قد سئم معاشرة فاني : « ان عشرتها سيئة للغاية . وأمس قلبت وجهها طيلة السهرة » . واتفق كلاهما على انه ينبغي وجود نساء كهذه النساء ، اذ ليس بالامكان ان يبقى المرء طاهراً حتى الزواج ، ثم إن هذه النسوة لسن مغرضات ولا مريضات ، سوى انه من الخطأ التمسك بهن . وتحدث غيغار عن الفتيات الحقيقيات بكثير من الرقة ، وسأله لوسيان عن أخته . فقال غيغار : « صحتها جيدة يا صاح . وتقول بأنك سريع الهجران » وأضاف بنوع من الشرود : « هل تدري ! انني مسرور لأن لي شقيقة ، اذ أن هناك أشياء لا نستطيع ان نعياها بدون الشقيقات . وأعطاء لوسيان كل الحق . وبعدها ، أخذنا نتحدثان كثيراً عن الفتيات وأحسا بأنها مفعمان الشعر ، وكان يحلو لغيغار ان يردد قول أحد أعمامه ، وهو شديد النجاح مع

النساء : « لعلني لم افعل أية حسنة في حياتي الملعونة ، لكن هناك شيئاً واحداً سيسجله الله لي ، فمن الأفضل ان أتسبب بقطع يدي على ان أمدتها نحو فتاة من الفتيات » . كانا يذهبان أحياناً لزيارة صديقات بييرات غيغار . وكان لوسيان يحب بييرات كثيراً ، يحدثها بلمحة الأخ الأكبر وليس بغير مضايقة ، كما انه شكر لها حسن صنيعها لأنها لم تقدم على قص شعرها . وملأت عليه نشاطاته السياسية كل شيء ، اذ راح يبيع « الأكسيون فرانسيز » أمام كنيسة نوي . ويظل طيلة ساعتين يروح ويحيى ، منكش الاسارير . فترفع الفتيات وهن خارجات من الكنيسة انظارهن الجميلة اليه . عندها ينشرح لوسيان قليلاً ويبتسم هن . وقد أوضح لجماعته بأنه يحترم النساء وهو سعيد لأنه وجد انهن يتمتعن بنفس الإدراك الذي كان يأمله . وجميع أصحابه لهم شقيقات .

وفي ١٧ نيسان أقام آل غيغار حفلة بمناسبة بلوغ بييرات الثامنة عشرة من عمرها ، ودعي لوسيان الى الحفلة بالطبع . كان على صلة وثيقة ببييرات ، إذ انها تسميه راقصها الخاص ، وهو يظن بعض الظن بأنها تحبه . ورقص لوسيان عدة مرات مع بييرات ثم راح ليلتحق بغيغار في قاعة التدخين . فقال غيغار : « تحية لك ، أظن بأنكم تعرفون بعضكم البعض ، سيمون ، فينوس ، لودو » . وبينما غيغار يقدم أصدقاءه ، أبصر لوسيان بشاب أشقر ، كث الحاجبين ، يقترب منهم بتردد ، فاجتاحه الغضب . وتساءل في نفسه : « ماذا يفعل هنا هذا الشخص ؟ » وغيغار يعرف حق المعرفة انني لا استطيع ان أشم رائحة اليهود ! « وأشاح بوجهه وابتعد ليتجنب التعارف . وسأل بييرات بعد لحظة :

« ما هذا اليهودي ! »

— انه وايل ، طالب في معهد العلوم التجارية العليا ؛ تعرف عليه أخي في قاعة الاسلحة . فقال لوسيان : « انني اكره اليهود » . فضحكت بييرات ضحكة خفيفة وقالت : « انه شاب طيب ، تعال رافقني الى البوفيه » وتناول

لوسيان كوباً من الشمبانيا وما كاد يلقيه من يده : حتى رأى نفسه بمواجهة غيغار ووايل . ونظر الى غيغار نظرة ملؤها الغضب وأدار ظهره بسرعة . لكن بييرات أمسكته بذراعه . وباغته غيغار بصراحة قائلاً ببساطة : « صديقي فلورييه ، صديقي وايل . ها قد أجرينا التعارف » . ومد وايل يده ، وأحس لوسيان بضيق شديد . ولحسن الحظ ، تذكر كلام ديبرو : « لو كان فلورييه موجوداً لألقى به فعلاً في الماء » . ووضع يديه في جيبه وأدار ظهره لغيغار وفكر في نفسه وهو يطلب ثيابه : « لم يعد بإمكانني ان آتي الى هذا البيت مرة أخرى » . وأحس بنوع من التكبر المرير . « هذه هي عاقبة التزمت ، يفقد المرء مقدراته على العيش في المجتمع » . وفي الشارع تلاشى ذاك التكبر واعتراه قلق شديد . لا بد وان يكون غيغار قد غضب ! وهز رأسه وحاول ان يقول لنفسه باقتناع راسخ : « لم يكن ينبغي ان يدعو يهودياً ، في نفس الوقت الذي يدعوني فيه » . لكن غضبه تبدد . وتذكر بنوع من الضيق وجه وايل المستهجن ، ويده الممدودة ، وشعر بميل للمصالحة : « لا بد وان تفكر بييرات بأني فظ غليظ . كان ينبغي ان أصافح تلك اليد . فذلك لا يلزمني بشيء . ان كل ما كان يتوجب علي هو ان أقوم بتحيةة ملؤها التحفظ وأبتعد بعدها على الاثر : هذا كل ما هنالك » . وتساءل في نفسه إذا كان يستطيع العودة الى بيت غيغار . سيقرب من وايل ويقول له : « اعذرني ، فقد اعتراني بعض الضيق . » وسيشد على يده ويحدثه نوعاً من الحديث اللطيف » . ولكن لا . لقد فات الوقت . وتصرفه لا يمكن تلافيه . وفكر في نفسه غاضباً : « ما كان يحوجني لابتداء آرائي أمام أناس لا يفهمونها ! » وهز كتفيه بعصبية : انها كارثة . في نفس اللحظة كان غيغار وبييرات يعلقان على تصرفه ، وقال غيغار : « انه مجنون تمام الجنون ! » وضغط لوسيان على قبضة يده . وفكر بنوع من اليأس : « أوه ، كم انني اكرههم ! كم أكره اليهود ! » وأراد ان يجني بعض القوة من ذلك الكره الكبير . لكن الكراهية تلاشت أمام عينيه ، فمهما فكر بان ليون بلوم يتلقى المساعدة من

ألمانيا ويكره الفرنسيين ، لم يعد يشعر بسوى نوع من اللامبالاة . ومن حظ
لوسيان انه وجد مود في بيتها . وقال لها انه يحبها وضمها عدة مرات الى صدره
بنوع من الثورة . وقال في نفسه : « انتهى كل شيء ، ولن أصبح رجلاً مهماً »
فقال له مود : « لا . لا . كف عن هذا يا عزيزي الكبير ، هذا ممنوع » .
لكنها رضخت في النهاية : أراد لوسيان أن يقبلها في كل مكان . وشعر
بأنه صبياني النزعة منحرف الطباع . واعتزته رغبة في البكاء .

وفي صبيحة اليوم التالي انعصر قلب لوسيان حين وقع نظره على غيغار .
وتظاهر غيغار بأنه لم يره . ولم يتمكن لوسيان لشدة غيظه من كتابة شروح
الاستاذ وفكر في نفسه : « يا للقدر ! يا للقدر » . وفي ختام الدرس اقترب
منه غيغار وكان ممتقع اللون وفكر لوسيان : « لو اعترض ، سأضربه » .
ومكثا لحظة جنباً الى جنب ، كلاهما ينظر الى رأس حدائه . واخيراً قال
غيغار بصوت متهدج : « اعذرنى يا صاح ، فلم يكن ينبغي أن اقدم على هذا
العمل » . وارتعد لوسيان ونظر اليه بحذر . لكن غيغار تابع بصعوبة :
« صادفته في القاعة ، هل تعلم . عندها أردت ... وكنا نتمرن معاً ، ودعاني
الى بيته ، لكنني أدري ، كما تعلم ، لم يكن علي ان ، لست أدري كيف جرى
سوى انني كتبت البطاقات لم أفكر بالأمر لحظة واحدة ... » ولم يكن
لوسيان يقول شيئاً لأن الكلمات لا تخرج من فيه ، لكنه شعر بميله للغفران .
واضاف غيغار مطأطئ الرأس : « وبالنسبة لهذه الخطيئة ... » فقال لوسيان
وهو يربت على كتفه : « يا لك من مصران خنزير ، انا اعرف حق المعرفة
بأنك لم تتعمد ذلك » . واضاف : « وأنا اخطأت بدوري . وتصرفت تصرف
الفظ الغليظ . ولكن ماذا تريد ، لم استطع ان اتمالك نفسي ، فليس بامكاني
ان ألامسهم ، وهذا شيء طبيعي ، أحس بأن في ايديهم القشر . ما قالت
بييرات ! » فقال غيغار برفق : « لقد ضحككت كالمجنونة » .

- والرجل ؟

- لقد يفهم . وقلت كل ما بامكاني أن اقوله ، لكنه غادر الحفلة بعد

ذلك بربع ساعة . واطاف بنفس الرفق : « قال أهلي بأنك محق ، وبأنه ليس بإمكانك ان تتصرف بخلاف ذلك تجاه اعتقادك الراسخ . وتذوق لوسيان كلمة « اعتقاد » . واران أن يضم غيغار بين ذراعيه وقال له : « لا بأس . لا بأس . طالما أننا لا نزال اصدقاء » . ونزل الى جادة سان ميشال بنوع من الانشراح العجيب : وبدا له أنه ليس الشخص نفسه .

وقال في نفسه : « غريب هذا الأمر ، فلست أنا أنا ، ولا أعرف نفسي ! » لان الطقس دافئاً ولذيذاً ؛ والناس يجوبون الشوارع وعلى وجوههم ابتسامة الربيع الأولى . وانضم لوسيان الى هذا الجمهور المائع وكأنه زاوية من الفولاذ وفكر في نفسه : « ما عدت أنا نفسي ، أنا » كنت لا أزال حتى مساء أمس كالخشرة الضخمة ، التي تشبه قبايط فيرول . والآن يشعر لوسيان بأنه دقيق دقة الكرونومتر . ودخل مقهى لاسورس وطلب كأساً . لم يكن صحبه يقصدون لاسورس لأنها تعج بالغرباء . لكن الغرباء واليهود لم يكونوا ليضايقوا لوسيان في هذه الايام . وأحس بأنه غريب على تلك المجموعة من الاجساد البشرية التي تضح كحقل « الشوفان » إذ تلعب به الريح . وتعرف على يهودي قصير ، كانت العصبية قد ضربته في الفصل المنصرم ، في ممرات كلية الآداب . لم يظهر أثر الضرب على هذا الكائن العجيب السمين . لقد ألتوت اجزائه لكنه ما لبث ان عاد الى حالته السابقة . لكنه يعيش نوعاً من الاستسلام الفاضح .

انه سعيد في هذه اللحظة . لقد ثئاب بلذة . كما دغدغ شعاع الشمس منخريه ، فحك أنفه وابتسم . هل كانت تلك بسمة ؟ أو نوعاً من الارتجاج الذي نشأ في الخارج ، هناك في مكان ما من زاوية القاعة ، وجاء ليدوي فوق ثغره ؟ كان جميع هؤلاء الغرباء عائمين في مياه قائمة ثقيلة ، تهز بتموجاتها أجسامهم الرخوة ، كما ترفع ايديهم ، وتحرك أصابعهم ، يا للأشخاص المساكين ! ان لوسيان يشفق عليهم بعض الشفقة . لم أتوا الى فرنسا ؟ أية تيارات بحرية

جرفتهم وألقت بهم هنا؟ ومهما احتشموا في لباسهم عند خياطي جادة سان ميشال، فانهم ليسوا سوى حيوانات بحرية. وفكر لوسيان بأنه ليس حيواناً بحرياً، وبأنه لا ينتمي لاية مجموعة من الحيوانات المحترقة. وقال في نفسه: « انني أغطس! » وفجأة نسي لاسورس والغرباء، ولم يعد يرى سوى ظهر، ظهر عريض تكسوه العضلات، يبتعد بسرعة بقوة متزنة، ويضيع في الغمام. ورأى ايضاً غيفار: كان غيفار شاحب الوجه، يلاحق هذا الظهر بعينيه، ويقول لبيرات التي لم تظهر: « حسناً، بالنسبة للغلطة!... » واعتدى لوسيان نوع من السرور الذي لا مبرر له: ان هذا الظهر القوي المنعزل انما هو « ظهره »! والحادثة جرت أمس وبمجهوده العنيف استطاع أن يتطلع الى ظهره بعيني غيفار، وشعر بوضاعته وأحس بان الذعر قد دب فيه. وفكر في نفسه: « سيكون ذلك بمثابة درس لهم ». وتبدلت المناظر: انها غرفة بييرات الصغيرة، والحادثة تجري في المستقبل. بييرات وغيفار يشيران الى اسم في لائحة المدعوين. لم يكن لوسيان موجوداً، لكن سطوته خيمت عليهما. وقال غيفار: « آه! كلا. ليس هذا الشخص! حسناً! فمع لوسيان تصبح الامور جميلة؛ لوسيان الذي لا يستطيع الرفق باليهود ». لقد تلفظ مراراً بتلك العبارة، لكن هذه المرة تختلف عن المرات السابقة. كلا. في الظاهر ليس إلا، كما لو أننا نقول: لوسيان لا يحب السمك » أو ان « لوسيان يحب الرقص ». ولكن ينبغي أن نتجنب الخطأ. فمحببة الرقص، لعل بالامكان العثور عليها لدى اليهودي القصير، وهي لا تكون آتئذ سوى ارتعاشة حيوان بحري. لم يكن ينبغي سوى التطلع الى هذا اليهودي اللعين حتى ندرك بان اذواقه لاصقة به كرائحته، كانعكاسات جلده؛ وبانها ستختفي معه كاهتزازات جفنيه الثقيلين، وكبساقه المفعمة بالشهوة. لكن اللاساميّة لدى لوسيان تتخذ طابعاً آخر: انها طاهرة عديمة الشفقة، قد غرست بمنأى عنه كسكين الفولاذ، مهددة صدوراً آخر. وفكر في نفسه: « هذا، هذا... لعين! » وتذكر بان أمه كانت تقول له احياناً في صغره: « والدك يعمل في مكتبه »

وبدت له هذه العبارة بمثابة سر من الاسرار المقدسة أفضت اليه فجأة بجمهرة من الموجبات الدينية ، كأن لا يلعب ببندقية الهواء المضغوط وان لا يصبح « ترارا بوم » في الممرات وهو يمشي على رؤوس اصابعه ، كما لو انه داخل كنيسة . وفكر في نفسه راضياً كل الرضى : « الآن جاء دوري » . كانوا يقولون بصوت خافت « لوسيان لا يحب اليهود » ويحس الناس بان قواهم تتلاشى أمام جمهرة الاسهم التي تخرقها . ويقول في نفسه بجنون : « ان غيفار وببيرات طفلان » ارتكبا جرماً كبيراً ، ولكن ما ان كثر لوسيان عن أسنانه حتى شعرا بتوبيخ الضمير وراحا يتكلمان بصوت خافت ويسيران على رؤوس أصابعهما .

وأحس لوسيان للمرة الثانية بأنه مفعم باحترام نفسه . لكنه هذه المرة ليس بحاجة لعيني غيفار : فهو يبدو محترماً بعينه هو ، بعينه اللتين تخرقان غلافه المصنوع من اللحم ، من الذوق ، والاشمئزاز ، والعادات ، والأمزجة . وفكر في نفسه : « لم أجد نفسي حيث شئت عن نفسي » . وقام باحصاء جميع ما هو عليه . « لكنني إذا لم اكن إلا ما انا ، فأنني لا أساوي اكثر من هذا اليهودي القصير » . ولو بحثنا في سر هذا الغشاء ماذا بإمكاننا ان نجد ، إن لم يكن كآبة اللحم ، وأكذوبة المساواة ، والفوضى ؟ وقال لوسيان في نفسه : « الحكمة الأولى ، عدم البحث عن شيء في الذات . فليس من خطأ يفوق بخطورته هذا الخطر . وهو يعرف الآن ان لوسيان الحقيقي ينبغي ان يعثر عليه في أعين الآخرين ، في طاعة بييرات وغيفار ، وفي الانتظار المفعم بالأمل لدى أولئك الناس الذين يكبرون وينضجون من أجله ، وفي هؤلاء العمال الذين سيصبحون عماله هو ، وفي سكان الفيروول كباراً وصغاراً ، كان فسيصبح يوماً ما رئيساً لبلديتهم . واعتري لوسيان بعض الرهبة . وشعر بأنه كبير على نفسه . فكثيرون من الناس ينتظرونه لحمل السلاح : وهو كان وسيظل دائماً يجسّد انتظار الآخرين . وفكر في نفسه « هذا هو القائد » . ورأى من جديد ظهراً مكسواً بالعضلات ، ثم رأى بعد ذلك كنيسة كان في داخلها يسير بخطى الذئب تحت الأضواء المكيفة « لكنني ، انا الكنيسة » . وأمعن

النظر الى جاره ، وهو رجل كوبي اسمر عذب كالسيكار . كان ينبغي ايجاد كلمات بأي شكل للتعبير عن هذا الاكتشاف العجيب . ورفع يده بتؤدة وبعناية فائقة الى جبينه ، وخلا لنفسه قليلاً وجاءته الكلمات من تلقاء ذاتها وتم : « لي حقوق ، حقوق ! » شيء على صورة المثلثات والدوائر : إنه كامل الى حد انه ليس موجوداً ، فمهما رسمنا خطوطاً مستديرة بواسطة البركار فلن نتمكن من رسم الدائرة . أجيال من العمال ستطيع أوامر لوسيان كل الطاعة ، ولن تستنفد حقه بإعطاء الأوامر . فالحقوق من وراء الوجود كالأشياء الرياضية والعقائد الدينية . وهذا ما كان عليه لوسيان بالضبط : باقة ضخمة من المسؤوليات والحقوق لقد آمن لوقت طويل بأنه وجد بالصدفة : ومرد ذلك لأنه فكّر ما فيه الكفاية . فقبل ولادته كان اسمه مسجلاً في الشمس . في فيرول ، كانوا « بانتظاره » حتى قبل زواج أبيه . واذا ما أتى الى العالم الآن فلن يفتقد هذا المكان . وفكر في نفسه ، « أنا موجود لأن لي الحق بالوجود ولاول مرة ، على ما يبدو ، شهد رؤيا ساطعة مجيدة في مصيره . سيتم قبوله في المدرسة المركزية ان عاجلاً ام آجلاً (وليس لهذا أية أهمية على كل حال .) عندها يتخلى عن مود (انها تريد طيلة الوقت ان تضاجعه . وهذا مرهق فان رائحة الشواء تنبعث من امتزاج جسديهما في مستهل هذا الربيع الحار » ثم إن مود لجميع الناس : اليوم هي لي وغداً لغيري وليس لهذا اي معنى » . (سيقم في فيرول . في مكان ما من فرنسا فتاة من نوع بييرات ، فتاة ريفية ذات عينين ورديتين ، لا تزال تحافظ على عفتها من أجله : كانت تحاول ان تتخيل سيدها في المستقبل ، هذا الرجل الرهيب العذب . لكنها لم تتوصل الى ذلك ، انها عذراء . وتعترف بحق لوسيان بامتلاك جسدها وحده . سيقترن بها وستصبح « زوجته » وهي اكثر حقوقه عذوبة . وحين تخلع ثيابها في المساء ، بحركات لا أهمية لها ، ستكون بمثابة قربان . سيأخذها بين ذراعيه بموافقة الجميع ، ويقول لها : « انك لي ! » وان ما تبديه أمامه ، من واجبها ألا تبديه أمام غيره ، والعملية الجنسية ستكون بمثابة الاحصاء الشهواني لثرواته ، أي اكثر

حقوقه عذوبة ، وأعز حق عليه : حق الاحترام حتى في اللحم البشري ،
والطاعة حتى في السرير . وفكر في نفسه : « سأتزوج في وقت مبكر » . كما
فكر بعمل أبيه . انه يستعجل إتمامه وتساءل في نفسه إذا كان السيد فلورييه
سيموت بعد وقت قصير .

ودقت ساعة الجدار الثانية عشرة : قبلها بساعة كان قد دخل المعهد شاب
جذاب متردد ، فخرج منها رجلاً . هو قائد من الفرنسيين . وخطا لوسيان
بضع خطوات في ضوء صباح فرنسي مجيد . وفي زاوية شارع المدارس وجادة
سان جرمان ، اقترب من مكان حانوت الورق وتراءى أمام المرأة : كان بوده
أن يرى في وجهه ، وجه لي موردان غير الشفاف . لكن المرأة لم تعكس له
سوى وجه عنيد ، ليس مخيفاً جداً حتى الآن : وصمم في نفسه : « سأرسل
شاربي » .



60.

مطابع سميا - بيروت
DISTRIBUTION
BY AIR MAIL (SPECIAL)
BY AIR MAIL

مطابع سميا - بيروت

هَذَا الْكِتَابُ

* إِنَّ سَارْتِرَ مُفَكِّرَ جَبَّارٍ ، يَلَاحِقُ ظُلُمَاتِ النَّفْسِ ،
فَاضِحًا مَعْمِيَّاتِ الْغَازِمَا بِعَقْلِ ثَاقِبٍ وَحِسِّ مُرْهَفٍ . يُطَارِدُ
أَسْرَارَ الْفُؤَادِ ، وَكَثِيرًا مَا يَغْلِبُهَا سُبُورِ الْمُسْتَطِيلِ ، فَتُلْقِي
مُقَالِيدَهَا أَمَامَ قَلَمِهِ . وَهُوَ إِنْسَانٌ عَلَى حِدَّةٍ ، كَالَّذِي يَشْرُدُ
عَنْ حَمْرَاتِ الْمَالُوفِ ، حَرَّةً فِي كُلِّ جَيْلٍ ، لِيَضَعَ الْإِنْسَانِيَّةَ - مِنْ
جَدِيدٍ - عَلَى الدَّرُوبِ الصَّاعِدَةِ نَحْوَ الْبَلَاغِ الْأَسْتَى .

* إِنَّ دَارِسَ هَذَا الْمَفَكِّرِ الْجَبَّارِ ، يَرَاهُ مُخَاصِمًا فِي بَحْثِهِ عَنِ
الْحَقِيقَةِ ، لِأَنَّهُ يَطْلُبُهَا بِالْحَاحِ لَا يَتْرَاهِي . يَطْلُبُهَا فِي كُلِّ شَيْءٍ ،
بَلْ وَرَاءَ كُلِّ شَيْءٍ ، دُونَ أَنْ يَخَافَ مِنْ انْتِهَائِهِ إِلَى لَأِ شَيْءٍ .

* لَا شَكَّ عِنْدِي ، فِي أَنَّ سَارْتِرَ يُرِيدُ أَنْ يَفْتَحَ أَمَامَ
الْإِنْسَانِ حَمْرَاتٍ وَاسِعَةً فِي الْقُوَّةِ وَالثِّقَةِ بِالنَّفْسِ . حَمْرَاتٍ
تَحْرُرُ مِنَ الذُّلِّ وَالْمُسْكَنَةِ ، وَجُمُودِ الْعَادَاتِ وَالنَّقَالِيدِ .

* يُرِيدُ سَارْتِرَ أَنْ يَنْفُضَ عَنْ كَوَاهِلِنَا غُيُوبًا مَا
تَوَارَثْنَاهُ مِنْ عَقَائِدَ مُوهِنَةٍ لِلْعَزِيمَةِ . يُرِيدُ حَمِيرَةً لَا
نَخَالَةَ فِيهَا لِهَذَا سَرَاهُ يَقُولُ بَيَانَ الْوُجُودِيَّةِ فَلَسَفَةَ
تَمَاقُؤِ وَعَمَلٍ ، لَا يَمُكِّنُ مُطْلَقًا اتِّهَامَهَا بِالْيَأْسِ ، إِلَّا عَنْ
نِيَّةٍ سَيِّئَةٍ .